ENCOUNTERS WITH JESUS

لقاءاتٌ شخصيَّة مع يسوع

إجاباتٌ غير متوقَّعة عن أسئلة الحياة الكبرى

تيموثي كَلِر

لقاءاتٌ شخصيَّة مع يسوع

تيموثي كَلِر

ophir

كان لدى الأشخاص الذين التقاهم يسوع المسيح شخصيًّا أسئلة كبيرة عن الحياة، كتلك التي نواجهها اليوم مثل: ما الغاية من الحياة؟ ما معنى أن يعيشَ الإنسانُ "حياة صالحة"؟ لماذا يتخبَّط عالمنا في فوضى عارمة؟ وماذا يسعُني أن أفعل لأجعلَ العالم أحسن حالًا؟

وحالةُ أغلبنا اليوم هي أنَّنا تسلَّمنا إجاباتٍ لا تبدو نافعة على أرض الواقع، لكنْ عندما التقى يسوعُ هؤلاء الأشخاص، بدأت الأمور تتغيَّر على الفور عندهم؛ فهو لم يقدِّم إليهم فقط أجوبةً عن أسئلتهم، بل قدَّم أيضًا نفسَه على أنَّه "الجواب". وكما أجاب يسوع عن أسئلة هؤلاء، يمكنه أن يخوضَ اليومَ محادثاتٍ معنا للوصول إلى إجاباتٍ حول أسئلتنا وشكوكنا.

يركِّز كَلِر في الفصول الخمسة الأولى من هذا الكتاب على عددٍ من لقاءات يسوع- كلقائه المرأة السامريَّة المنبوذة ونيقوديموس المقبول اجتماعيًّا، ونثنائيل المتشكِّك- ويستمرُّ في الفصول الخمسة التالية في عرضِ أحداث مفصليَّة في حياة يسوع المسيح، مبيِّنًا لنا أنَّه يمكن للِّقاء مع يسوع المسيح اليوم أن يغيِّر حياتنا إلى الأبد.

ISBN 978-90-5950-210-9

www.ophir.com.jo
@ophirpub
ophirpub

ophir

لقاءاتٌ شخصيَّة
مع يسوع

"عندما بلغتْ حفيدتي لوسي (Lucy) عامًا ونصف من العمر، كان من الواضح أنَّ إدراكَها كان أكبرَ من قدرتها على التعبير. فكانت تُشيرُ إلى شيءٍ ما أو تلتقطُ شيئًا ما بيدَيها ثمَّ تُطيل النظر إليَّ بوَجهٍ يعلوه الإحباط الشديد. كانت تريدُ أن تُوصِل إليَّ رسالةً ما لكنَّ عمرها الصغير حالَ دونَ ذلك. وجميعنا نشعرُ بهذا النَّوع من الإحباط في لحظاتٍ مُتباينة من حياتنا. ويحدث هذا عندما تختبرُ أمرًا رائعًا وتُحاولُ أن تُوصِلَه إلى شَخصٍ آخر، وهنا تجدُ أنَّ كلماتِك عاجزةٌ أن تفِيَ هذا الاختبار حقَّه.

والأمر المؤكَّدُ هو أنَّ المسيحيِّين جميعًا سيَشعرون بالمشاعر نفسها عندما يرغبون في وَصْف اختباراتهم مع الله. مهمَّتي ورغبتي العُظمى، بصفتي معلِّمًا وواعظًا، هي أن أساعدَ الآخرين على رؤية الجمال الخالص في شخصيَّة السيِّد المسيح- في ذاته وفي ما فعله ولا يزال يفعله".

تيموثي كَلِر- من مقدِّمة الكتاب

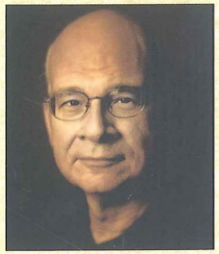

تيموثي كَلِر

وُلدَ ونشأ في ولاية پنسلڤانيا الأميركيَّة، وحصَّل علومَه في جامعة بَكنل (Bucknell University) ومعهد وستمينستر اللَّاهوتيّ (Westminster Theological Seminary)، وكلِّيَّة غوردون-كونويل اللَّاهوتيَّة (Gordon-Conwell Theological Seminary).

هو راعي كنيسة الفادي المشيَخيَّة في مَنهاتن، التي أسَّسها في ١٩٨٩م. ويحضُر تلك الكنيسةَ اليومَ جمهورٌ منتظمٌ يبلغُ نحو ستَّة آلاف شخص، في خمس خدمات كلَّ أسبوع، كما أنَّ لها عددًا من الكنائس المتفرِّعة منها، وتتولَّى زَرعَ الكنائس في المدن الكبرى حول العالَم. ونُشر له من أوفير للطباعة والنشر الكتب التالية: "الإيمان في عصر التَّشكيك" (*The Reason for God*)، و"مثل الابنَين الضالَّين" (*The Prodigal God*)، و"حرِّيَّة نسيان الذات" (*Freedom of Self-forgetfulness*).

لقاءاتٌ شخصيَّة
مع يسوع

لقاءاتٌ شخصيَّة مع يسوع

إجاباتٌ غير متوقعة عن أسئلة الحياة الكبرى

تيموثي كَلِر

ترجمة: د. سامح فكري حنَّا

أوفير
ophir

Originally published in English under the title:
Encounters with Jesus by the Penguin Group.

Penguin Group (USA) LLC
375 Hudson Street
New York, New York 10014
penguin.com
A Penguin Random House Company
Copyright © 2013 by Timothy Keller.

Arabic Edition Copyright © 2015 by **Ophir Printers & Publishers**.
All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

لقاءاتٌ شخصيّة مع يسوع
الطبعة العربية الأولى ٢٠١٥م
حقوق الطبع محفوظة

أوفير للطباعة والنشر
ص.ب. ٣٠٦٢، عمّان ١١١٨١، الأردن
هاتف: ٧٦٨ ٥٦٦٥ ٦ ٩٦٢+ ، فاكس: ٧٦٨ ٥٦٣٩ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo
www.ophir.com.jo

رقم الإيداع: ١٩٢٩/٥/٢٠١٥
ISBN 978-90-5950-210-9

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

الإهداء

إلى فريق الخدَّام والعاملين في الخدمات الجامعيَّة (Campus Universities)،
الذين قبلتُ الإيمان بهم، وهم مَن رعوا إيمانَ أولادي وزوجاتهم.
وأخصُّ بالذِّكر العاملين في رابطة الجامعيِّين
الإصلاحيِّين (Reformed Universities Fellowship)
في أميركا، و"رابطة الطلَّاب المسيحيِّين في الكلِّيَّات والجامعات"،
ومن بعدهم "رابطة الطلَّاب الجامعيِّين" (Inter-Varsity Fellowship)
في المملكة المتَّحدة.

فهرس المحتويات

المقدِّمة ٩

الفصل الأوَّل: الطالبُ المتشكِّك ١٩

الفصل الثاني: المنبوذةُ والمقبولُ اجتماعيًّا ٤١

الفصل الثالث: الأختان النائحتان ٦١

الفصل الرابع: حفلُ العرس ٧٩

الفصل الخامس: أوَّل مسيحيَّة ١٠٥

الفصل السادس: العدوُّ الأكبر ١٢٩

الفصل السابع: المُحامِيان ١٥٥

الفصل الثامن: السيِّدُ المطيع ١٧٩

الفصل التاسع: يمينُ الآب ٢٠٣

الفصل العاشر: شجاعةُ مريَم ٢٢٣

شكرٌ وتقدير ٢٤١
الحواشي ٢٤٣

المقدِّمة

نشأتُ في إحدى الكنائس البروتستانتيَّة المعروفة، لكنِّي مررتُ بعد التحاقي بالجامعة بمجموعةٍ من الأزمات الشخصيَّة والروحيَّة دفعتني إلى مُساءلة معتقداتي الجوهريَّة عن الله والعالم ونفسي.

تعرَّفتُ في ذلك الحين إلى بعض المسيحيِّين الذين كانوا نَشِطين في مجموعاتٍ صغيرةٍ لدراسة الكتاب المقدَّس. وفي هذه المجموعات، لم يلعَبِ القائدُ (رجلًا كان أم امرأة) دورَ المعلِّم أو المُوَجِّه، بل كان يعمل على تَيسير قراءة النصِّ الكتابيِّ المحدَّد وتفسيره، وكانت القواعد الأساسيَّة للقراءة والتفسير بسيطةً، وإنْ كانت ضروريَّة لتَماسُك عمليَّة الدراسة واتِّساقها، وتمثَّلت هذه القواعد في الآتي: أن نضعَ ثقتَنا في الكتاب المقدَّس وننظرَ إلى نصِّه كونه مصدرًا مَوثوقًا به، وإلى كُتَّاب الوحي بوصفهم أشخاصًا أكْفاء؛ ألَّا نسمحَ بفَرْض تفسيرٍ شخصيٍّ واحدٍ على الفِقرة مَوضوع الدراسة، بل نجتهد، نحن المجموعة، في الوُصول إلى استنتاجاتنا معًا. وكان الهدف أن نسعى إلى التَّنقيب عن كنوز الكتاب المقدَّس بوصفنا جماعة، مفتَرضين أنَّه يمكنُنا معًا أن نَرى أكثرَ وأبعدَ ممَّا يمكن أن يراه أيُّ فردٍ منَّا وحدَه.

قبل أن أتأكَّد من طبيعة المرحلة التي كنتُ أمرُّ بها في ما يتعلَّق بإيماني، طلبَ منِّي أحَدُهم قيادةَ إحدى المجموعات، وأمدَّني بمجموعةٍ من الدراسات الكتابيَّة تحمل عنوان "**أحاديث مع يسوع المسيح من إنجيل يوحنَّا**" *(Conversations with Jesus Christ from the Gospel of John)* للمؤلِّفتَين مارلين كونز (Marilyn Kunz) وكاثرين شيل (Catherine Schell)، وقد تناولَتْ ثلاثةَ عشرَ نصًّا من إنجيل يوحنَّا كان يسوعُ فيها طرفًا في أحاديث مع أفراد. وساعَدَتْ هذه الدراساتُ مجموعتي على استجلاء المعنى بعمق، والكشف عن الحكمة المخبوءة في النصوص، وذلك على نحوٍ أذهَلَنا جميعًا. ولدى قراءة هذه النصوص عن حياة يسوع، بدأتُ أشعرُ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى بأنَّ الكتاب المقدَّسَ ليس كتابًا عاديًّا. أجل، لقد حمل هذا الكتاب في طيَّاته ذلك الجمالَ النادرَ الذي تتَّسم به آداب الأزمنة القديمة، وإنْ كان فيه أمرٌ آخرُ مختلف. لقد بدأتُ أستشعرُ ما في هذا الكتاب من حياةٍ وقوَّةٍ تستَعصِيانِ على التفسير، وذلك بواسطة هذه الدراسات عن اللقاءات الفرديَّة مع يسوع. وهذه الأحاديث، التي تعود إلى قرون، صارت لدى قراءتها كاشفةً **لي أنا** ووثيقة الصلة **بي أنا في اللحظة الآنيَّة** التي أعيشُها الآن.

تعلَّمتُ أنَّ الصبرَ والتأمُّل هما مفتاحا البصيرة. وأتذكَّر أنِّي ذهبتُ يومًا إلى مؤتمرٍ لقادة مجموعات دراسة الكتاب المقدَّس، ولن أنسى ما حييتُ واحدًا من التدريبات التي تلقَّيناها. فقد أعطَتْنا المدرِّبة آيةً واحدةً هي مرقس ١: ١٧ حيث نقرأ: "فقالَ لهما يسوع: «هلمَّ ورائي فأجعلُكما تصيران

صَيَّادَي الناس»". ثمَّ طَلبت منَّا أن نُمضيَ ثلاثين دقيقةً في دراسة هذه الآية (وهي مقتبسة من أحَدِ اللقاءات الفرديَّة مع يسوع). ونبَّهتنا المدرِّبة أنَّنا بعد خمس أو عشر دقائق سنظنُّ أنَّنا رأينا كلَّ ما يمكنُ رؤيته في هذه الآية، لذا فقد شجَّعتنا على مواصلة التأمُّل، قائلةً: "اكتبوا ثلاثين شيئًا على الأقلِّ رأيتُموه أو تعلَّمتُموه من هذه الآية". وبعد عشر دقائق من بداية التدريب، انتهَيتُ من فحص الآية (أو هكذا ظننتُ) وبدأتُ أشعرُ بالملل. ولكنْ تقيُّدًا منِّي بأداء الواجب واصلتُ التأمُّل في الآية. وما أدهشَني أنِّي وجدْتُ أمورًا لا تزال هناك. وعندما انتهينا من فترة تأمُّلنا، طلبتْ منَّا المدرِّبة أن ننظرَ في قائمة الأمور التي كتَبناها ونضعَ دائرةً حول أكثر التأمُّلات التي أثَّرَت فينا واخترقَتْ نفوسَنا وساعدَتْنا على نحوٍ شخصيّ. وبعدها سألتنا هذا السؤال: "كم واحدًا منكم استخلَصَ أفضلَ تأمُّلاته في الدقائق الخمس الأولى؟ ارفعوا أيديكم". لم تُرفَع يدٌ واحدة. "وكم واحدًا استخلَصَ أفضلَ تأمُّلاته بعد الدقائق العشر الأولى؟" يدٌ واحدةٌ أو اثنتان. "الدقائق الخمس عشرة الأولى؟" رُفعتْ أيادٍ أكثر. "الدقائق العشرين الأولى؟" عدد كبيرٌ منَّا رفعوا أيديَهم الآن. "الدقائق الخمس والعشرون الأولى؟" الكثيرون منَّا الآن رفَعوا أيديَهم، ونحن نبتسمُ ونهُزُّ رؤوسَنا.

لقد تغيَّرتْ حياتي الروحيَّة حقًّا بفعل هذه الخبرات الأولى مع الدراسة الاستقرائيَّة المُتأنِّية للنصِّ الكتابيّ. لقد اكتشفْتُ أنِّي عندما خصَّصتُ الوقتَ واتَّخذتُ التوجُّه الصحيح في انفتاحي على النصِّ وثقتي به، فإنَّ الله تحدَّث إليَّ بكلمته. وكذلك وضعتني هذه الخبرات الأولى على طريق دعوَتي

بأن أمَدَّتْني بالأدوات التي أمكَنَني بها مساعدة الآخرين على سماع كلمة الله بواسطة الكتاب المقدَّس. ولِما يقربُ من أربعين عامًا، كنتُ أُعلِّم الناسَ وأعظُهم من الكتاب المقدَّس، لكنَّ ما تعلَّمتُه في أيَّام دراستي عن كيفيَّة مُجالسة النصِّ الكتابيِّ وسَبْر أغوارِه ظلَّ دائمًا هو أساس كلِّ حديثٍ أو محاضَرةٍ أو عِظة.

ولا أزالُ على قناعتي بسلطان الكتاب المقدَّس كلِّه، وأحبُّ أن أتعلَّم وأُعلِّم من كلِّ الكتاب المقدَّس. لكنَّ أوَّلَ مرَّةٍ استَشعرتُ فيها التأثيرَ الشخصيَّ الذي يتركه السلطانُ الروحيُّ للكتاب المقدَّس كان من الأناجيل، لا سيَّما تلك الأحاديث التي أجراها يسوع مع أفرادٍ بعَينهم- مع نثنائيل الطالب المتشكِّك، ومع أمِّ يسوع الحائرة بشأن ما جرى في العرس، ومع البروفيسور المتخصِّص في الدِّين الذي أتاه ليلًا، ومع المرأة التي التقاها عند البئر، ومع الأختَين مريَم ومَرثا المفجوعتَين جرَّاء مَوت أخيهما، ومع كثيرين آخرين.

وأظنُّ أنَّ العديد من لقاءاتي مع يسوع التي شكَّلتني شخصيًّا، كانت بدراسة لقاءاته الشخصيَّة مع أفرادٍ في الأناجيل.

كتبتُ منذ عدَّة سنواتٍ كتابًا بعنوان "**الإيمان في عصر التشكيك**" *(The Reason for God)*؛ وفي أثناء خدمتي لسنواتٍ عديدة بوصفي راعيًا في نيويورك كنتُ أحملُ تقديرًا بالغًا لآراء المتشكِّكين وطروحاتهم، وللدَّور بالغ الأهمِّيَّة الذي تلعبُه تلك الآراء في توضيح الأبعاد المتفرِّدة في المسيحيَّة. وأشعرُ بالانزعاج عندما أرى

المسيحيِّين وهم يستَنكِفون عن تساؤلات المتشكِّكين على نحوٍ يتَّسم بالسَّطحيَّة أو التَّلطُّف المبطَّن بالاستعلاء. وأتذكَّرُ جيِّدًا الشكوكَ والتساؤلات التي كنتُ أحملُها إلى مجموعات درس الكتاب التي كنتُ أرتادها أيَّام دراستي في الكلِّيَّة، وأتذكَّرُ مدى شعوري بالشكر والعرفان إزاء الطريقة التي أُخذَتْ بها هذه التساؤلات على مَحمل الجِدّ. وقد اكتشفتُ أنَّ بذلَ الوقت والجَهد في الإجابة عن الأسئلة الصعبة يمنحُ المؤمنين فرصةَ تعميق إيمانهم الشخصّي، وفي الوقت نفسه يُتيحُ الفرصةَ أمام المتشكِّكين لينفَتِحوا على الفرح الذي تمنحُه المسيحيَّة.

لهذه الأسباب سعدتُ عندما وُجِّهَت إليَّ دعوةٌ للحديث لمدَّة خمس ليالٍ مع طلبة- أغلبهم متشكِّكين- في أكسفورد تاون هول (Oxford Town Hall) بمدينة أكسفورد في إنكلترا عام ٢٠١٢م. وكان الاتِّفاق أن أدرسَ في هذه الاجتماعات اللقاءات الشخصيَّة التي جرت ما بين أفراد والربِّ يسوع المسيح في إنجيل يوحنَّا. وشعرتُ وقتها بأنَّ اختيارَ الموضوع كان مُوفَّقًا في علاقته بالسياق العامِّ لهذه الاجتماعات؛ لأنَّ تفاصيل هذه اللقاءات تكشفُ عن شخصيَّة يسوع وتعاليمه الأساسيَّة على نحوٍ بالغ التأثير والجاذبيَّة، كما اكتشفتُ ذلك شخصيًّا قبل سنواتٍ عديدة. وفي أثناء فترة إعدادي هذه المحاضرات، أثارَ انتباهي أنَّ هناك سببًا آخرَ يجعلُ هذه اللقاءات موضوعًا مناسبًا للحديث. وفي العديد من هذه اللقاءات نرى يسوع وهو يتناولُ الأسئلة الكبرى عن "معنى الحياة" مثل: ما الغرضُ من وجود هذا العالم؟ وما الخطأ الذي أصابَه؟ وما الذي يمكن أن يُصلحَ حالَه (إنْ أمكن)؟ وكيف؟ وكيف يمكن لنا أن نكونَ شركاء في إصلاح

حاله؟ والسؤال الأبرز، أين يمكن لنا أن نتحصَّل على إجابات عن هذه الأسئلة كلِّها؟ تلك هي الأسئلة الكبرى التي يجب على كلِّ شخصٍ أن يطرحَها، وهي الأسئلة ذاتها التي يجتهدُ المتشكِّكون المخلِصون في اكتشاف إجاباتها.

يملك كلٌّ منَّا تصوُّرًا مبدئيًّا عن الإجابات المحتملة عن تلك الأسئلة. وإذا حاولتَ أن تُمضي حياتَك دون هذه الإجابات، فسرعان ما ستغلبُك الحياةُ بما يبدو فيها من فقدانٍ للمعنى. ونعيش الآنَ في زمنٍ يُصرُّ فيه البعض على أنَّه يمكنُنا الاستغناء عن مثل هذه الإجابات، وأنَّنا لا نملكُ إلَّا أن نقبلَ أنَّ الحياةَ ليسَتْ سوى انشغالٍ بالعمل داخل ماكينةِ الكَون الكبرى على نحوٍ مُفرغٍ من أيِّ معنى. وحُجَّة هؤلاء هي أنَّه ليس أمام المرء إلَّا أن يحاولَ إمتاعَ نفسه قدرَ المستطاع ما دامَ على قَيد الحياة، وعندما يموتُ فلن يكونَ مَوجودًا في الدنيا ليقلقَ على شيءٍ فيها. ثُمَّ، لماذا نزعجُ أنفسَنا بالبحث عن معنى الحياة؟

على النَّقيض من ذلك، يقولُ الفيلسوف الفرنسيُّ لوك فَري (Luc Ferry)– وهو بالمناسبة ليس مسيحيًّا– في كتابه "**تاريخٌ موجزٌ للفكر**" *(A Brief History of Thought)* إنَّ مثل هذه الطروحات "تصل في صراحتها إلى حدِّ الفَجاجة التي تجعَلُنا نشكُّ في تَوصيفها الأمين للواقع". ما يقصدُه فَري هنا هو أنَّه لا يمكنُ لِلَّذين يطرحون مثل هذه الأفكار أن يؤمنوا بها تمامًا في قرارة نفوسهم؛ فالبشرُ لا يستطيعون أن يعيشوا دون أيِّ رجاء أو معنى ودونَ قناعةٍ بأنَّ هناك بعض الأمور جديرة بأن نفعلَها في حياتنا أكثرَ من غيرها. لذا فنحن نعلَمُ أنَّ

علينا بالفعل أن نحصلَ على إجاباتٍ عن هذه الأسئلة الكُبرى حتَّى يتسنَّى لنا- على حدِّ تعبير فَري- "أن نحيا حياةً سعيدة، ومن ثَمَّ حياةً حرَّة، نكون فيها قادرين على الفرح والمحبَّة والعطاء بسَخاء".

ويواصل فَري توضيح فكرته بالقول إنَّ كلَّ إجاباتنا الممكنة عن تلك الأسئلة الفلسفيَّة الكُبرى تكاد تنبعُ من خمسةِ أو ستَّة أنظمةٍ فكريَّة. وفي زمننا الحاضر، هناك العديد من الإجابات الأكثر شيوعًا التي تنبعُ من نظام فكريٍّ واحد على نحوٍ خاصّ. تأمَّل مثلًا في الفكرة التي يتضمَّنُها هذا السؤال: هل تعتقد أنَّ الفكرة القائلة بإظهار المودَّة لأعدائك ومَدِّ اليد لهم بدلَ قتلهم هي فكرة جيِّدةٌ إجمالًا؟ يقول فَري إنَّ هذه الفكرة- أي اجتهاد المرء في محبَّة الأعداء- قد أتت من المسيحيَّة دون سواها. وكما سنرى لاحقًا، هناك العديد من الأفكار الأخرى التي نحسبُ أنَّها صحيحة أو نبيلة أو حتَّى جميلة، والتي لم تصدُرْ إلَّا عن المسيحيَّة وحدَها.

واستنادًا إلى ما سَبَق، فإنَّك إنْ أردْتَ أن تطمئنَّ إلى صحَّة الإجابات التي تصل إليك عن تلك الأسئلة الجوهريَّة، وإلى دقَّة تلك الإجابات، فأنتَ تحتاجُ إلى تعرُّف تعاليم المسيحيَّة على أقلِّ تقدير. والطريقة المُثلى لذلك هي تأمُّل الكيفيَّة التي كشفَ بها يسوع عن نفسه وأهدافه للناس الذين التَقاهم، والتأمُّل أيضًا في الكيفيَّة التي تغيَّرت بها حياتُهم بسبب الإجابات التي قدَّمَها ردًّا على تساؤلاتهم. وتلك كانت الفرضيَّة الأساسيَّة التي قامتْ عليها محاضرات أكسفورد، والتي شكَّلت لاحقًا الأساسَ للفصول الخمسة الأولى من هذا الكتاب.

لكنِّي وجدْتُ لِزامًا عليَّ أن أواصلَ البحثَ في هذا الموضوع؛ ذلك لأنَّك عندما تبدأ في دراسة هذه اللقاءات الشخصيَّة المغيِّرة للحياة مع الربِّ يسوع لمَّا كان بيننا في الجسد، وترى جمالَ شخصيَّته وقصده، وتسمع إجاباته عن الأسئلة الكبرى- فإنَّه لا يسعُك إلَّا أن تطرحَ سؤالًا آخر: كيف يمكنُني أن ألتقيَ يسوعَ بعد كلِّ هذه القرون؟ هل يمكنُ أن أتغيَّرَ كما تغيَّر شهودُ العِيان الذين التَقاهم؟

تُخبرُنا بشارة الإنجيل بأنَّنا مُخلَّصون- أي أنَّنا تغيَّرنا إلى الأبد- ليس بواسطة ما نفعله، أو حتَّى بما يقولُه يسوع لمَن يلتَقيهم، بل بما فعلَه لأجلنا. لذا يمكنُنا أن نكتشفَ النعمةَ والقوَّة اللتين يمنحُهما يسوعُ لتَغيير حياتنا إذا ما نظَرْنا إلى ما أنجزَه وأتمَّه في الأحداث الرئيسيَّة في حياته هنا على الأرض: آلامه فى البرِّيَّة عند المعموديَّة وبستان جَثسَيماني، وساعاته الأخيرة مع تلاميذه، وموته على الصليب، وقيامته وصعوده. وبواسطة ما فعله يسوع في هذه اللحظات من حياته أكملَ لنا خلاصًا ما كان لنا أن ننجزَه بأنفسنا. وإذا أمكنك أن ترى هذا، فعندئذٍ يمكنُك أن تتحوَّلَ في علاقتك بيسوع من مجرَّد معرفةِ شخصِه بوصفه مُعلِّمًا وشخصيَّةً تاريخيَّة إلى لقاء شخصيٍّ معه بوصفه فاديًا ومُخلِّصًا على نحوٍ مُغيِّر للحياة.

وسيُلقي النصفُ الثاني من الكتاب الضَّوءَ على بعض الأحداث المحوريَّة في حياة يسوع. ويعودُ الأساسُ الذي تقوم عليه هذه الفصول إلى سلسلة محاضرات قدَّمتُها في اجتماعاتٍ صباحيَّة منتظمةٍ لمجموعةٍ من رجال الأعمال ورجال الحكومة وقادة الثقافة على مدار فترةٍ امتدَّت عدَّة سنوات. وكما كانت الحال مع محاضرات أكسفورد، فقد ضمَّت القاعةُ التي تحدَّثت فيها العديد

من أصحاب الدرجات العلميَّة العالية والإنجازات المرموقة ممَّن ساعَدوني عبر مشاركتهم شكوكَهم وتساؤلاتِهم. وفي هاتَين السلسلتَين من المحاضرات كنتُ- كما كانت حالي دائمًا على مدار العقود الماضية- أرجعُ إلى هذه النصوص الإنجيليَّة التي شعرتُ للمرَّة الأولى لدى قراءتها بما قصدَه الكتابُ المقدَّس عن كلمة الله "الحيَّة والفعَّالة"(عبرانيِّين ٤: ١٢). وكما تعلَّمتُ من مُدرِّبتي في ذلك المؤتمر، فإنِّي كلَّما اكتشفتُ المزيدَ في طيَّات هذه النصوص، ازدادَ حماسي لمشاركة الآخرين بما تعلَّمتُه.

هناكَ سببٌ آخرُ دفعَني إلى تأليف هذا الكتاب. فعندما بلغتْ حفيدتي لوسي (Lucy) عامًا ونصف من العمر، كان من الواضح أنَّ إدراكَها كان أكبرَ من قدرتها على التعبير. فكانت تُشيرُ إلى شيءٍ ما أو تلتقطُ شيئًا ما بيدَيها ثمَّ تُطيل النظر إليَّ بوَجهٍ يعلوه الإحباط الشديد. كانت تريدُ أن تُوصِل إليَّ رسالةً ما لكنَّ عمرها الصغير حالَ دونَ ذلك. وجميعنا نشعرُ بهذا النَّوع من الإحباط في لحظاتٍ مُتباينة من حياتنا. ويحدث هذا عندما تختبرُ أمرًا رائعًا ثمَّ تهبط من قمَّة جبل هذا الاختبار أو تخرج من قاعة الموسيقا أو أيِّ مكانٍ آخرَ كنتَ فيه لتُحاولَ أن تُوصِلَ ما اختبرتَ لشَخصٍ آخر. وهنا تجدُ كلماتِك عاجزةً أن تفِيَ هذا الاختبار حقَّه.

والأمر المؤكَّدُ هو أنَّ المسيحيِّين جميعًا سيَشعرون بالمشاعر نفسها عندما يرغبون في وَصْف اختباراتهم مع الله. مهمَّتي ورغبتي العُظمى، بصفتي معلِّمًا وواعظًا، هي أن أساعدَ الآخرين على رؤية الجمال الخالص في شخصيَّة السيِّد المسيح- في ذاته وفي ما فعله ولا يزال يفعله. لكنَّ عدم كفاية كلماتي (وربَّما أيَّة

كلماتٍ أُخرى) في تعبيرها الوافي عن هذا الجمال يُشكِّل إحباطًا وحزنًا دائمَين لي. غير أنَّه ليس هناك مكانٌ يمكن أن نلجأ إليه ليساعدَنا في هذا المشروع الجليل أفضل من تلك النصوص عن لقاءاتِ يسوع الشخصيَّة مع الناس كما وردَتْ فى الأناجيل.

رجائي أن تأسرَك شخصيَّة السيِّد المسيح وما فعلَه ولا يزال يفعلُه لأجلنا، سواء كنتَ تقرأ هذه النصوص للمرَّة الأولى أم للمرَّة المئة.

الفصل الأوَّل

الطالبُ المتشكِّك

اللقاءُ الأوَّل الذي أودُّ التأمُّل فيه يتَّسمُ بالغُموض، وإن كان تأثيره قويًّا في النفس، وهو لقاءٌ مع طالبٍ مُتشكِّك. ويتناوَلُ هذا اللقاء سؤالًا لعلَّه الأهمُّ ضمنَ أسئلة الحياة الكُبرى: أين يجب أن نبحثَ عن الإجابات عن أسئلة الحياة الكُبرى؟ وأين **يجب أن نتجنَّب** البحث عن هذه الإجابات؟ لذا فإنَّ هذا اللقاء يخاطبُ المتشكِّكين في المسيحيَّة، كما يخاطبُ أيضًا المسيحيِّين الذين يواجَهون بالشُّكوك من جانب غير المؤمنين بها.

ويَرِدُ هذا اللقاء عقبَ المقدِّمة التي تتصدَّرُ إنجيل يوحنَّا. ويُشير الفيلسوف الفرنسيُّ لوك فَري إلى أنَّ هذه المقدِّمة مثَّلتْ واحدةً من نِقاط التحوُّل في تاريخ الفكر. فقد آمَنَ اليونانيُّون وقتَها بأنَّ الكونَ يقومُ على نظامٍ منطقيٍّ وأخلاقيّ، وقد أسمَوا هذا النظام الطبيعيَّ "**اللوغوس**" (Logos). وكان تأمُّل هذا النظام الموجود في العالم وتمييزه هو معنى الحياة عند اليونانيِّين الذين عرَّفوا الحياةَ

السعيدة بوصفها تلك الحياة التي تتواءمُ مع هذا النظام. وهنا يتعمَّدُ يوحنَّا أن يستعيرَ في بداية إنجيله المصطلح الفلسفيَّ اليونانيَّ "**لوغوس**" في كلامه عن يسوع الذي يقول فيه:

> "في البدء كانَ الكَلمة [**لوغوس**]، والكَلمَة كانَ عندَ الله، وكانَ الكلمة الله. هَذا كانَ في البدء عندَ الله. كلُّ شيءٍ به كان وبغيرِه لم يَكُنْ شيءٌ ممَّا كان. فيه كانَت الحياة والحياةُ كانَت نورَ الناس... والكلمةُ صارَ جَسدًا وحلَّ بيننا ورأينا مَجدَه" (يوحنَّا ١: ١-٤، ١٤).

كانت هذه العبارات أشبَهَ بالصاعقة للفلاسفة القدماء. ويتَّفقُ يوحنَّا مع الفلاسفة اليونانيِّين ويختلف مع الكثيرين من الفلاسفة المعاصرين في تأكيده على وجود غايةٍ (Telos) أو غرض لحياتنا- أمرٍ ما خُلِقنا لأجله، علينا أن ندركَه ونجلَّه لنحيا حياةً سعيدةً وحرَّة. ويُعلنُ يوحنَّا في هذه العبارات أنَّ العالم ليسَ نِتاج قوى عشوائيَّةٍ عَمْياء، وأنَّ تاريخَ هذا العالم ليس مجرَّدَ "حكاية يحكيها مَعتوهٌ، ملؤها الصَّخَبُ والعُنف، ولا تعني أيَّ شيء"*. لكنَّ النصَّ الكتابيَّ يواصلُ توضيحَ الفكرة ليؤكِّد بعدَها أنَّ معنى الحياة ليس مجرَّدَ مبدأ أو بِناء منطقيٍّ مجرَّد، ولكنَّ معنى الحياة هو **شخص**، إنسانٌ واحدٌ عاشَ على أرضنا. وهنا يلاحظُ فَري أنَّ هذا التصوُّرَ صدمَ الفلاسفةَ الذين رأوا فيه "نوعًا من الجنون"، لكنَّه تصوُّرٌ أدَّى إلى ثورة. إنْ كانت المسيحيَّةُ صحيحةً، فإنَّ الحياةَ

* العبارةُ مأخوذةٌ من المشهد الخامس في الفصل الخامس من مسرحيَّة **ماكبث** لشيكسبير، والترجمة العربيَّة لجبرا إبراهيم جبرا والمنشورة عام ١٩٩٠م، ص. ٧٨٢ ضمن ترجماته الأُخرى لمسرحيَّات **عُطيل** و**الملك لير** و**هاملت** (المترجم).

الجديرةَ بالعَيش لا نجدُها أساسًا في التأمُّل الفلسفيِّ أو الاجتهادات الفكريَّة التي لا تُتاح أصلًا لأغلب سكَّان الأرض، بل نجدُ مثل هذه الحياة في شخصٍ نلتَقيه في علاقة، والدخول في هذه العلاقة متاحٌ للجميع، في أيِّ مكانٍ مهما كانتْ خلفيَّتهم.

ولكي يُرينا يوحنَّا التطبيق المباشر لهذه الفكرة في الحياة العمليَّة، فإنه يُرينا يسوعَ وهو يتفاعلُ مع مجموعةٍ من الطلبة (التلاميذ). لم يكن للجامعات وُجودٌ في أيَّام يسوع، لذا فإنْ أردتَ أن تكونَ طالبَ علم، فليس أمامَك سوى أن تجد مُعلِّمًا وتكونَ واحدًا من مُريديه. وكان هناك آنذاك العديد من المعلِّمين الروحيِّين الذين تبعَهم الكثيرون وصاروا ضمن تلاميذهم. وربَّما كان يوحنَّا المعمدان المعلِّم الذي فاقَ نظراءَه في ريادته وتفوُّقه في ذلك الوقت؛ فكان معروفًا من الجميع ولدَيه أتباعٌ كثيرون وعددٌ من التلاميذ المخلِصين. وسجَّلَ لنا التاريخُ عددًا من هؤلاء التلاميذ وهم: أندراوس، الذي كان له أخٌ يُدعى بطرس، وفيلبُّس الذي أتى بصديقه نثنائيل إلى يسوع. وكان بعضٌ من هؤلاء التلاميذ قد آمنَ بما كان يقولُه يوحنَّا عن المسيَّا الآتي، والذي أسماه يوحنَّا "حمل الله" (يوحنَّا ١: ٢٩). غير أنَّه كانت لعددٍ قليلٍ من هؤلاء التلاميذ بعض الشكوك. وكان نثنائيل واحدًا من هؤلاء التلاميذ المتشكِّكين حتَّى اللحظة التي التقى فيها يسوعَ شخصيًّا:

> "في الغَدِ أرادَ يَسوعُ أنْ يَخرُجَ إلَى الجَليلِ، فوَجَدَ فيلبُّسَ فقالَ له: «اتبَعني» وكانَ فيلبُّس من بَيتِ صَيدا، من مدينةِ أندَراوُسَ وبُطرس. فيلبُّسُ وجَدَ نَثَنائيلَ وقالَ له: «وجَدْنا الذي كتَبَ

عنه موسى في النَّاموس والأنبياءُ يسوعَ ابنَ يوسُفَ الذي من الناصِرة». فقالَ له نَثَنائيل: «أمنَ الناصِرة يُمكنُ أنْ يكونَ شيءٌ صالحٌ؟». قالَ له فيلُبُّسُ: «تعالَ وانظُرْ». ورأى يَسوعُ نَثَنائيلَ مُقبِلًا إليهِ، فقالَ عنهُ: «هوذا إسرائيليٌّ حقًّا لا غِشَّ فيه». قالَ له نَثَنائيلُ: «من أين تعرِفُني؟». أجابَ يَسوعُ وقالَ له: «قَبلَ أنْ دَعاكَ فيلبُّسُ وأنتَ تحتَ التِّينة، رأيتُك». أجابَ نَثَنائيلُ وقالَ له: «يا مُعلِّم، أنتَ ابنُ الله! أنتَ مَلِكُ إسرائيلَ!». أجابَ يسوعُ وقالَ له: «هل آمَنتَ لأنِّي قُلتُ لكَ إنِّي رأيتُكَ تحتَ التِّينة؟ ستَرى أعظَمَ من هذا!» وقالَ له: «الحقَّ الحقَّ أقولُ لكُم: منَ الآنَ ترَونَ السماءَ مَفتوحةً، وملائكةَ الله يَصعَدونَ ويَنزلونَ على ابنِ الإنسانِ»" (يوحنَّا ١: ٤٣-٥١).

بدايةً، أودُّ أن ألفتَ انتباهَك إلى مشكلة نثنائيل. إنَّه شخصٌ مثقَّف متحذلق- على أقلِّ تقدير- وربَّما يكون شخصًا متعصِّبًا أيضًا. يذهبُ إليه فيلبُّس قائلًا: "أريدُك أن تلتقيَ هذا المعلِّم الجديد؛ فهو يملكُ إجاباتٍ عن الأسئلة الكبرى التي نواجِهُها في زماننا، وهو من الناصرة"، وعندها يَردُّ نثنائيل ساخرًا: "الناصرة؟" كلُّ المنحدرين من أورشليم ينظرون باستِعلاءٍ إلى كلِّ المنحدرين من الجليل. وهذا النَّوع من السلوك ليس غريبًا على الجنس البشريّ؛ فهناك مَن يقطنون بعض المناطق السكنيَّة الذين ينظرون إلى سكَّان مناطق أخرى حاسبين إيَّاهم "خارجين عن المألوف". وكيف يتعاملُ هؤلاء الذين يتعرَّضون لهذه النظرة الاستعلائيَّة مع الموقف؟ يبدأون في البحث عن أشخاصٍ آخرين

يمكنُهم أن يمارسوا عليهم ما تعرَّضوا له من نظراتِ استعلاء. وهكذا تدورُ الحلقة إلى ما لا نهاية. ورغم أنَّ نثنائيل لم يكن من أورشليم، بل من إحدى مناطق الجليل، فقد شعرَ بأنَّ في وُسعه أن يمارسَ استعلاءَه على سكَّان منطقةٍ أُخرى كالناصرة التي كانت تُعدُّ في حالةٍ أسوأ مقارنة ببقيَّة مناطق الجليل. وهناك دائمًا الناس الأفضل، والناس الأنسب، والناس الأذكى، وهناك أيضًا على النَّقيض (اخفض صوتك وأنت تنطقُها) **أولئكَ الآخرين** المختلفين. والطريقة المُثلى التي تُوحي بها للنَّاس الأفضل والأنسب والأذكى أنَّك واحدٌ منهم هي أن تتحيَّنَ الفرصةَ التي يأتي فيها ذِكْرُ الناس والأماكن الأسوأ لتَصدُرَ عنك نظراتُ الاستهجان.

إنَّنا نرغبُ في جَعْل الآخرين ينظرون إلينا بوَصْفنا أذكياء ومُقتَدِرين فكريًّا، وكثيرًا ما نسعى إلى التأكيد على هذه الهُوِيَّة التي نرغبُ فيها لأنفسنا، ولكن ليس بطرح الحجج القويَّة التي نجتهدُ في صياغتها، بل بالسُّخرية والاستهزاء. وهنا لا ينحصرُ الأمرُ في مجرَّد خطأ ارتكبناه، بل يُنبئ هذا بشأن ارتباك في التوجُّه وانكفاء على أنفسنا ومحدوديَّة شديدة في تفكيرنا. لم يستَطع نثنائيل أن يصدِّقَ أنَّ شخصًا من منطقة مثل الناصرة يمكنُ أن يملكَ الإجابات عن الأسئلة الكبرى في زمانه. ولسان حاله يقول: "هل قلتَ إنَّ لدى هذا الشخص الإجابات- رغم أنَّه من الناصرة؟ لا أظنُّ ذلك". وهنا تبدو نظراتُ الاستهجان على وجه نثنائيل. "أليس هو من **هناك**؟ هل ما تقوله **حقيقيّ**؟"

إن كانت تلك نظرتك إلى المسيحيَّة، أو كُنتَ تَعرفُ شخصًا ينظرُ إلى المسيحيَّة على هذا النحو، فهذا أمرٌ لا يُثيرُ دَهشَتي. واليوم تتشابَه كثيرًا نظرة ناسٍ كثيرين

إلى المسيحيَّة مع نظرة نثنائيل إلى الناصرة. ولا تزال المسيحيَّة حتَّى يَومنا هذا من الناصرة. ولا يزالُ الناس يميلون إلى إصدار نظراتِ الاستهجان إزاءَ تصوُّراتهم عن المسيحيَّة وما تطرحه من أفكارٍ عن شخصِ السيِّد المسيح وما فعله وما يمكن أن يفعلَه لأجلهم. كلُّ مَن يتدثَّرون بثياب المعرفة من هذه النوعيَّة من الناس يقولون: "المسيحيَّة... أجل، لقد جرَّبتُها، ونشأتُ عليها وتيقَّنتُ في وقتٍ باكر أنَّها لا تُناسِبُني، وقد اتَّخذتُ قراري منذ ذلك الحين". يسوع لم يزَلْ من الناصرة.

إن كان هذا تَوجُّهَك نحو المسيحيَّة، فلَدَيَّ اقتراحان لك؛ لأنِّي أظنُّ أنَّ هناك قضيَّتَين أمامَك عليك التعامُل معهما: الأولى تتعلَّق بهذا النوع من الرفض المبطَّن بالاستعلاء والذي دائمًا ما يكون مُدمِّرًا. هذا الرفض المستَعلي يقضي على كلِّ إبداع ويقتلُ كلَّ إمكانيَّةٍ لحلِّ المشكلات، ناهيك بالقضاء على الأمل في بناء أيَّة علاقة. في كتابها بعنوان "**في السرَّاء**" *(For Better)* تشيرُ تارا باركر پوپ (Tara Parker-Pope) إلى أنَّ نظراتِ الاستهجان تُمثِّل إنذارًا واضحًا يدلُّ على أنَّ العلاقة الزوجيَّة في خطرٍ كبير. ودائمًا ما يبحث المختصُّون في المشورة الزوجيَّة عن هذه النظرة؛ لأنَّها تعبِّرُ لديهم عن احتقار أحَدِ أطرافِ العلاقة للطَّرف الآخر. ويمكنُ للزَّواج الناجح التغلُّبَ على الألم والإحباط وخَيبة الأمل والاختلاف في الرأي. لكنَّه يفشلُ في التعامل مع الرفض الكامل من أحَد الأطراف تُجاهَ الآخر؛ فالاحتقار يقتلُ هذه العلاقةَ تمامًا. ويمكنُنا أن نجدَ مثلًا آخرَ يوضحُ الفكرةَ في ذلك الموقف الذي تفقدُ فيه مفاتيحَك. فعندما تبدأ في البحث عنها في كافَّة الأماكن التي "يمكن" أن تكونَ فيها ولا تجدها، عندئذٍ فقط يتحتَّمُ عليك البحث في الأماكن التي "لا يمكن" أن تتوقَّعَ أن توجَدَ فيها،

وغالبًا ما تجدها هناك. لذا فلا يوجَدُ خطرٌ مميتٌ يمكنُ أن يقضيَ على الحكمة والعلاقات الصحِّيَّة أكثر من نَبذِ أفكارٍ معيَّنة أو أشخاصٍ بعَينهم.

القضيَّة الثانية أهمُّ من الأولى. عندما ترفضُ المسيحيَّة وتنبذُها، فأنتَ في حقيقة الأمر تبترُ الجذرَ الحيَّ الذي قد تنبعُ منه العديد من قِيَمَك الجوهريَّة. كما ذَكَرْنا سابقًا، كانت المسيحيَّة مصدرًا لواحدة من الأفكار التأسيسيَّة للحضارة القائمة على السلام، وهي فكرةُ ضرورةِ محبَّة الأعداء، ليس قتلَهم. وهناك فكرةٌ أخرى شكَّلتْ مكوِّنًا أساسيًّا في ضميرنا المعاصر، كما يشير لوك فَري، وهي القائلة إنَّ كلَّ إنسانٍ خُلِقَ على صورة الله، لذا فهو يتمتَّعُ بالكرامة والحقوق، بغَضِّ النَّظَر عن مواهبه أو ثروَتِه أو عِرقِه أو نَوعه. ويقول فَري إنَّه لولا التعليم الذي أتَتْ به المسيحيَّة عن كون "**اللوغوس**" شخصًا، "ما كان لتقومَ قائمةٌ لفلسفةِ حقوق الإنسان التي نحتَذي بها اليوم".

وفكرةٌ أُخرى مصدرها الكتاب المقدَّس، ونحسبُها ضِمنَ المسلَّمات اليوم، وهي ضرورة رعاية الفقراء. فعندما كان الرُّهبان ينشرون المسيحيَّة في أوروبا قبل أن تعرفَ المسيحيَّة، كانت كلُّ النُّخَب وقتَها تظنُّ أنَّ محبَّة الأعداء ورعاية الفقراء هما ضَرْبٌ من الجنون. كانوا يقولون إنَّ المجتمعَ سيَنهارُ بسبب هذه الأفكار؛ لأنَّ العالم لا يسير وَفقًا لهذا المنطق، ووحدَهم الموهوبون والأقوياء هم الذين يسودون غَيرهم، والغالب هو الذي يأخذُ كلَّ شيء لنفسه، والقويُّ يفترسُ الضعيف. أمَّا الفقراء فقد وُلدوا ليُعانوا، ولسان حال النُّخَب التي تبنَّت هذه الأفكار: "أما كانت الحال هكذا دائمًا مع كلِّ شيء؟" إلَّا أنَّ تعاليم المسيحيَّة أقامَتْ ثورةً في أوروبا الوثنيَّة، وذلك في

تأكيدها على كرامة الفرد، وسيادة المحبَّة، بما في ذلك محبَّة الأعداء، ورعاية الفقراء واليتامى.

هنا ربَّما تقول لنفسك: "حسنًا، هذه حُجَّةٌ تاريخيَّةٌ مثيرةٌ للاهتمام، تلك القائلة إنَّ الكتابَ المقدَّسَ والكنيسة هما مصدر هذه الأفكار، لكن من جهتي يمكنني الإيمانُ بهذه الأفكار دون الحاجة إلى الإيمان بالمسيحيَّة". قد يكونُ ما تقولُه صحيحًا على مستوًى من المستويات، لكنِّي أراه رأيًا قصير النظر.

في الواقع، يفتحُ لنا سفرُ التكوين نافذةً على طبيعة الثقافات التي سبقَتِ وحيَ الكتاب المقدَّس. وأحَدُ الأمور التي نراها في وقتٍ باكر هو شيوعُ ممارسة البكوريَّة- أي تَوريث الابن الأكبر كلَّ ثروة أبيه، وهو ما كان يضمن حفظ مقامَ العائلة ومكانتها في المجتمع. لذا فالابن الثاني أو الثالث لا يحصل على شيء، أو ربَّما يحصل على أقلِّ القليل. ورغم ذلك، فإنَّك لو نظرتَ في كلِّ الكتاب المقدَّس، لوَجدتَ أنَّ الله دائمًا يختار الابن الأصغر عندما يريدُ شخصًا يعمل بواسطته عملًا ما. اختار الله هابيل لا قايين، واختار إسحاق لا اسماعيل، كما اختار يعقوب لا عيسو، ويوسف دونًا عن كلِّ إخوَتِه الأحَد عشر، وعشرةٌ منهم أكبر منه سنًّا. في كلِّ مرَّةٍ لا يقعُ اختيار الله على الأكبر سنًّا أو مَن يتوقَّعه العالم أو يُقدِّرُه. وإنْ جازَ التعبير، لا يقعُ اختيارُ الله على الشخص المنحدر من أورشليم، بل يختارُ دَومًا المنحدرَ من الناصرة.

ويكشفُ لنا سفر التكوين عن عاداتٍ ثقافيَّةٍ أُخرى قديمةٍ متعلِّقةٍ بالنِّساء اللَّاتي أنجبْنَ عددًا كبيرًا من الأطفال؛ إذ كنَّ مَوضعَ تقدير في هذه المجتمعات حاسبين إيَّاهنَّ بطلات. لقد كانت كثرة الأطفال في ذلك الوقت تعني نجاحًا

اقتصاديًّا ونجاحًا عسكريًّا، كما كانت تعني تزايُدَ احتمالات الحفاظ على اسم العائلة في المستقبل. لذا فإنَّ النساء العاقرات كنَّ يُوصمْنَ دَومًا بالعار. ورغم ذلك، فإنَّنا إذا تأمَّلْنا الكتاب المقدَّس، سنجد أنَّ الله- عندما يُرينا الكيفيَّةَ التي يعملُ بها بواسطةِ امرأةٍ ما- يختارُ النساءَ العاجزات عن الإنجاب ويفتح أرحامهنَّ. لقد كنَّ نساء محتَقَرات، لكنَّ الله اختارهنَّ دونًا عن النساء اللاتي تمتَّعنَ بحبِّ الناس وتقديرهم. لقد اختارَ الله سارة امرأةَ إبراهيم، واختار رفقة امرأة إسحاق، وحَنَّة أمَّ صموئيل، وأليصابات أمَّ يوحنَّا المعمدان. ودائمًا ما يعملُ الله بواسطة الرجال أو الفِتيان الذين لا يريدُهم أحَد، والنساء والفتيات اللاتي لا يرغبُ فيهنَّ أحَد.

ربَّما يكونُ ردُّ فعلك هنا هو الإعجابَ بهذا الجانب الجميل والمشجِّع في المسيحيَّة، وبفكرةِ أنَّ الله يُحبُّ المستَضعَفين. وربَّما تقولُ لنفسك: "يمكنني أن أقبلَ هذا الجانب من الكتاب المقدَّس، لكنِّي لا أقبلُ أجزاء أُخرى متعلِّقةً بغضب الله ودم المسيح وقيامة الجسد". ويكونُ ردِّي هو أنَّ هذه الأجزاء من الكتاب المقدَّس- تلك الأجزاء التي تتناولُ أمورًا فائقةً للطبيعة- هي أمورٌ محوريَّة وليست هامشيَّة. في الواقع، تقع في قلب الرسالةِ الفريدة التي يحملُها الكتاب المقدَّس فكرةُ أنَّ الله السرمديَّ غير المحدود بمكانٍ وزمان- جاءَ إلى أرضنا بنفسه وارتَضى أن يكون ضعيفًا، ومُعرَّضًا للألم والموت. وقد فَعَلَ هذا كلَّه لأجلنا- فعل الكُلِّ ليُكفِّر عن خطايانا، ويأخُذَ العقابَ الذي كنَّا نستحقُّه. وإنْ كان ذلك صحيحًا، فما فعلَه الله هو بذلٌ للذَّات غير مشروط، وتضحيةٌ دافعُها المحبَّة الكاملة، وهذه جميعًا تُثيرُ الدهشة على نحوٍ لا يمكنُ

للعَقل تخيُّله. ولا يمكن أن يكونَ هناك أساسٌ أقوى وباعثٌ أكثر فاعليَّةً لكلِّ تلك المفاهيم الأخلاقيَّة الثوريَّة ممَّا قدَّمه الله إلينا، وهي المفاهيم التي أتَتْ بها المسيحيَّة، وهي ما يجذبُنا إليها اليوم. وما جعلَ الأخلاقيَّات المسيحيَّة مُتَفَرِّدةً ليس فقط أنَّ يسوع والمسيحيِّين الأوائل كانوا أشخاصًا جَديرين بالاحترام فعلوا أمورًا جديرةً بالاحترام ليجعلوا العالم مكانًا جديرًا بالعَيش فيه، بل اكتسبَتْ هذه الأخلاقيَّات دلالتَها عندما استَطاعَ الناس فَهْمَ الرسالة المسيحيَّة عن طبيعة الواقع النهائيّ، ويُلخِّصُ هذه الرسالة ما يُسمِّيه الكتابُ المقدَّس بمصطلح "بشارة الإنجيل".

يكمنُ جَوهرُ الاختلاف ما بين المسيحيَّة وأيَّة ديانةٍ وأنظمة فكريَّةٍ أُخرى في الآتي: كلُّ الأديان تقول إنَّك إذا أردْتَ أن تجدَ الله؛ وتُحسِّنَ من نفسَك، وتَرتَقي إلى مستوًى أعلى من الوعي، وإنِ ابتَغيتَ الاتِّصالَ بما هو إلهيّ (كيفما كان تعريفك لمصطلح "إلهيّ")- فعليكَ أن **تفعل** شيئًا ما: أن تستجمعَ قوَّتك، وتلتزمَ القواعد، وتفرِّغَ ذهنك من أفكار، ثمَّ تملأه بأفكار أخرى، أي أنَّ عليك إجمالًا أن تكونَ فوقَ المستوى الطبيعيِّ للبشر. إنَّ كلَّ ديانةٍ أُخرى أو فلسفةٍ إنسانيَّة تقولُ لك إنَّك إذا أردْتَ أن تُصلحَ من شأن العالم أو من شأنك أنت، فعليك أن تستدعيَ كلَّ طاقتك الذهنيَّة وقوَّتك لتَعيشَ حياتَك على نحوٍ مُعيَّن.

أمَّا المسيحيَّة فتُنادي بالعكس تمامًا. كلُّ ديانةٍ أو فلسفةٍ أُخرى تقول إنَّه يتحتَّمُ عليك أن تفعلَ شيئًا إنْ أردْتَ الاتِّصال بالله؛ أمَّا المسيحيَّة فتَنفي ذلك، وتقول إنَّ يسوع المسيح جاءَ ليفعلَ نيابةً عنكَ ما عجزتَ أنتَ عن عمله. كلُّ ديانةٍ أُخرى تقولُ لك: "ها هي الإجابات عن الأسئلة الكبرى"، أمَّا المسيحيَّة

فتقول: "يسوع هو الإجابة عن كلِّ الأسئلة". إنَّ العديدَ من الأنظمة الفكريَّة تروقُ الأقوياء والناجحين من الناس؛ لأنَّها تتلاقى مباشرةً مع اعتقادهم أنَّ نجاحَ المرء مشروطٌ فقط بقوَّته واجتهاده في العمل اجتهادًا كافيًا. أمَّا المسيحيَّة فهي ليست مقصورةً على الأقوياء، بل هي للجميع، لا سيَّما لأولئك الذين يُقِرُّون بأنَّهم ضعفاء في حقيقة الأمر. إنَّها لأولئك الذين يملكون من القوَّة ما يجعلهم يعترفون أنَّ فسادَهم ليس أمرًا سطحيًّا، وأنَّ قلبَهم في حالةِ فَوضى عميقة، وأنَّهم عاجزون عن إصلاح أنفسهم. إنَّ المسيحيَّة هي لأولئك الذين يرَون أنَّهم يحتاجون إلى مُخلِّص، وأنَّهم يحتاجون إلى يسوع المسيح مصلوبًا ليُصلحَ علاقتهم بالله.

فكِّرْ في ما قرأتَه الآن. قد يبدو ذلك لك فكرًا مُنافيًا للمنطق السليم، في أفضل الأحوال، أو فكرًا مُنَفِّرًا، في أسوأ الأحوال. وتكمنُ عبقريَّة المسيحيَّة في أنَّها **لا** تقول لك: "هذا ما يجب أن تفعلَه لتَجِدَ الله". ذلك هو الحقُّ الفريد والثوريُّ الذي قدَّمته المسيحيَّةُ إلى العالم. كلُّ الأفكار الثوريَّة الأخرى عن رعاية الضعفاء والمحتاجين، والحياة المدفوعة بالمحبَّة وخدمة الآخرين لا بطلب السلطة والنجاح، وتقديم المحبَّة المُضَحِّية حتَّى إلى الأعداء- كلُّ هذه الأفكار إنَّما تنبعُ من الإنجيل نفسه الذي ينادي أنَّه بسبب هُوَّة الخطيَّة السحيقة التي كنَّا فيها، جاءَنا الله في شخص يسوع المسيح ليفعلَ ما عجزنا عن فعله لأنفسنا- جاءَ ليخلِّصَنا.

والسؤال الآن: إنْ كنتَ تُقِرُّ الآن بمصدر العديد من قناعاتك، فلماذا تقبلُ جانبًا من التعليم المسيحيِّ دون قبول الجانب الآخر الذي يفسِّرُه ويجعله

مُتَّسِقًا؟ لا تكن مثل نثنائيل. لا تجعلِ اعتقادَك أنَّ المسيحيَّة تقادَمَتْ، أو أنَّها سطحيَّة فكريًّا، يحجبُ عنك رؤية ما تُقدِّمه إليك. احترسْ من كبريائك وهواك، وحذارِ من الازدراء والرفض المتعالي؛ فهذا التوجُّه ضارٌّ بكافَّة جوانب الحياة، لا سيَّما عندما يتعلَّق الأمر بطَرْح الأسئلة الأساسيَّة.

وهكذا فإنَّ أوَّل جانب مهمٍّ في قصَّة نثنائيل هو مشكلة الكبرياء والازدراء. لكنْ بعيدًا عن ذلك؛ وبغَضِّ النظر عن روح السخرية لديه، فإنَّ لديه حاجةً روحيَّةً عميقةً وغيرَ ظاهرة. وعندما يقول نثنائيل "الناصرة! هل يمكن أن يأتي شيءٌ صالحٌ من هناك؟"، فهو يقولُ بعدَها بلحظاتٍ قليلة "يا مُعلِّم، أنت ابن الله، أنتَ ملك إسرائيل". في اللحظة التي يعطي فيها يسوعُ نثنائيلَ بعض الأدلَّة الواضحة التي تشير إلى هُويَّته، فإنَّ نثنائيل يَعدِّلُ توجُّهاته بسرعةٍ فائقة (كما سنرى لاحقًا، يوبِّخ يسوع نثنائيل قليلًا بسبب سرعته في الردّ). هل يدهشُك ذلك؟ إنَّه أمرٌ لا يدهشُني شخصيًّا.

عندما انتقلنا أنا وزوجتي كاثي (Kathy) إلى مَنهاتن منذ أكثرَ من عشرين عامًا، أرَدْنا أن نبدأ كنيسةً جديدة. وقيلَ لنا وقتها إنَّ نيويورك حافلةٌ بالشَّباب الطموحين والأذكياء، وإنَّنا إذا بدأنا كنيسةً في مَنهاتن، فلن يأتيَ إلينا أحَد؛ لأنَّ هؤلاء الشباب جميعًا يظنُّون أنَّهم يعرفون أفضلَ من الجميع. وقيل لنا أيضًا إنَّ هؤلاء الشباب ينظرون إلى الدِّين باستعلاء، لا سيَّما المسيحيَّة. تَذكَّر أنَّ المسيحيَّةَ من الناصرة. وهؤلاء الشباب كانوا ينظرون إليها باستهجان، لذا فلن يأتي أحد. والغريب في الأمر أنَّ ذلك لم يحدث، حيثُ تضمُّ الآن كنيسة الفادي المشيخيَّة (Redeemer Presbyterian Church) ما يزيد على

خمسة آلاف شخصٍ يرتادون اجتماعات الأحد بانتظام، ولا تزال الكنيسة الآن في حالة نموٍّ دائم.

والسبب وراء ذلك هو السبب ذاته الذي أدَّى إلى تغيير نثنائيل. فخلف التوجُّهات الشكوكيَّة التي تملأ بصخبها المجالَ العامّ، كان هناك الكثير من رحلات البحث الروحيِّ البعيدة عن الأنظار. وقد أرادَ كلُّ هؤلاء الشباب الطموحين والأذكياء أن يظهروا كأنَّهم لا يهتمُّون كثيرًا بالإجابة عن الأسئلة الأساسيَّة، أو أنَّهم وجدوا هذه الإجابات في الأفكار التي يعتَنِقونها بكلِّ قوَّة. ولكنْ خلفَ كلِّ ذلك، كان لديهم الاحتياجُ نفسه الذي لدينا جميعًا- ذلك الاحتياج الذي لا يستطيع أيٌّ منَّا تجاهُلَه والهروبَ منه. وكان على هؤلاء الشباب أن يجدوا إجابات، والكثيرون منهم وَجَدوها في المسيحيَّة.

وبالطريقة ذاتها؛ ورُغمَ كلام نثنائيل الحادّ، عليكَ أن تَلحَظَ أنَّه ذهبَ في النهاية مع فيلبُّس للقاء يسوع. لماذا فعل ذلك؟ مثلُه مثلُ الكثير من شباب اليهود في جيله، كان نثنائيل يعاني في محاولته فهمَ ما يجري من بطشِ روما باليهود، الذين لم يفهموا آنذاك ما كان يفعلُه الله. وكان شباب اليهود وقتَها يعانون أزمةَ هُوِيَّةٍ عِرقيَّة. هل عليهم أن يبحثوا عن المسيَّا؟ ماذا سيكونُ شكلُ مستقبلهم؟ أما زالوا شعبَ الله أم زالتْ عنهم هذه الصفة؟ هل رفضهم الله؟ ومن الواضح أنَّ نثنائيل لم تقنعه إجابات الآخرين عن هذه الأسئلة، وحتمًا لم يكن سعيدًا بفهمه الشخصيِّ للأمور، وربَّما لم يكن راضيًا عن حالته الروحيَّة. وهنا كان عليه أن يفكِّر ولسان حاله يقول: "ربَّما عليَّ أن أوجِّه نظري إلى الناصرة، رغم صعوبة الاقتناع بذلك".

العديد من الطلبة اليوم يتَصارَعون مع أشكالٍ مختلفة من أسئلة الحياة الكُبرى، وإنْ كان الكثيرون منهم أيضًا غير راضين عن الإجابات التي تلقَّوها من أكثر المدارس تفوُّقًا أو من الكتب، وهؤلاء ربَّما يقودُهم حالهم، مثل نثنائيل، إلى البدء في استكشاف شخصيَّة يسوع. وهناك مَثَلٌ معروفٌ على هذا النوع من التحوُّل نجدُه في حياة الشاعر الشهير ويستان هيو أودن (W. H. Auden) الذي انتقلَ إلى مَنهاتن عام ١٩٣٩م. في ذلك الوقت كان أودن قد صار بالفعل كاتبًا عظيمًا، وكان قد هجرَ إيمانَه بكنيسة إنكلترا الذي كان قد تلقَّنه في طفولته، وهو حال معظم أصدقائه في أوساط المثقَّفين البريطانيِّين آنذاك. لكن بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية غيَّر أودن من توجُّهاته الفكريَّة وقَبِلَ الحقَّ المسيحيّ، وأصابَ الكثيرين بالصَّدمة لدى عَودَته إلى الكنيسة.

ما الذي حدث؟ في سرده لاختبار تجديده الروحيّ، يشيرُ أودن إلى الصدمة التي تلقَّاها في أربعينيَّات القرن العشرين من فكر النازيِّين الذين جاهَروا بإيمانهم بالعدالة والحرِّيَّة للجميع، ومع ذلك هاجموا المسيحيَّة على أساس أنَّ "محبَّة القريب كالنَّفس ليست إلا وصيَّةً تتناسبُ فقط مع الجبناء المخنَّثين".[١] يُضيف أودن أسبابًا أخرى للصَّدمة، فيقول: "إنَّ الإنكارَ التامَّ لكلِّ ما كانت تمثِّله الليبراليَّة كان يثيرُ حماسًا محمومًا لدى قطاعاتٍ كبيرةٍ من الناس، ليس في بلاد الهمج والبرابرة، ولكن في واحدةٍ من أكثر دول أوروبا رقيًّا في مستوى التعليم". وفي ضَوء ذلك كلِّه، لم يعُدْ أودن يعتقد أنَّ قِيَمَ الليبراليَّة (ويقصد بها هنا الحرِّيَّة والعقل والديمقراطيَّة والكرامة الإنسانيَّة) باتت بدهيَّةً من البدهيَّات، كما كان يفترض. وفي هذا السياق يقول أودن:

"إذا افترضنا أنَّ النازيِّين الحاصلين على أعلى درجات التعليم مُخطئون، وأنَّنا نحن الإنكليز الحاصلين أيضًا على أعلى درجات التعليم مُصيبون، فما الذي يُضفي المصداقيَّةَ على قِيَمنا وينزعُها عن قِيَمهم؟ إنَّ المثقَّفين الإنكليز الذين يصرخون الآن إلى السماء ضدَّ الشرِّ المتجسِّد في هتلر (Hitler) ليست لديهم سماءٌ يصرخون إليها؛ لأنَّ كلَّ تيَّارِ الفكر الليبراليِّ يقوم على تقويض أركان الإيمان بالمطلق. وعِوَضًا عن ذلك نصَّبَ هذا التيَّار العقلَ حَكَمًا. لكنْ في غياب المطلق؛ وما دامَتِ الحياةُ عمليَّةَ تغييرٍ دائم، فإنَّ محاوَلةَ الإنسان إتمام وعوده ستؤدِّي إلى نتيجةٍ حتميَّةٍ أُخرى وهي إمكانيَّة حنث الوعود إذا ما شعرتُ أنَّ ذلكَ مناسبًا لي. والخِيارُ الموضوع أمامنا الآن: إمَّا أن نخدمَ المطلقَ غير المشروط، وإمَّا أنَّ مَسخًا هِتْلَريَّ الطابع سيُقدِّمُ إلينا قوانينَ صارمةً يصنعُ الشرَّ بها".

كانت المسيحيَّة من "الناصرة"، حتَّى عند أودن الذي نشأ داخل الكنيسة. لقد تركَ أودن المسيحيَّة حاسبًا إيَّاها فكرًا خارجَ الزمن لا ينفعُ في شيء. لكنَّ صُعود النازيِّين جعلَه يرى أمرًا ما. لقد آمنَ أودن بحقوق الإنسان كما آمنَ بالحرِّيَّة. لكنَّ السؤال هو: لماذا آمنَ بذلك؟ إنَّ العالم الطبيعيَّ يقوم على مبدأ إجرائيٍّ عمليٍّ يقولُ إنَّ القويَّ يأكلُ الضَّعيف. لذا فإنْ كان من الطبيعيِّ أن يأكلَ القويُّ الضعيف؛ وإنْ كنَّا قد جئنا إلى هذا العالم عبر عمليَّة التطوُّر البيولوجيِّ غير الموجَّه، فلماذا ننزعجُ فجأةً عندما تشرعُ الأممُ القويَّة في أكْلِ

الأمم الضعيفة، ونصرخ عندها "**هذا خطأ**"؟ على أيِّ أساسٍ نفعلُ ذلك؟ وعلى أيِّ أساس يمكنُنا أن نقولَ إنَّ الإبادةَ الجماعيَّةَ في السودان خطأ، حيث "تأكل" جماعةٌ عرقيَّةٌ قويَّةٌ أُخرى ضعيفة؟ إنْ كانَ لا وُجودَ لله، فإنَّ رؤيتي للعدالة ليسَتْ سوى رأيي الشخصيّ، لذا كيف يمكنُنا إدانة النازيَّة؟

أدركَ أودن أنَّه دون وجود إله، لم يكن لديه الحقُّ في أن يقولَ لأيِّ إنسانٍ آخرَ إنَّ مشاعرَه أو أفكارَه أكثر مصداقيَّةً من مشاعر هذا الشخص أو أفكاره. كما رأى أودن أيضًا أنَّه ما لم يكن هناك إله، تصيرُ كلُّ القِيَم التي نتبنَّاها محضَ خيال. ولأنَّه تيقَّنَ أنَّ هذه القِيَم لم تكُنْ خيالًا- هذه الإبادة الجماعيَّة كانت بالفعل جُرمًا كبيرًا- فقد خَلُصَ إلى أنَّه لا بدَّ أن يكونَ هناك إله.

مثلُه مثلُ الطالب المتشكِّك نثنائيل، كان أودن مقتنعًا بفكرة أنَّ "الناس الأفضل" في زمنه وجدوا في المسيحيَّة موضوعًا لسخريَتهم. لكنَّ تساؤلاته الفكريَّة التي لم يجد لها إجابات- والمتعلِّقة بالأساس الذي تقوم عليه القِيَم الأخلاقيَّة- أثارت عنده الرغبة في النظر إلى شخصيَّة يسوع نظرةً جديدة. وبعدها نال أودن الاختبارَ نفسَه الذي نالَه نثنائيل عندما فتحَ عقلَه وقلبه للرجل المنحدر من الناصرة، فآمن به.

في كتابه "**بَعدَ الفضيلة**" *(After Virtue)* يقدِّم إلينا الفيلسوف ألاسدير ماكنتاير (Alasdair MacIntyre) منطقًا في التفكير شبيهًا بذاك الذي أدَّى بالشاعر أودن إلى الإيمان. ويرى ماكنتاير أنَّك لا تستطيع أن تحدِّد ما إذا كان شيئًا ما جيِّدًا أم سيِّئًا ما لم تعرف **غاية** هذا الشيء. مثلًا، يتساءل الفيلسوف: كيف

يمكنك أن تعرف إن كانت ساعةُ اليد جيِّدة أم سيِّئة؟ للإجابة عن السؤال عليك أن تعرف الغرض منها. إذا حاولتُ أن أدقَّ مسمارًا باستخدام ساعتي، فانكسرت، هل من حقِّي أن أشكو قائلًا إنَّها "ساعة سيِّئة"؟ بالتَّأكيد لا؛ لأنَّ الساعة لم تُصنَع لِدَقِّ المسامير، فذلك ليس الغرض منها. فالغرضُ منها هو أن تُطلعَك على الوقت بنظرة سريعة إليها. والمبدأ نفسه ينطبق على الإنسان، فكيف يمكنك القول إنَّ شخصًا ما جيِّدٌ أو سيِّئٌ ما لم تعرف السبب الذي صُمِّمَ لأجله، والغرض من وجوده؟

لكن ماذا لو قلتَ لي هنا: "أنا لا أعلم إنْ كان هناك إله أم لا، وأنا لا أعتقد أنَّ البشر صُمِّمُوا لأيِّ غرض". هل ترى الورطة التي أنتَ فيها الآن؟ إن كنتَ تؤمنُ فعلًا بذلك، فيجبُ ألَّا تتحدَّثَ بشأن ناسٍ جيِّدين أو سيِّئين مرَّةً أخرى. إنْ كنتَ تؤمن بأنَّنا لم نُصَمَّم لشيء أو أنَّنا بلا غرض، ولم تزَل تصفُ بعضَ الناس بأنَّهم "لا يعيشون حياتهم بطريقةٍ صحيحة، أو أنَّهم مخطئون"، فأنتَ إذًا إمَّا تناقِضُ نفسَك وإمَّا أنَّك مخادع.

لا أستطيع أن أُثبتُ لكَ صحَّة المسيحيَّة، لكنْ يمكنني أن أريَك من الأسباب الرصينة ما يجعلك تؤمنُ بيسوع. إن كنتَ، مِثل نثنائيل، مستعدًّا لأنْ تُقِرَّ بحاجتك العميقة لأن تكتشفَ إجاباتٍ أفضل ممَّا لديك عن الأسئلة الكبرى؛ وإن كنتَ مستعدًّا للتوقُّف عن النظر إلى المسيحيَّة بعَين الاحتقار، فأنا أدعوك لأن تفكِّر في الرجل المنحدر من الناصرة. ولا يوجد سببٌ كافٍ يمنعك من تأمُّل هذا الرجل، لا سيَّما بعد أن عرفتَ الأفكارَ التي غيَّرت العالم والتي خرَجت من المكان الذي أتى منه.

الجانب الثالث الذي نودُّ التأمُّل فيه من قصَّة نثنائيل هو العلاج الذي قدَّمه يسوع ليسدَّ به حاجتَه. عندما يلتقي يسوعُ نثنائيلَ يخبره بأمرَين.

بدايةً، يشيرُ يسوع إلى نثنائيل حاسبًا إيَّاه إسرائيليًّا "لا غِشَّ فيه". ربَّما كان لطيفًا من يسوع أن يقول إنَّ نثنائيل شخصٌ يتحدَّث دون مواربة ويُظهر ما يُبطِن. لكنَّ الآخرين ربَّما رأوه شخصًا حادًّا؛ وربَّما لم يكن مَحلَّ إعجاب الكثيرين لأنَّه كان جريئًا في الإفصاح عن رأيه وكان دائمًا ما يتجاوزُ في حقِّ الآخرين. لكنَّ يسوع يكشف لنا هنا عن جانبٍ من جوانب شخصه هو: أنَّ يسوعَ يستطيع أن يرى أعماقنا، وإنْ كان ذلك لا يمنعُه من أن يكونَ رقيقًا معنا. وقد أدهَشَ نثنائيلَ نفاذُ بصيرة يسوع (وربَّما سماحة روحه)، ويتساءل: "من أين تعرفني؟".

وهنا يتفاعلُ يسوع مع نثنائيل مُجيبًا: "لقد رأيتكَ تحتَ التينة". وأضيفُ هنا أنَّ واحدًا من الأسباب التي تجعلنا نثقُ بأنَّ النصَّ الإنجيليَّ هو رواية شاهد عِيان هو أنَّنا لا نجد في أيِّ مَوضع آخر أيَّة تفاصيل عمَّا كان يحدثُ تحت التينة، أو الأسباب التي تجعل هذا الموقف جديرًا بالإشارة إليه. عندما ينسج المرء قصَّة من وحي الخيال لا يمكنه أن يشيرَ إلى أمرٍ دون بيان تفاصيله؛ لأنَّ ذلك من شأنه أن يُعيقَ تصاعُدَ أحداث القصَّة، وهو أمرٌ يُثيرُ لدى القارئ من القضايا ما يصرف انتباهه عن متابعة الحبك القصصيِّ الأساسيّ. ماذا إذًا كان يفعل نثنائيل تحتَ التينة؟ لا أحَدَ يعلم. كلُّ ما يهمُّنا هنا أنَّ نثنائيل لم يكن يصدِّق أنَّ يسوع عَرفَ ما كان يفعلُه. لقد كان الأمرُ خاصًّا جدًّا، ومُهمًّا جدًّا، كما كان مُبهِرًا له أن يعرف يسوع بهذا الأمر ومغ ذلك يقبله. وهنا يقول له نثنائيل: "أنت ملكُ إسرائيل! أنتَ المسيَّا!"

وفي تلك اللحظة يوجّه يسوعُ عتابًا رقيقًا لنثنائيل، قائلًا: "لقد غالبَك الشكُّ في البداية، وأنت الآن على استعداد لأن تقبلَني وأنا لم أخبرْكَ بعدُ بهُوِيَّتي الحقيقيَّة. بالأمس لم يكن يصدر عنكَ سوى نظراتِ الاستهجان، واليوم تلتقيني وتختبر أمرًا جديدًا في عواطفك. لقد التقيتَ اليوم إنسانًا لديه معرفة فائقة للطبيعة بشخصيَّتك. لكن على مهلك يا صاحبي، لا تؤخذ بالمظاهر، فأنت لا تزالُ غير فاهمٍ حقيقة شخصيَّتي".

بعد القيامة قال توما للتَّلاميذ، وهو أحَد التلاميذ: "إنْ لم أبصِرْ في يدَيه أثرَ المسامير، وأضعْ إصبعي في أثر المسامير، وأضعْ يدي في جنبه، لا أومن". وعندما ظهرَ يسوع لتوما، لم يقُلْ له "كيف تجرؤ على الشكِّ فيَّ؟" بل قال: "هاتِ إصبعك إلى هنا وأبصِر... ولا تكن غير مؤمنٍ بل مؤمنًا". بعبارةٍ أخرى، فإنَّ ما يقوله يسوع هنا: "يُعجبني أنَّك تتطلَّع إلى الأسباب التي تجعلك تؤمن بي، وأنا سأمنحك تلك الأسباب لأنك تبحث عنها بنيَّةٍ صادقة". لا يقفُ يسوعُ في وجه الذين يفكِّرون. في واقع الأمر هو يُؤكِّد على أهمِّيَّة أن يمارسَ نثنائيل المزيد من التفكير.

لذا فإنْ كنتَ مُتشكِّكًا في المسيحيَّة، فعليك أن تدركَ أنَّ هناكَ أمورًا يجب أن تضعَها في الحسبان. أوَّلًا، أن تظلَّ متشكِّكًا إلى الأبد، فهذا انهزاميَّة فكريَّة وأخلاقيَّة. من ناحيةٍ أخرى، فإنَّ استسلامك لفكرتك الأولى عن رغبتك في أن تجدَ إشباعًا لحاجاتك العاطفيَّة العميقة لن يجيبَ عن أسئلتك في نهاية الأمر. لا يكفي أن تتحوَّل إلى المسيحيَّة لمجرَّد أنَّها تُلَبِّي بعض ما تحسبُه أنت حاجاتٍ معيَّنة؛ فالمسيحيَّة ليست سلعةً للاستهلاك. لذا عليك أن تتحوَّل باهتمامك نحوها فقط إن كانت **حقيقيَّة**.

هل لاحظتَ ما قاله يسوع أخيرًا لنثنائيل؟ قال له: "هل آمنتَ لأنّي قلتُ لكَ إنّي رأيتكَ تحتَ التينة. سوف ترى أعظم من هذا... الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم من الآن ترون السماء مفتوحةً وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان". هل ترى المعنى هنا؟ عندما تأتي إلى يسوع قد تقول لنفسك: "ربَّما لن أحصل على إجابات لأسئلتي الكبرى، لكن ربَّما سيساعدني يسوع أن أكونَ شخصًا أفضل ممَّا أنا عليه الآن، ولعلَّه يتعامل مع وَحدتي وبعض مشكلاتي الأخرى". عندما نأتي إلى يسوع، فإنَّنا دائمًا ما نضعُ حدودًا لرهاناتنا، وننتظر بتوقُّع ما إذا كانت حاجاتنا ستُلبَّى أم لا.

لكنَّك عندما تجدُ يسوع، ستكتشفُ أنَّه دائمًا ما يتجاوز كلَّ ما تخيَّلته فيه. عندما يقول يسوع إنَّ نثنائيل سيرى ملائكةً يصعدون وينزلون على ابن الإنسان، فإنَّه يشير إلى تلك اللحظة في العهد القديم التي غلب فيها النعاس يعقوب فرأى سُلَّمًا ما بين الأرض والسماء، ورأى ملائكةً يصعدون وينزلون على هذا السُّلَّم. الملائكة هم رمزٌ لحضور الله الملكيِّ المهوب. ولأنَّ الناس تحوَّلوا عن الله ودمَّروا أحَدُهم الآخر، صارَ هناك حائط سميك، إنْ جاز التعبير، ما بين السماء والأرض. صار هناك حاجزٌ ما بين المثال والواقع. لكنَّ يعقوب رأى هذه الرؤية، وحلم بأنَّه في يوم من الأيَّام وعلى نحوٍ ما سيصير هناكَ اتِّصالٌ ما بين السماء والأرض، وسيُتاحُ طريقٌ ما به ندخل محضر الله. وهنا يقدِّم يسوع إلينا هذا الإعلانَ العجيبَ أنَّه هو هذا الطريق. هو "**اللوغوس**" الخاصُّ بهذا الكون، وهو الجسر ما بين السماء والأرض.

يكاد المرء أن يسمع يسوع وهو يضحك في هذا الموقف وهو يجيب نثنائيل.

ويُخَيَّل لي أنَّ يسوع قال له: "يا للعجب! أنتَ تظنُّ أنِّي المسيَّا. لعلَّك تظنُّ أيضًا أنِّي سأمتطي جوادًا وأذهب للإطاحة بالرومان الطغاة. لكنِّي سأريكَ أمورًا أعظم من هذا كلِّه. إنَّ الإطاحة بالرومان لن تغيِّر حالَ الإنسانيَّة، ولن تكسرَ شوكةَ الشرِّ والموت، ولن تُعيدَ العالم إلى حاله الأولى. أقول لكَ إنِّي مركَز الكون. أنا نقبتُ ثغرة في الحائط السميك بين السماء والأرض. وبتجسُّدي إنسانًا ومَوتي على الصليب، الذي لم تشهده بعد، بإمكاني أن آتي بكَ إلى قلب محضر الله".

إن كان معظم الباحثين عن الحقِّ يبدأون بحثهم وهم يخشون الإحباط في نهاية مسعاهم، فإنَّ يسوع يقول لهؤلاء إنَّه سيظلُّ دائمًا أبدًا خارج حدود توقُّعات ما يبحث عنه أيُّ شخص. سيظلُّ يسوع دائمًا مُجاوزًا توقُّعاتنا، وسيعلو كثيرًا كلَّ ما نطلبه أو نتخيَّله.

رجائي أن تطرحَ انحيازاتك جانبًا وتأتيَ مع نثنائيل. تعالَ وانظر وتكلَّم مع أصدقائك عن يسوع. تعالَ وأنتَ مستعدٌّ لتغيير أولويَّاتك ومفاهيمك. مهما كانت توقُّعاتك وآمالك وأحلامك، فستكتشف ما هو أعظم منها بكثيرٍ في الناصرة.

الفصل الثاني

المنبوذةُ والمقبولُ اجتماعيًّا

في القصَّتَين الخاصَّتَين بالمنبوذة والمقبول اجتماعيًّا، سنركِّزُ على السؤال التالي: ما الخطأ الذي أصابَ العالم في وضعه الحاليّ؟ لا يمكنُنا الحديثُ بما يجب أن نفعله لنجعلَ العالمَ في حالٍ فضلى قبل أن نَعيَ بوُضوح الخطأ الذي أصابَه. إنَّ التشخيصَ يسبقُ العلاج، وإيماني هو أنَّنا سنكتشفُ مجموعةً من الإجابات الصحيحة هنا.

في الأصحاح الثالث من إنجيل يوحنَّا يلتقي يسوعُ شخصيَّةً تتمتَّعُ بأعلى درجات القبول الاجتماعيِّ والأخلاقيّ، وهو أَحَدُ قادة المؤسَّسة الدينيَّة والمدنيَّة. وفي الفصل التالي من الإنجيل يلتقي يسوعُ شخصيَّةً أُخرى تقعُ على هامش الأنظمة الاجتماعيَّة والأخلاقيَّة والدينيَّة- شخصيَّةً منبوذةً وكانت امرأةً. وهذان النصَّان معروفان جيِّدًا لدى العديد من المسيحيِّين؛ لأنَّهما يرسمان تطوُّرَ هاتَين الشخصيَّتَين ببعض التفصيل، كما يستَعرِضان حوارَين

لا يمكن نسيانهما. غير أنَّ اللافتَ للانتباه هو أنّنا عندما نُعلِّمُ عن هذين النصَّين، فإنّنا غالبًا ما نُركِّز على أحَدِهما دون الآخر، مع عدم الجَمْع بينهما. لكنّي أظنُّ أنَّ في هذا خطأً، وأعتقد أنَّ هناك سببًا يجعلُ هذين اللقاءَين يأخذان مكانهما، الواحد بعد الآخر في هذا الإنجيل، والسببُ هو أنَّ كاتب الإنجيل يريدُنا أن نلتفتَ إلى النصَّين معًا. في ظاهر الأمر يبدو لنا أنَّ هذين الشخصَين هما غاية في الاختلاف وأنَّ أحوالَهما متباينةٌ تمامًا. ويتبدَّى لنا من النظرة الأولى إليهما أنَّه لا يمكن أن يوجَدَ شيءٌ مشترَكٌ ما بينهما. غير أنَّ كاتبَ الإنجيل يدفعُنا دفعًا لأن نطرحَ هذا السؤال: رغم الاختلاف بين المنبوذة والمقبول اجتماعيًّا، ما الأمر المشترَك الذي يجمعُهما؟ لأنَّه إنْ كان هناك أمرٌ مشترك بين هذين الشخصَين، فلا بدَّ أن يكونَ هناك أمرٌ مشترَكٌ بيننا **جميعًا**. من هنا فإنَّ تأمُّلَنا في هذين اللقاءين معًا سيُساعدُنا في فَهْم ما يريد أن يقولَه يوحنَّا عن حالة العالم وعن الدَّور الذي نلعبُه جميعًا في جَعْل العالم على حاله التي نراه عليها اليوم.

لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن نتحدَّثَ بشأن هذين اللقاءَين دون أن نتعرَّض لموضوع الخطيَّة. أعلم أنَّ كلمتَي **خطيَّة** و**خاطئ** تحملان في طيَّاتهما الكثيرَ من الدلالات الثقافيَّة، وأستطيعُ أن أفهمَ الأسباب التي تجعل الناس يمتَعِضون عند سماعهم المسيحيِّين وهم يستخدمونهما. وللأسف الشديد، استُخدِمَت هاتان الكلمتان لتَهميش غير المسيحيِّين وجعلهم أشياءَ. إنَّ من السهل أن يقولَ المرءُ لمن يختلفُ معه: "أنت لستَ فقط شخصًا يختلفُ معي، بل أنت أيضًا **خاطئ**". لقد استُخدِمتْ هذه الكلمة من جانب الكثيرين ليَصعدوا عليها إلى مرتبةٍ أخلاقيَّة

عاليةٍ زائفةٍ يُصدرون بها أحكامَهم على مَن هم أدنى منهم. فإنْ كنتَ أنتَ خاطئًا (وهو ما يعني ضمنًا أنِّي لستُ كذلك)، فبدلًا من أن نشتركَ في نقاشٍ حقيقيٍّ أضعُ فيه نفسي وبصدقٍ في مرمى أسئلتك، فإنِّي أعمل على تهميشك.

ولا شكَّ أنِّي أعتقدُ في عدم صحَّة هذا التصوُّر عن الخطيَّة. وفهمُ الكتاب المقدَّس الصحيح للخطيَّة يتجاوَزُ في ثوريَّته ومداه هذا التصوُّرَ بكثير. ولا يمكن لكلمة خطيَّة أن تُستخدَم كسلاح؛ لأنَّها سترتدُّ في وجه كلِّ مَن يحاولُ أن يستخدمَها على هذا النحو. في نظر الكتاب المقدَّس، لا يوجد أحدٌ يمكنه أن يهربَ من تهمة "خاطئ". وهذا هو القصد من هاتَين القصَّتَين.

لنتأمَّلْ أوَّلًا في لقاء يسوع مع المنبوذة اجتماعيًّا؛ لأنَّه يعرض لنا صورةً للخطيَّة سيفهمها معظم الناس، ونجدُ هذا اللقاء مع المرأة السامريَّة عند البئر في الأصحاح الرابع من إنجيل يوحنَّا. وفي هذا الأصحاح نجدُ يسوعَ مُسافرًا مع تلاميذه عبر السامرة التي تقع خارج اليهوديَّة. وعندما وصلَ إلى المدينة، ذهبَ التلاميذ ليَبتاعوا طعامًا. وهنا نرى يسوع مُتعبًا وعطشانًا. وفي الساعة السادسة من النهار، أي عند الظهر* وتحت حرِّ النهار، ذهب يسوعُ إلى البئر، لكنْ لم تكن لديه وسيلةٌ يرفعُ بها الماءَ من البئر؛ لأنَّه لم تكن معه جرَّةُ ماء. وفي تلك اللحظة تأتي امرأةٌ وحيدةٌ لتأخذَ ماءً من البئر، فقالَ لها:

"«أعطيني لأشرَبَ»

فقالَتْ لهُ المَرأةُ السَّامِريَّةُ: «كيفَ تطلُبُ منِّي لتَشرَبَ، وأنتَ

* حسب التوقيت اليهوديّ، يبدأ اليوم الساعة السادسة صباحًا (المترجم).

يَهوديٌّ وأنا امرأةٌ سامِريَّةٌ؟». لأنَّ اليَهودَ لا يُعامِلونَ السَّامريِّين .

أجابَ يَسوعُ وقالَ لها: «لو كُنتِ تعلَمينَ عَطيَّةَ اللهِ، ومَن هو الذي يقولُ لكِ أعطيني لأشرَبَ، لَطَلَبتِ أنتِ مِنهُ فأعطاكِ ماءً حيًّا».

قالَتْ له المرأةُ: «يا سيِّدُ، لا دَلوَ لكَ والبِئرُ عَميقَةٌ. فمِنْ أين لكَ الماءُ الحَيُّ؟ ألَعَلَّكَ أعظَمُ مِنْ أبينا يعقوبَ، الذي أعطانا البِئرَ، وشَرِبَ منها هو وبَنوه ومَواشيه؟»

أجابَ يَسوعُ وقالَ لها: «كُلُّ مَن يَشرَبُ من هذا الماءِ يَعطَشُ أيضًا. ولكنْ مَن يَشرَبُ من الماءِ الذي أُعطيه أنا فلن يَعطَشَ إلى الأبد، بل الماءُ الذي أُعطيه يَصيرُ فيه يَنبوعَ ماءٍ يَنبَعُ إلى حياةٍ أبديَّة».

قالَتْ له المَرأةُ: «يا سيِّد، أعطِني هذا الماءَ، لكَي لا أعطَشَ ولا آتيَ إلى هنا لأستَقيَ».

قالَ لها يَسوعُ: «اذهَبي وادعي زَوجَكِ وتَعالَي إلى ههنا».

أجابَتِ المَرأةُ وقالتْ: «ليس لي زَوْجٌ».

قالَ لها يَسوعُ: «حَسَنًا قُلتِ: ليس لي زَوجٌ، لأنَّه كانَ لكِ خَمسَةُ أزواج، والذي لكِ الآنَ ليس هو زَوجَكِ. هذا قُلتِ بالصِّدق».

قالَتْ له المَرأةُ: «يا سيِّدُ، أرى أنَّكَ نَبيٌّ» (يوحنَّا ٤: ٧-١٩).

قبل أن نستكملَ كلامَنا عن هذا اللقاء، فلأريكم أوَّلًا ما تتميَّزُ به هذه المحادثة اللافتة.

الأمرُ الأوَّل اللافت للانتباه في هذه القصَّة هو التصرُّف الثوريُّ الذي قام به يسوع إذ كان الطرفَ المبادرَ في هذه المحادَثة. لا يبدو الحديث بين هاتَين الشخصيَّتَين غريبًا لنا، وإنْ كان كذلك فعلًا. فلنلحَظْ هنا الصدمة التي أصابَتِ المرأة بمجرَّد حديث يسوع معها؛ لأنَّ اليهودَ والسامريِّين كانوا على عداوةٍ شديدة. وقبل قرون على هذا اللقاء كان قد سُبيَ معظمُ اليهود من المملكة الشماليَّة والجنوبيَّة على أيدي أعدائهم الذين سحَقوهم. وبعض اليهود ممَّن ظلُّوا بعد السبي، تزاوَجوا مع الكنعانيِّين، وكوَّنوا قبيلةً جديدةً هي السامريِّين. وأخذَ هؤلاء أجزاء من الديانة اليهوديَّة وأجزاء من ديانة كَنعان ليشكِّلوا منها جميعًا ديانةً تلفيقيَّة. لذا كان اليهود ينظرون إلى السامريِّين بوصفهم أدنى منهم عرقيًّا وأنَّهم خارجون عن الدِّين. وهذا هو السبب الأوَّل الذي جعل المرأة تُدهَش لمجرَّد حديث يسوع معها. لكنْ بالإضافة إلى ذلك أيضًا، كان من قبيل الفضيحة أن يتبادلَ رجلٌ يهوديٌّ الحديثَ مع امرأةٍ غريبةٍ علانِيَةً.

أمرٌ آخر يُضاف إلى ما سبق: أنَّ هذه المرأة أتت لتَستقي ماءً عند الظهيرة. وأشارَ العديد من شُرَّاح الكتاب المقدَّس أنَّ ذلك لم يكن الوقتَ المعتاد الذي كانت تذهب فيه النسوة ليستَقينَ الماء، فقد كنَّ يذهبنَ في الصباح الباكر عندما لا تكون حرارةُ الشمس قد اشتدَّت بعدُ ليأتين بالماء اللازم لمباشرة الأعمال المنزليَّة طَوال النهار. والسؤال هنا: لماذا كانت هذه المرأة هناك وَحدَها في منتصف النهار؟ الإجابة هي أنَّها كانت منبوذةً أخلاقيًّا-

شخصيَّةً تعيش على الهامش حتَّى داخل مجتمعها المهمَّش أصلًا.

لهذا كلِّه، عندما يتحدَّث يسوع مع هذه المرأة، فإنَّه يتجاوزُ مُتعمِّدًا كافَّة الحواجز المعروفة التي يمكن أن يضعَها البشر في ما بينهم. في هذه الحال، نحن أمام حاجز العِرْق وحاجز الثقافة وحاجز النوع الاجتماعيِّ (نوع الجنس) والحاجز الأخلاقيّ، ناهيك بكافَّة أعراف هذا الزمان التي لا يمكنُ بموجبها بأيَّة حالٍ من الأحوال أن يكونَ لرجل دينٍ يهوديٍّ أيَّة علاقةٍ بهذه المرأة. لكنَّ يسوع لم يعبأ بأيٍّ من هذه الحواجز. هل ترى مدى ثوريَّة هذا التصرُّف؟ لقد تجاوز يسوع هنا كافَّة الحدود التي تُقسِّم البشرَ ليتواصَلَ معها. وهذا أمرٌ أدهَشَها، ولا بدَّ أن يُدهِشَنا نحن أيضًا.

الأمر اللافت الثاني في هذا اللقاء هو أنَّه رُغمَ سماحة يسوعَ ودفء حديثه معها، فإنَّ ذلك لم يمنعْه من مواجَهَتِها بالحقائق، لكنَّه يفعل ذلك برقَّةٍ ومهارة. يبدأ يسوع حديثَه معها بقَوله: "لو كنتِ تعلمينَ من أنا، لكنتِ طلبتِ أنتِ منِّي ماءً حيًّا؛ وإن شربتِ من هذا الماء فلن تعطشي أبدًا".

لكن ما الذي يقصدُه يسوع بهذا الكلام؟ إنَّه يتحدَّثُ على سبيل المجاز، مستخدمًا عبارة "الماء الحيّ" ليَعني بها "الحياة الأبديَّة". وربَّما لا يكونُ للصُّورة التي يستخدمها يسوع هنا تأثيرٌ قويٌّ فينا؛ فنحن اليوم في كلِّ مكانٍ تقريبًا في الولايات المتَّحدة نستطيع الحصول على مياه الشرب بسهولة. لذا فإنَّ معظمنا لا يعرفُ الكثير عن معنى العطش الحقيقيّ، وإنْ كان أولئكَ الذين عاشوا في بيئةٍ قاحلة بالقرب من الصحراء يعرفون الكثير عن معنى العطش. ولأنَّ أجسادَنا تحتوي على كمِّيَّةٍ كبيرةٍ من الماء، فإنَّ الألم يكون بالغًا عندما يشتدُّ بنا

العطش. وكذلك فإنَّ تذوُّقَ الماء بعد عطشٍ شديد يُمثِّلُ أعظمَ شعور بالإشباع يمكن أن يعرفَه الإنسان.

السؤال الآن: ما الذي يحاولُ يسوع أن يقولَه لهذه المرأة المرفوضة من مجتمعها؟ هذا ما يقوله: "عندي شيءٌ لأمنحَه لك، وهو ضروريٌّ ولا غنى عنه **لروحك** تمامًا كما الماء **لجسدك**. ودون هذا الشيء أنتِ ضائعةٌ لا محالة".

لكنَّ المجازَ في عبارة "الماء الحيّ" ينطوي على ما هو أكثر من ذلك. يخبرُنا يسوع هنا أنَّ ما يقدِّمه إلينا يُخلِّص ليس الحياة فقط، بل يعلنُ لنا أيضًا أنَّ ما يقدِّمُه إلينا يشبعُنا من **الداخل**. إذ يقولُ يسوع: "الماء الذي أعطيه، إنْ قبلتِه، سيصيرُ فيك عينَ مياه تنبع إلى حياةٍ أبديَّة". ويتحدَّثُ يسوع هنا بشأن إشباع الروح، أي ذاك الارتواء العجيب وحالة الرضا المذهلة التي لا تعتمد على ما يحدُث خارجنا. فسؤالي لك إذًا: ما الذي سيجعلك سعيدًا؟ ما الذي يمكن أن يمنحَكَ حياةً مُشبَعة راضية؟ وغالبًا ما سينصرفُ تفكيرك عند إجابتك عن السؤال إلى شيءٍ ما خارجك. والبعض منَّا يضعُ آمالَه على علاقة عاطفيَّة، والبعض الآخر على مستقبله المهنيّ، والبعض على السياسة أو قضيَّة اجتماعيَّة، ناهيك بمَن يَضَعون رجاءَهم في المال وما يمكن أن يصنعَه لهم. لكنْ بغضِّ النظر عمَّا يمكن أن يجعَلَك تشعرُ بالأهمِّيَّة والمعنى والأمان، فالاحتمال الأغلب هو أنَّ هذا الشيء سيكونُ خارجك. لكنْ ما يقوله يسوع هنا هو إنَّه ليس هناك شيءٌ خارجك يمكن أن يُشبعَ عطشَك الداخليَّ العميق بحقّ. واستكمالًا للصورة المجازيَّة التي يستخدمها يسوع، فأنت لا تحتاجُ إلى مجرد زخَّات ماء تُرَشُّ على وجهك، بل تحتاجُ إلى ماءٍ ينبعُ من أعمق مكانٍ

داخلك، وبقوّةٍ أكبر من قوّة عطشك. ويقول لسان حال يسوع: "في وُسعي أن أمنحَك هذا الماء. وأستطيعُ أن أضعَه داخلك. أستطيع أن أعطيك ارتواءً مطلقًا لا حدود له في أعمق أعماقِ كِيانك، بغضِّ النظر عمَّا يحدثُ خارجك، وبغضِّ النظر عن الأوضاع المحيطة".

غير أنَّ هناك أمرًا ما يعوقُنا عن الإنصات إلى ما يقولُه يسوع. وأظنُّ أنَّ هذا الأمرَ يتعلَّقُ بعدم قدرة معظمنا على إدراك مدى عَطَشِ أرواحهم إلى ما يُقدِّمُه. لطالَما اعتقدتَ أنَّ أمامكَ فرصةً كبيرةً لتُحقِّق بها بعض أحلامك، ولطالَما ظننتَ أنَّ أمامك فرصةً للنجاح، فأنت غالبًا ما تفهمُ حالةَ الفراغ الداخليِّ بوصفها "حافزًا"، وتترجمُ حالةَ القلق بوصفها "أملًا". لذا فهناك احتمالٌ أن تَظلَّ غافلًا تمامًا عن مدى عُمقِ العطش الكامن فعليًّا داخلك. وكثيرًا ما نقولُ لأنفسنا إنَّ السببَ من وراء عدم تحقُّقنا هو مجرَّدُ عدم قدرتنا على تحقيق أهدافنا. لذا هناك احتمالٌ أن نعيشَ جُلَّ حياتنا دون أن نُكاشِف أنفسَنا بعمق عطشنا الروحيّ.

لذا فإنَّ القليلين الذين يبلغون أحلامَهم، فعلًا أو حتَّى يتجاوَزونَها، يُصابون بالصَّدمة عندما يكتَشِفون أنَّ تلك الأحلام التي طالما تطلَّعوا إليها لا تُشبِعُهم؛ وأنَّ تلك الأحلام المتحقِّقة لا تفعَلْ شيئًا أكثرَ من تعميق فراغهم الداخليّ. مثلًا، قالَ بطلُ التِّنِس المشهور بوريس بيكر (Boris Becker) قبل سنوات: "لقد أحرزتُ بطولة ويمبلدون مرَّتين، وفي إحداهما كنتُ أصغرَ لاعبٍ في البطولة. صرتُ غنيًّا... وكان لديَّ كلُّ الممتلكات المادِّيَّة التي احتجتُ إليها... هي الأغنية القديمة نفسها التي يردِّدها نجوم السينما ونجوم الغناء عندما يُقدِمون

على الانتحار. لقد امتلكوا كلَّ شيء لكنَّهم كانوا غايةً في التَّعاسة. أنا أيضًا أفتقرُ إلى السلام الداخليّ".[٢] ربَّما يقولُ أحَدُهم: "أتمنَّى لو أنَّ عندي مشكلةَ بوريس بيكر بدلَ مشكلتي". لكنَّ الفكرة هنا أنَّ لديه المشكلة نفسها التي لدينا، وهو مثلنا ظنَّ أنَّ المال والجنس والإنجاز والشهرة ستحلُّ هذه المشكلة. والفارق الوحيد بينه وبين غَيره أنَّه امتلكَ كلَّ تلك الأشياء، ولكنَّها لم تُروِ عطشَه على الإطلاق. وفي حوارٍ مشهور مع صوفيا لورين (Sophia Loren) قالت إنَّها حصلَتْ على كلِّ شيء- الجوائز والزواج- ولكن "يوجد في حياتي فراغٌ يستحيلُ مَلؤه".[٣]

ويتحتَّم على كلٍّ منَّا أن يعيشَ لأجل أمرٍ ما، ولكنْ ما يحاولُ أن يُقنعَنا به يسوعُ أنَّه إنْ لم يكن **هو** هذا الأمر، فالخذلان سيكونَ نصيبَنا. بدايةً، فإنَّ أيَّ أمرٍ آخرَ تعيشُ لأجله سيستَعبدُك. مهما كان هذا الأمر، فإنَّك ستَظلُّ تقولُ لنفسك إنَّ عليك أن تحصلَ عليه، وإلَّا فلا حاجة إليك لأن تُشرقَ عليك شمسُ يَومٍ جديد. ومعنى ذلك أنَّه إنْ ظهرَ ما يُهدِّد هذا الأمر، فستَرتاعُ كثيرًا. وإنْ ظهرَ شخصٌ يُعيقُ تحقيق هذا الأمر، فسيجتاحُك الغضب. وإنْ أخفقْتَ في تحقيق هذا الأمر، فلن تستطيعَ بتاتًا مسامحةَ نفسك. لكنَّ الأمرَ الثاني هو أنَّك إنْ نجحتَ **فعلًا** في تحقيق هذا الأمر، فإنَّ ذلك لن يمنحَك الإشباعَ الذي توقَّعتَه.

فلأشاركْ وإيَّاكم مثلًا معاصرًا يعبِّر ببلاغة عمَّا كان يقصده يسوع. لا يوجد من عَبَّر عن هذه الفكرة أفضل من الكاتب الأميركيِّ ديفيد فوستر والاس (David Foster Wallace). لقد وصلَ والاس إلى ذروة إنجازه المهنيّ، كما كان واحدًا من كُتَّاب الرواية ما بعد الحداثيَّة الأكثر مبيعًا والحاصل على

جوائز أدبيَّة، والمعروف بقدرته على السَّرد على نحوٍ يتجاوز الحدود المتعارف عليها. ومن علامات تميُّزه أنَّه كتبَ مرَّةً جملةً تتجاوَزُ في طولها الألفَ كلمة. وقبل بضع سنوات من رحيله، ألقى والاس خُطبةً ضمنَ حفل تخرُّج في كلِّيَّة كينيون (Kenyon College)، خاطبَ فيه مجموعةَ الخرِّيجين قائلًا:

"الجميع يعبدون. والخِيار الوحيد المُتاح لنا يتعلَّق بما نعبده. لذا فإنَّ السببَ الحاسمَ الذي يجعلُك تعبدُ إلهًا دون الآخر هو أنَّ هناك من الآلهة الأخرى التي في وُسعها أن تلتهمَك حيًّا. فإن كنتَ تعبدُ المالَ والأشياء؛ إن كنتَ تجدُ معنى حياتك في ذلك، فلن يُغنيَك شيءٌ ولن تشعرَ بتاتًا بالاكتفاء. تلك هي الحقيقة. اعبدْ جسدَك وجمالَك وجاذبيَّتك الجنسيَّة، ستجدُ أنَّكَ تشعرُ دائمًا بأنَّك قبيح. وعندما يحينُ الوقتُ وتزحفُ الشَّيخوخةُ عليك، ستَموتُ مليونَ مرَّةٍ قبل أن يدفنَك أحباؤك... اعبدِ السُّلطةَ، فينتهي بك الأمر وأنت تشعرُ بالضَّعف والخوف، وتجد نفسَك وأنتَ محتاجٌ إلى المزيد من السُّلطة على الآخرين حتَّى تهدِّئ من مخاوفك. اعبدْ عقلَك واظهَر في صورة الذكيّ، فتنتهي بك الحال وأنت تشعرُ بأنَّك أحمقُ ومُدَّعٍ وفي حالة تهديدٍ مستمرٍّ بأن يكتشفُ الناسَ أنَّك مُدَّعٍ. انتبهوا إليَّ! إنَّ خُبثَ هذه الأشكال للعبادة لا يتعلَّق بكَونها شرِّيرةً أو آثمة؛ فالخبثُ يكمنُ في أنَّ العبادةَ هنا تحدُثُ دون وعي. وهذه الأشكال من العبادة تجدُ طريقَها إلى نفوسنا فطريًّا وتلقائيًّا".[٤]

لم يكن والاس متديِّنًا بحالٍ من الأحوال، ولكنَّه فهمَ أنَّ الجميع يعبدون، والجميع يضعون ثقتَهم في شيء ما يجدون فيه خلاصَهم، وأنَّ الجميعَ يؤسِّسون حياتَهم على أمرٍ ما يتطلَّبُ منهم إيمانًا. وبعد مرور عامين من هذه الخطبة، قتلَ والاس نفسَه. وما زالت الكلمات التي قالها هذا الرجل غير المتديِّن قبلَ رحيله باعثةً على الرعب: "شيءٌ ما سيلتهمُك حيًّا". حتَّى لو كنتَ لا تُسمِّي هذا الشيء عبادة، فأنا أؤكِّدُ لكَ تمامًا أنَّك تعبدُ وأنَّك تبحثُ عن إله. وهنا يقولُ يسوع: "ما لم تعبدْني أنا؛ وما لم أصِرْ أنا مركَزَ حياتك، وما لم تسْعَ أنت لأن تُطفئ ظمأك الروحيَّ بواسطتي، لا بالأشياء الأخرى، وما لم تدركْ أنَّ حلَّ مشكلاتك يجب أن يحدثَ من الداخل، لا من الخارج- فإنَّ أيًّا كان ما عبدته، سيهجركَ في النهاية".

ذكرتُ أنَّنا كثيرًا ما نتجاهلُ عطشَنا الروحيَّ؛ لأنَّنا نظنُّ أنَّنا سنحقِّقُ أحلامَنا. وعندما نحقِّقُ أحلامَنا، يكون من السهل علينا أن نمرَّ بيَسوعَ دون أن نُعيرَه اهتمامَنا. لكنَّ هذه المرأةَ الواقفةَ عند البئر لم تنخَدع بهذا الوهم، وكان من السهل عليها أن تلتفتَ إلى يسوع، وتقولُ له سريعًا: "ما هذا الماء الحيّ؟ هل يمكن أن تعطيَني إيَّاه؟" وعند هذه اللحظة يتدخَّلُ يسوع ليَقلبَ الموقفَ ويغيِّرَ مسارَ الحديث، فيقول لها: "اذهبي وادعي زوجَك"، فتجيبُ المرأة: "ليس لي زوج"، وهنا يجيبُ يسوع: "حسنًا قلتِ ليس لي زوجٌ، لأنَّه كان لكِ خمسة أزواج والذي لكِ الآن ليس هو زوجَك".

ما الذي فعله يسوع هنا؟ لا يختلفُ اثنان على أنَّ حالةَ هذه المرأة تتَّفقُ مع الفهم التقليديِّ لمعنى "الخاطئ"، وذلك بماضيها الجنسيِّ الطويل والباعث على الاشمئزاز. هل حاول يسوعُ هنا أن يَحُطَّ من شأنها؟ لا، لأنَّه لو فعلَ ذلك

لما استطاع أن يتجاوزَ الحواجز الاجتماعيَّة، ولما تمكَّنَ من الدخول في هذا الحوار معها بهذه الطريقة الرقيقة.

لماذا يبدو لنا أنَّ يسوعَ غيَّر موضوعَ الحديث فجأةً من البحث عن الماء الحيِّ إلى تاريخ المرأة الشخصيِّ مع الرجال؟ الإجابة هي أنَّ يسوع لم يُغيِّر موضوعَ الحديث، لكنَّه فقط ينخسُها برِقَّة، وكأنَّه يقولُ لها: "إذا أردْتِ أن تفهَمي طبيعةَ الماء الحيِّ الذي أقدِّمُه إليكِ، عليكِ أوَّلًا أن تفهَمي كيف كنتِ تبحثين عنه في حياتك الشخصيَّة. لقد كنتِ تحاولين الحصولَ عليه بواسطة الرجال، ولكنَّ محاوَلاتِكِ لم تُفلِحْ، أليس كذلك؟ إنَّ احتياجَك إلى الرِّجال أضاعَ حياتك وابتلعَها، والأمر لن ينتهي عند هذا الحدّ".

عند هذه اللحظة صُدِمَتِ المرأة بمعرفته حياتَها الشخصيَّة وبقوَّة بصيرته، فأجابت: "يا سيِّد أرى أنَّكَ نبيّ!" وبعدها تسألُه واحدًا من الأسئلة اللاهوتيَّة الكُبرى في ذلك الوقت، قائلةً: "نحن نسجد في الهيكل الذي هنا، واليهود يسجدون في الهيكل الذي في أورشليم. فمَنِ الأصَحّ؟" في الأعداد ٢١-٢٤ يجيبُ يسوع في فِقرةٍ لافتةٍ يمكن تلخيصها كالآتي: "سيأتي الوقت الذي لن تكونَ فيه حاجةٌ إلى هيكلٍ مادِّيٍّ تقتربون به إلى الله". تُدهَشُ المرأةُ من الإجابة، فتقول: "عندما يأتي المسيَّا، سيَشرحُ لنا هذه الأشياء"، وهنا يُلقي يسوع بالقنبلة: "أنا الذي أكلِّمكِ هو" (يوحنَّا ٤: ٢٦).

فلنتحوَّلِ الآن إلى لقاءٍ آخرَ حدثَ قبل لقاء يسوع بالمنبوذة اجتماعيًّا. في الأصحاح الثالث من إنجيل يوحنَّا، يلتقي يسوع شخصيَّةً مهمَّةً جدًّا، وهي لرجل فَرِّيسيٍّ وزعيمٍ دينيٍّ ومَدَنيّ.

"كان إنسانٌ من الفَرِّيسيِّين اسمُه نيقوديموس رئيسٌ لليهود. هذا جاءَ إلى يسوع ليلًا وقال له: «يا مُعلِّم، نعلمُ أنَّكَ قد أتيتَ من الله مُعلِّمًا لأنْ ليس أحَدٌ يقدر أن يعملَ هذه الآيات التي أنتَ تعمل إنْ لم يكُنِ الله معه».

أجابَ يسوع وقال له: «الحقَّ الحقَّ أقولُ لكَ إنْ كان أحدٌ لا يُولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله».

قال له نيقوديموس: «كيف يمكن الإنسان أن يولَدَ وهو شَيخٌ، ألعلَّه يقدرُ أن يدخلَ بطنَ أمِّه ثانيةً ويولَد!»

أجاب يسوع: «الحقَّ الحقَّ أقول لك إنْ كانَ أحَدٌ لا يولَد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله. المولود من الجسد جسدٌ هو، والمولود من الروح هو روح». لا تتعجَّبْ أنِّي قلتُ لكَ ينبغي أن تُولدوا من فوق [ثانيةً]»" (يوحنَّا ٣: ١-٧).

هل لاحظتَ أنَّ ما فعله يسوع مع هذا الرجل يكادُ يكونُ على طرف نقيضٍ ممَّا فعلَه مع المرأة عند البئر؟ لقد بدأ معها الحديث بكلِّ رقَّة، وفاجأها بسماحته في الحوار، ثمَّ أخذَ رُوَيدًا رُوَيدًا يواجِهُها باحتياجها الروحيّ. أمَّا في لقائه مع هذا الرجل المقبول اجتماعيًّا، يتحدَّثُ يسوعُ بقوَّة ويميلُ أكثرَ إلى الكلام المباشر. ويبدأ نيقوديموس كلامَه مُتلطِّفًا: "يا معلِّم، سمعتُ عنك العديدَ من الأمور الرائعة، كما يقولُ عنكَ الناس إنَّك تملك من الحكمة الكثيرَ ممَّا منحكَ الله". لكنَّ يسوع يواجهُ نيقوديموس مباشرةً، قائلًا: "ينبغي أن تولَدوا ثانيةً". ظنِّي أنَّ نيقوديموس، الذي أمضى حياتَه

متعبِّدًا لله وَفقَ التقليد اليهوديِّ الصارم، تأذَّى من هذه العبارة الغريبة.

الولادة الثانية. هذا هو السياق الذي تَرِدُ فيه هذه العبارة المحمَّلة بالكثير من المعاني. والسؤال هنا: مَن المسيحيُّون المولودون ثانيةً إذًا؟ من الشائع اليوم الظنُّ أنَّ المولودين ثانيةً هم أناسٌ يختلفون عن معظمنا- فهُم عاطفيُّون أكثر ومكسورون، كما هي الحال مع مدمني المخدِّرات أو أولئك الذين لا يمتلكون ثباتًا انفعاليًّا، وهم يحتاجون إلى تغيير دراميٍّ في اتِّجاه حياتهم يعودُ بهم إلى المسار الصحيح. نتخيَّلُهم ناسًا اقترفوا خطأً كبيرًا في حياتهم أو أشخاصًا ضعفاءَ جدًّا لا يوجد ما يساعدُهم على التغيير سوى زلزالٍ كبيرٍ يحدُثُ في حياتهم. لذا فمعظم الناس اليوم ممَّن يظنُّون في أنفسهم أنَّهم يقبَلون المختلفين عنهم قد يقولون في أنفسهم إنَّ الولادة الثانية هي فقط لتلك الشخصيَّات الأضعف منَّا جميعًا والذين يحتاجون إلى تجربةٍ انفعاليَّةٍ يتطهَّرون بها ممَّا يعتَمِلُ داخلهم؛ وربَّما تكون الولادة الثانية خِيارَ الناس الذين يحتاجون إلى وُجودِ سُلطةٍ وترتيبٍ في حياتهم، ممَّا يدفعُهم إلى الانضمام إلى جماعاتٍ دينيَّةٍ منظَّمة تقوم على الخضوع للسُّلطة. والولادة الثانية لدى معظم الناس هي إذًا أمرٌ تحتاجُ إليه نوعيَّةٌ معيَّنةٌ من البشر، وإنْ كان ذلك ما تحتاجُ إليه هذه النوعيَّة من البشر، فليأخذوه.

المشكلة في هذا التصوُّر أنَّه لا يتَّسقُ مع القصَّة التي يقدِّمُها إلينا الكتاب المقدَّس. فنيقوديموس قائدٌ مدنيّ؛ فهو عضوٌ في مجمع السنهدريم، الذي يمثِّلُ تجمُّعًا يضمُّ قضاةَ المحكمة العُليا لليهود. كان نيقوديموس يعيشُ حياةً مريحة، وكان ملتَزِمًا وفَرِّيسيًّا بارزًا؛ فلا يمكنُكَ أن تجدَ شخصيَّةً متديِّنةً أفضل منه. ولم يكُنْ نيقوديموس شخصيَّةً انفعاليَّةً أو شخصًا مكسورًا بتاتًا. وعندما يدعو

نيقوديموس يسوع بالمعلِّم- علمًا أنَّ يسوعَ كان وقتَها شابًّا صغيرًا لم يحصُلْ على أيِّ تعليم دينيٍّ مُنظَّم- فهذا يُرينا أنَّه كان أكثرَ تواضُعًا وتَفتُّحًا من معظم أقرانه. باختصار، فإنَّنا نجدُ في شخصيَّة نيقوديموس شخصيَّةً باعثةً على الإعجاب الشديد؛ فهو شخصٌ متَّزن وناجح ومنضبط وملتزمٌ أخلاقيًّا ومتديِّن، وهو متفتِّحَ العقل أيضًا.

ماذا يقولُ له يسوع هنا؟ في هذا اللقاء مع المقبول اجتماعيًّا، يستخدمُ يسوعُ مجازًا مختلفًا عن المجاز الذي استخدمَه مع المنبوذة اجتماعيًّا. فبَدَلَ أن يدفعَ الحديثَ باتِّجاه الكلام عن عدم الإشباع والرِّضى (كما قال للمرأة "أنا أعطيك الماء الحيّ") فإنَّه يوجِّهُ دفَّة الحوار باتِّجاه الكلام عن حالة الرِّضى عن النفس المبطَّنة بالتَّعالي عند نيقوديموس ("ينبغي أن تولدَ من فوق"). وكأنَّ يسوع يسأل هنا: ما الذي كان عليك أن تفعلَه لكي تولَد؟ هل اجتهدت في عمل شيء ما لتحصُلَ على هذا الامتياز؟ هل ولدتَ بسبب تخطيطك المُحكَم والماهر؟ كلَّا. ليس عليك أن تقدِّمَ أيَّ شيء أو تجتهدَ في الحصول على شيء يؤهِّلُك للولادة. إنَّها عطيَّةُ الحياة المجَّانيَّة. وهكذا هي الحال مع الولادة الثانية. الخلاص بالنعمة، وليست هناك أيَّة جهودٍ أخلاقيَّةٍ يمكنُ أن تؤهِّلَك أو تجعلَك مستحقًّا له. ينبغي أن تولدَ ثانيةً.

من المدهِش أن يُقال هذا الكلامُ لشخصٍ مثل نيقوديموس. يقولُ يسوعُ هنا إنَّ العاهرات في الشوارع هم في مَوقف نيقوديموس الروحيِّ نفسه. وها هو نيقوديموس الفخورُ بإنجازاته الأخلاقيَّة والروحيَّة، لكنْ من ناحية أخرى هناك شخصٌ مُدمن، ويهيم على وجهه في الشارع. ومن وجهة نظر الله، كلاهما على

الدرجة نفسها من الضياع، وعلى كلَيهما أن يبدأا من جديد، وعليهما أن يولَدا ثانيةً. إنَّ كلَيهما يحتاجان إلى حياةٍ روحيَّةٍ أبديَّة، وإلَّا فإنَّ إلهًا آخرَ سيَلتهِمُهما حيَّين. وهذه الحياة التي يحتاجُ إليها الاثنان ليسَتْ سوى عطيَّةٍ مجَّانيَّة.

كيف تجرَّأ يسوعُ على قَول هذا؟

إنَّ في وُسع يسوعَ أن يقولَ ذلك لأنَّه يريدُ تَوصيلَ فَهْم للخطيَّة أعمقَ ممَّا هو شائعٌ عند معظم الناس. فلأَعُدِ الآن إلى كلمة "خطيَّة" بكلِّ ما تنطوي عليه من دلالاتٍ ثقافيَّة. انظر إلى المرأة الواقفة عند البئر، فربَّما يفهمُ معظم الناس لماذا يحسبُها يسوعُ خاطئةً تحتاجُ إلى خلاص. لكنَّ معظم الناس أيضًا يعجَزون عن فهم الأسباب التي تدفعُ يسوع لأنْ يعاملَ نيقوديموس- المقبول اجتماعيًّا- على هذا النحو. لماذا يُعدُّ نيقوديموس أيضًا خاطئًا بحاجة إلى خلاص؟ لماذا يقول يسوع لهذا الرجل إنَّه لم يفعَلْ شيئًا يمكنُ أن يضمَنَ له مكانًا في السماء؟

إليكَ الإجابةَ المفاجئة: الخطيَّة هي البحث عن مصدر آخر للخلاص غير الله. والخطيَّة تعني أن تضعَ نفسَك مكانَ الله، لتصيرَ أنتَ مُخلِّصَ نفسِك وربَّها، إنْ جازَ التعبير. هذا هو تعريف الكتاب المقدَّس للخطيَّة، كما نجده في الوصيَّة الأولى من الوصايا العشر. واحدة من الطرق التي يمكنك أن تفعلَ بها ذلك هي تجاوُزُ كلِّ القوانين الأخلاقيَّة في سَعيك إلى الحصول على اللذَّة والسعادة. وهنا يصيرُ الجنس أو المال أو السلطة نوعًا من الخلاص. غير أنَّ هناك أيضًا طريقَ الدِّين الذي تصيرُ به مُخلِّصَ نفسِك وربَّها. وفي هذه الحالة، تتصرَّفُ كأنَّ حياتَك الصالحة وأعمالك الأخلاقيَّة هي الأساسُ الذي يوجب على الله أن يباركَك ويستجيبَ صلواتِك على النحو الذي تريده. وهكذا فأنتَ تتطلَّع

إلى صلاحك وجهودك الأخلاقيَّة لكي تُعطيَك المعنى والإحساسَ بالأمان اللذَين يبحثُ عنهما الشخص غير المتديِّن بواسطة الجنس والمال والسلطة. ويكمنُ الخداعُ هنا في أنَّ المتديِّنين كثيرًا ما يتحدَّثون بشأن الثقة بالله، لكنْ إنِ اعتقدتَ أنَّ صلاحَك يُسهمُ بشكل أو بآخر في خلاصك، فأنت في هذه الحالة مُخلِّصُ نفسك. أنت هنا تثقُ بنفسك وليس بالله. وإن كنتَ في هذه الحالة لا تمارسُ الزِّنى أو السرقة حرفيًّا، فإنَّ قلبَك سيمتلأ تِباعًا بالكبرياء والبرِّ الذاتيّ، وعدم الإحساس بالأمان، والحسد والضَّغينة، وهي بأمورٍ ستجعل العالم بائسًا لكلِّ مَن يعيشون حولك.

يتَّضح لك الآن أنَّ نيقوديموس والمرأة السامريَّة خاطئان على حدٍّ سواء ويحتاجان كلاهما إلى النعمة، ونحن جميعًا مثلهما. في كلِّ الحالات، تحاولُ أنتَ أن تكونَ مخلِّصَ نفسك وربَّها، وتحاول أن تجعل الله مَديونًا لكَ، أو على الأقلِّ تحاول أن تقلبَ موازين الأمور لمصلحتك. في كلِّ الأحوال، هذا ما يُسمِّيه يسوعُ خَطيَّة. وهو يقول لك إنَّك تحتاجُ إلى الماء الحيّ، وتحتاجُ لأنْ تولَدَ ثانيةً لتَحصُلَ عليه، كما تحتاجُ لأن تتوبَ وتعترفَ باحتياجك، وتطلبَ من الله أن يقبلَك لأجل يسوع، وتتحوَّلَ عن العالم إليه.

قد يقول البعض: "لا أضعُ نفسي تحت أيٍّ من هذين النوعَين من البشر؛ فأنا شخصٌ منضبط أخلاقيًّا، ولكنِّي لستُ متديِّنًا. ربَّما يكونُ الله موجودًا، لكنِّي لا أعرفُ على وجه اليقين. لكن في كلِّ الأحوال، أنا شخصٌ طيِّب، وهذا كلُّ ما يهمّ". هل هذا كلُّ ما يهمُّ فعلًا؟ تخيَّل أرملةً لديها ابنٌ تربِّيه وتتعبُ لكي تدخلَه مدارسَ جيِّدة وجامعةً جيِّدة، مضحِّيةً بالكثير بسبب أحوالها الماليَّة

العَسِرة. وفي تربيتها له تقول لابنها دائمًا: "يا بُنيّ، أريدُكَ أن تحيا حياةً صالحة، وأن تقولَ الصدق دائمًا وتجتهدَ دائمًا في عملك وتعتنيَ بالفقراء". وبعدما يتخرَّج الابن في الجامعة يبدأ حياتَه ومسارَه المهنيّ، ولكنَّه يتوقَّف عن الحديث إلى أمِّه أو تمضية الوقت معها. ربَّما يرسل إليها بطاقةَ تهنئةٍ بعيد ميلادها، لكنَّه لا يهاتفُها ولا يزورُها. لو سألتَه عن علاقته بأمِّه وجاءت إجابته: "لا، أنا لست على علاقةٍ شخصيَّةٍ بها، لكنّي أقولُ الصِّدقَ دائمًا، وأجتهدُ في عملي، وأعتني بالفقراء. إنّي أعيشُ حياةً صالحة، وهذا كلُّ ما يهمّ". ما رأيك بهذه الإجابة؟

أشكُّ أنَّ هذه الإجابةَ ستُقنعكَ. لا يكفي أن يعيشَ هذا الشابُّ حياةً أخلاقيَّةً صالحةً كما رغبت أمُّه دون أن تكون له أيَّة علاقةٍ بها. إنَّ سلوكَه هذا مَلومٌ لأنَّها في الواقع أعطَتْه كلَّ شيء. والأهمُّ من الحياة الأخلاقيَّة الصالحة أنَّه مَدين لأمِّه بمحبَّته وولائه.

وإنْ كان الله موجودًا، فأنت مَدينٌ له بكلِّ شيء- بكلِّ شيء تمامًا. إنْ كان الله موجودًا، فأنت مدينٌ له بما هو أكثرُ بكثيرٍ من حياة أخلاقيَّةٍ مَرضيَّةٍ تعيشُها. أنَّه يستحقُّ أن يشغلَ مركَز حياتك. حتَّى لو كنتَ شخصًا صالحًا لكنَّكَ لا تسمحُ لله بأن يكونَ إلهك أنتَ، فأنت مذنبٌ وخاطئٌ تمامًا مثل نيقوديموس والمرأة السامريَّة، وأنت تجعَلُ من نفسِكَ المخلِّص والرَّبّ.

ما الحلُّ إذًا؟ علينا التوقُّفُ عن البحث عن أشكال الخلاص الزائفة، والمخلِّصين الزائفين. إنْ أسَّستَ معنى حياتك على نجاحك المهنيِّ أو شريك حياتك أو أموالك أو أخلاقك، وفشلتْ حياتُك في النهاية، فلا يوجَدُ لك رجاء. أتعلَمُ لماذا؟ لأنَّ كلَّ مخلِّصٍ آخر غير يسوع ليس مُخلِّصًا حقيقيًّا. وإنْ

فشلتَ في عملك، فعملُك لن يرحمك، بل سيبذر فيك مشاعر الخزي والنفور من نفسك. إنَّ يسوعَ هو الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يمنحك الرضى لو قبلتَه، وإنْ خذلتَه بعد ذلك، فسيَغفرُ لك. وعلى النقيض من ذلك، لا يمكنُ لعملك وسلوكك الأخلاقيِّ أن يموتا من أجل خطاياك.

إنْ واصَلتَ قراءتك للأصحاح الرابع من إنجيل يوحنَّا، ستجدُ أنَّ المرأةَ السامريَّة تخبُر أهل بلدتها بشأن الماء الحيِّ الذي وجَدَتْه، وهي تشهدُ أنَّها التقَتِ المسيَّا وتدعو الجميعَ لكي يلتَقوه أيضًا. لماذا وجدَتْ هذه المرأة الخلاص؟ فلأجُبْ عن ذلك: لأنَّ يسوع كان عطشانًا. لو لم يكن عطشانًا، لما ذهبَ إلى البئر، ولما وجدَتْ هي الماء الحيّ. لكنْ لماذا عطشَ يسوع؟ لأنَّ ابن الله القدُّوس، خالق السموات والأرض، أخلى نفسَه من مجده وجاءَ إلى أرضنا ليكونَ إنسانًا ضعيفًا، عُرضةً للتَّعب والعطش. بكلمات أخرى، لقد وجدَتْ هذه المرأةُ الماء الحيَّ لأنَّ يسوع المسيح قال: "أنا عطشان". لم تكن تلك هي المرَّة الأخيرة التي قال فيها يسوع المسيح: "أنا عطشان" في إنجيل يوحنَّا؛ فعلى الصَّليب وقبل أن يُسلِمَ الروح قال: "أنا عطشان". ولحظتها كان يعني ما هو أكثر من العطش المادِّيّ؛ فهناك ذاقَ يسوعُ فقدانَ العلاقة بأبيه لأنَّه أخذَ في نفسه عقوبة خطايانا التي نستحقُّها نحن، وهناك تُرِكَ من الآبِ مصدرِ الماء الحيّ. كان يسوعُ في هذه اللحظات يذوقُ طعمَ العطش الأبديِّ المميت والمؤلم في أقسى صُوَره- موت الجسد بالتيبُّس والجفاف في أبشع صورهما لم يمثِّلا إلَّا لمحةً من معنى العطش الأبديِّ وألمه. يمكنُنا أنت وأنا الآن أن نَرتَويَ روحيًّا، فقط لأنَّ يسوعَ المسيح ذاقَ طعم العطش الكونيِّ على الصليب. ويمكنُنا الآن

أن نولدَ ثانيةً، فقط لأنَّه هو مات، وهذا هو ما فعلَه بكلِّ سرور. وإذ نتأمَّلُ الآن في ما فعله وفي الأسباب التي دفعَتْه لأن يفعلَ ذلك ستَنعتِقُ قلوبُنا من الأمور التي تَسبينا وتنجذبُ نحوَه عابدةً إيَّاه. وهذه هي بشارة الإنجيل، وهي البشارة نفسها المقدَّمة إلى المشكِّكين والمؤمنين، وإلى المقبولين اجتماعيًّا والمنبوذين من مجتمعاتهم على حدٍّ سواء، كما أنَّها مقدَّمةٌ إلى جميع فئات الناس التي تقعُ ما بين هذين الطرفَين.

الفصل الثالث

الأختان النائحتان

لا يكاد يختلفُ اثنان على أنَّ العالم والجنس البشريَّ لَيسا على ما يُرام. إنْ كان لقاء يسوع والمرأة عند البئر ولقاؤه ونيقوديموس يكشِفان لنا مشكلةَ العالم، فإنَّ قصَّة مريَم ومَرثا تسلِّطُ الضَّوء على ما (أو مَن) في وُسعه تصحيح أوضاع العالم. يكمنُ حلُّ مشكلةِ العالم- كما يؤمن المسيحيُّون- في يسوع. فمَن ذلك الشخص الذي يُمثِّلُ مركَز المسيحيَّة والذي يُفترَض فيه أن يصحِّحَ الأوضاع الخاطئة؟

وللإجابةِ عن هذا السؤال، علينا أن نتأمَّلَ ثانيةً في إنجيل يوحنَّا الذي يروي لنا قصَّةَ يسوع وعلاقته بالأختَين مريَم ومَرثا وأخيهما لِعازر. في الأصحاح ١١ من إنجيل يوحنَّا، نقرأ عن لِعازر أنَّ يسوعَ كان يحبُّه. وقد استخدمتِ الأناجيلُ هذا التعبيرَ لوَصْفِ علاقة يسوع بأقربِ التلاميذِ إلى قلبه. وعلى ما يبدو فإنَّ يسوعَ ولِعازر ومريَم ومَرثا كانوا جميعًا ينظرون إلى علاقتهم أحَدِهم بالآخر بوصفهم عائلة.

وتخبرنا قصّة الإنجيل أنَّ لِعازر مرضَ مرضًا شديدًا وصارت حياتُه على المحكّ؛ فأرسلتْ مريمَ ومَرثا إلى يسوع، لكنَّ لِعازر ماتَ قبل أن يصلَ يسوع. وعندما حضر يسوع أخيرًا إلى بيت أصدقائه كان الجميع في حالة حداد بعد أن وُضعَ جثمان لِعازر في القبر. وما فعله يسوع بعد ذلك هو أحَدُ أشهَرِ أحداث التاريخ، وأحَدُ الأحداث الكاشفة التي تُرينا ليس فقط مَن يكونُ يسوع، بل ما أتى هو لأجله:

"فلَمَّا أتَى يَسوعُ وجَدَ أنَّه قد صارَ لهُ أربَعةُ أيَّام في القَبر. وكانت بَيتُ عنيا قريبةً من أورُشَليمَ نَحوَ خَمسَ عَشرةَ غَلوةً. وكانَ كثيرونَ منَ اليَهود قد جاءوا إلى مَرثا ومريَمَ ليُعَزُّوهُما عن أخيهما. فلَمَّا سمعَت مَرثا أنَّ يَسوعَ آتٍ لاقَته، وأمَّا مريَمَ فاستَمَرَّت جالسَةً في البَيت. فقالَت مَرثا ليَسوعَ: «يا سيِّد، لو كُنتَ هَهَنا لَم يَمُت أخي! لكنِّي الآنَ أيضًا أعلَمُ أنَّ كلَّ ما تطلُبُ منَ الله يُعطيكَ الله إيَّاه». قالَ لها يَسوعُ: «سيَقومُ أخوك». قالَت له مَرثا: «أنا أعلَمُ أنَّه سيَقومُ في القيامَة، في اليوم الأخير». قالَ لها يَسوعُ: «أنا هو القيامَةُ والحياةُ. مَن آمَنَ بي ولَو ماتَ فسيَحيا، وكلُّ مَن كانَ حيًّا وآمَنَ بي فلن يَموتَ إلَى الأبد. أتؤمنينَ بهذا؟» قالَت له: «نَعَم يا سيِّد. أنا قد آمَنتُ أنَّكَ أنتَ المسيحُ ابنُ الله، الآتي إلى العالَم». ولَمَّا قالَت هذا مَضَت ودَعَت مريَمَ أُختَها سرًّا، قائلَةً: «المعلِّمُ قد حَضَر، وهو يَدعوك». أمَّا تلكَ فلَمَّا سمعَتْ قامَتْ سريعًا وجاءَت إليه. ولَم يَكُنْ يَسوعُ قد

جاءَ إلى القرية، بل كانَ في المكان الذي لاقَته فيه مَرثا. ثمَّ إنَّ اليهودَ الذينَ كانوا معها في البَيت يُعَزُّونَها، لَمَّا رأوا مريمَ قامَت عاجلًا وخرجَت، تبعوها قائلينَ: «إنَّها تذهَبُ إلَى القَبر لتَبكيَ هناكَ». فمريمَ لَمَّا أتَت إلَى حَيثُ كانَ يَسوعُ ورأته، خَرَّت عندَ رجلَيه قائلةً له: «يا سيِّد، لو كُنتَ ههنا لَم يَمُت أخي!» فلَمَّا رآها يَسوعُ تبكي، واليَهودُ الذينَ جاءوا معها يَبكونَ، انزَعَجَ بالرُّوح واضطَرَبَ، وقالَ: «أين وضَعتُموه؟» قالوا له: "يا سيِّد، تعالَ وانظُر». بَكَى يَسوعُ. فقالَ اليَهودُ: «انظُروا كيفَ كانَ يُحبُّهُ!»" (يوحنَّا ١١: ١٧-٣٦).

تقتربُ مَرثا من يسوع لتقول له: "يا سيِّد، لو كنتَ ههنا لم يمتْ أخي". وبعدها بلحظات تأتي مريمَ لتقولَ العبارة نفسها تمامًا. أختان تجوزان في الموقف نفسه وتقولان العبارةَ ذاتها. لكنَّ الأمرَ اللافت هو أنَّ ردَّ فعل يسوع اختلَفَ كثيرًا في الحالتَين. عندما تحدَّثتْ معه مَرثا، كان يسوع يتحاوَرُ معها. كان المعنى وراء كلامها: "أنتَ تأخَّرتَ كثيرًا"، فكان ردُّ يسوع عليها: "أنا هو القيامة والحياة. معي وفي كنفي لا معنى للتَّأخير". كان قلب مَرثا يندفع في اتِّجاه اليأس، ولكنَّ يسوع كان يقاومُ روحَ اليأس تلك. كان يوبِّخُ شكَّ مَرثا ويمنحُها رجاءً. وبعد ذلك يلتقي مريمَ التي تقولُ له الكلامَ نفسه، ولكنَّ ردَّ فعله هذه المرَّة كان على النقيض تمامًا. هنا لا يدخلُ يسوعُ في حوارٍ مع مريمَ، ولكنَّه في الواقع يصمتُ تمامًا. ولكنَّه بدلَ أن يقاومَ الحزن الذي امتلكَ قلبَها، يشاركُها فيه، ويقفُ بجانبها في أساها. وعند تلك اللحظة بكى يسوع ونطقَ فقط بعبارةٍ واحدة: "أين

وضعتُموه؟" هذا الاختلاف الجذريُّ من جانب يسوع في استجابته لهذَين الموقفَين هو أكثر من مجرَّد رُدودِ فعلٍ مخالفةٍ لما يمكنُ أن نتوقَّعُه منه. تشيرُ هاتان الاستجاباتان المختلفتان ليس فقط إلى حكمة يسوع العميقة في إدارته لعلاقاته، بل أيضًا إلى حقيقةٍ أعمق تتعلَّقُ بشخصيَّته وهُويَّته.

تخيَّلْ معي أنَّك اختلقتَ قصَّةً عن شخصٍ سماويٍّ أتى إلى أرضنا متخفِّيًا في هيئة إنسان. وفي هذه القصَّة، يصلُ هذا الشخص إلى جنازةِ صديق، وهو يعلَمُ أنَّه يملكُ سلطانَ إقامة صديقه الميِّت وإعادته إلى الحياة، ومسحِ دموعِ النائحين في بضع دقائق. ما الذي يمكن أن تكون عليه الحالة العاطفيَّة الداخليَّة لهذا الشخص السماويّ؟ الأمر المؤكَّد أنَّك ستصوِّرُ لنا في قصَّتك هذا الشخص وهو مبتسمٌ، منتشٍ وبراحةٍ تامَّة. كما نتوقَّعُ منك أن تُرِيَنا هذا الشخصَ وهو يَفركُ يدَيه، متطلِّعًا إلى اللحظات المقبلة وهو يهمسُ لنفسه: "انتظروا حتَّى ترَوا جميعًا ما أنا فاعلٌ!" أو ربَّما مثل مؤلِّفٍ للقصَّة ستجعلُ هذا الشخصَ يتحدَّثُ بنبرةٍ بليغةٍ قائلًا: "أنا هو القيامة والحياة". ردود الفعل تلك تبدو متَّسقة مع شخصٍ يزعمُ أنَّه آتٍ من السماء. لكنَّ ما لا يمكن أن نتوقَّعه هو أن نجدَ هذا الشخصَ مأخوذًا بلَوعة مريَم وحسرتها، وواقفًا بجانبها يبكي. لماذا يبدو هذا الشخص قويًّا جدًّا في لحظة وضعيفًا جدًّا في اللحظة التالية؟

غير أنَّ ما نقرأه في إنجيل يوحنَّا ليس قصَّةً مختَلَقة. وتوضحُ لنا هذه الحادثة، كما يَرويها الإنجيلُ، على نحوٍ جليٍّ حقيقةً يؤكِّدها العهد الجديد في مواضع أخرى: أنَّ يسوعَ هو حقًّا الله وهو أيضًا إنسانٌ حقًّا. ليس هو مجرَّدَ الله يتخفَّى في صورة إنسان، ولا هو مجرَّد إنسانٍ يحمل ملامحَ الألوهيَّة، ولكنَّه الله

المتجسِّد. ويُظهرُ لنا لقاؤه مع مَرثا، ثمَّ لقاؤه مع مريمَ أنَّه الله وإنسان معًا.

في لقاءه مع مَرثا، يقول يسوع: "أنا هو القيامة والحياة". وهذا إقرارٌ من يسوع بألوهيَّته. الله هو الوحيد القادر على أن يمنحَ الحياة ويأخُذَها. لاحِظْ أنَّه لم يَقُلْ: "في وُسعي أن أُعيدَ الحياةَ إلى لِعازر؛ فأنا أملك قوَّةً علويَّةً فائقةً للطبيعة"، بل قال يسوع: "أنا هو القيامة والحياة. أنا القوَّة التي تمنح كلَّ شيء الحياةَ، وهي القادرة على إبقاء كلِّ شيء حيًّا". أمرٌ مُدهِش.

ليس هذا هو الموضعَ الوحيدَ الذي يقرُّ فيه يسوع بتلك الحقيقة، فهو يشيرُ إلى لاهوتِه في مواضعَ كثيرةٍ في الأناجيل. وفي الواقع، إذا حصرْتَ الإشاراتِ الضمنيَّةَ مع الإشارات المباشرة إلى لاهوت المسيح، فستَجدُ تلك الإشارات في كلِّ أصحاح من أصحاحات الأناجيل. وهناك موضعٌ في أصحاح ١٠ من إنجيل لوقا يقولُ فيه يسوع: "رأيتُ الشيطان ساقطًا مثل البرق من السماء" (العدد ١٨). لا بدَّ أنَّ التلاميذ صُعِقوا لدى سماعهم ذلك، وهم يقولون لأنفسهم: "ماذا؟ هل يتكلَّم يسوع بجِدِّيَّة؟ هل يتذكَّرُ سقوطَ الشيطان من السماء إلى الأرض، وهو أمرٌ حدثَ قبل التاريخ؟ هل شهدَ حقًّا ذلك؟" إشارةٌ أخرى غير مباشرة إلى لاهوته كانت قد صدمَتْ مُعاصِري يسوع، وهي إعلانه المتواصل عن غفرانه للخطايا. من الواضح جدًّا لنا جميعًا أنَّ الخطيَّةَ الوحيدةَ التي يمكنُ للمرء أن يغفرَها هي الخطيَّة التي اقترِفَت ضدَّه، فأنتَ لا يمكنُك أن تغفر لجميل كذبةً كذبها على جمال. فالوحيد الذي يمكن أن يغفر لجميل في هذه الحال هو جمال. لذا فعندما يقول يسوع للمفلوج: "يا بُنيّ، مغفورة لك خطاياك"، فإنَّ شهودَ هذا الحدث لا بدَّ أن يستَنتِجوا أنَّ يسوعَ يقول إنَّه هو الله

بقَوله ضِمنًا إنَّ كلَّ الخطايا قد اقترفَتْ **ضدَّه هو** (مرقس ٢: ٥).

لكنَّ إشاراتِ يسوع الصريحة إلى لاهوته متعدِّدةٌ أيضًا. ففي يوحنَّا أصحاح ٥ أرادَ الجمعُ أن يرجُموه لأنَّهم سمعوه وهو يقولُ: "أبي يعمل حتَّى الآن وأنا أعمل" معادلًا نفسَه بالله. وفي أصحاح ٨ حاولَ الجمع أن يفعلوا الأمرَ ذاته عندما قال يسوع إنَّه كائنٌ قبلَ أن يكونَ إبراهيم، مضيفًا إلى ذلك أنَّه أزليٌّ- أبديّ، ومستخدمًا اسم الله في الكلام عن نفسه: "قبل أن يكونَ إبراهيم **أنا كائن**" (يوحنَّا ٨: ٥٨). وفي إنجيل يوحنَّا أصحاح ١٤ يقول يسوع شيئًا شبيهًا بما قاله لمَرثا هنا. لا يقولُ يسوع إنَّه **يملك** الحقّ، بل **إنَّه هو** الحقّ- "أنا هو الطريق والحقُّ والحياة" (العدد ٦). وفي يوحنَّا ٢٠ يخاطبُ توما يسوعَ قائلًا: "ربِّي وإلهي" (العدد ٢٨)، فيما يقبلُ يسوع هذه العبادة من جانب توما دون أيِّ تعليقٍ منه.

لطالما شكَّلتْ هذه الأقوال تحدِّياتٍ كبيرةً لقرَّاء الأناجيل، وقد زادتْ هذه التحدِّياتُ كثيرًا في أيَّامنا هذه. والجميع يُقرُّون بجمال تعاليم يسوع وقوَّتها وتميُّزها. وهناك رغبةٌ قويَّةٌ لدى الكثيرين لتَصوير يسوع بوصفه أحَدَ حكماء الأديان العديدين. لكنَّ جون دنكان (John Duncan) القسَّ في الكنيسة المشيخيَّة الاسكتلنديَّة في القرن التاسع عشر (ومن بعده سي. أس. لِويس [C. S. Lewis] في القرن العشرين) قال إنَّ تأكيدات يسوع على هُويَّته السماويَّة تجعَلُ من الطرح القائل إنَّه مجرَّدُ حكيم من حكماء الأديان أمرًا صعبَ التصديق. وكلُّ مؤسِّسي الأديان الكبرى يقولون: "أنا نبيٌّ وظيفتي أن أُريَكم كيف تَجِدون الله"، أمَّا يسوع فكان يقول: "أنا الله، وقد جئتُ لأجِدَكم". وهذا يعني أنَّنا لا يمكنُ أن ننظُرَ إلى يسوع بوَصفِه مجرَّدَ مُعلِّم من مُعلِّمي الأديان، ثمَّ

يصيرُ مجرَّدَ إضافةٍ إلى مخزون الحكمة الدينيَّة التي يملكها العالم. فالخِيارات المتاحةُ أمامنا هي: إمَّا أنَّ يسوعَ كانَ من جهةٍ مُحتالًا واعيًا بتَدليسه أو شخصًا مهووسًا، وإمَّا أنَّه كان، من جهةٍ أخرى، شخصًا من السماء حقًّا. ويصفُ دنكان هذه الخِيارات بأنَّها معضلةٌ ثلاثيَّة الأبعاد.

وخلاصةُ القَول هي إنَّ شخصيَّةَ يسوع تَستَدعي منكَ ردَّ فعلٍ راديكاليًّا بشكلٍ أو بآخر: فإمَّا من جهةٍ أن ترفضَ هذا الشخص بوَصفه شرِّيرًا أو أن تهربَ منه لجنونه، وإمَّا من جهةٍ أخرى أن تَخرَّ ساجدًا عند قدمَيه بوَصفه الله. وردودُ الفعل الثلاثةُ كلُّها منطقيَّةٌ لأنَّها تتَّسقُ مع طبيعة ما قاله يسوع عن نفسه. غير أنَّ ما لا يمكنُك فعلُه إزاءَ ما قالَه يسوع هو أن يكونَ ردُّ فعلك **وسطيًّا**. لا يمكنُك أن تقولَ له: "تعاليمك جميلة، ومفيدةٌ جدًّا. أنتَ مُفكِّر رائع". من عدم الأمانة أن يكونَ ردُّ فعلك على هذا النحو. إنْ لم يكُنْ يسوعُ ما يقولُه عن نفسه، فإنَّ تفكيرَه لا بدَّ أن يكونَ مشوَّهًا جدًّا ومَشوبًا بالخطأ. أمَّا إنْ كان حقًّا ما يقولُه عن نفسه، فهو حتمًا أكثرُ جدًّا بما لا يُقاس من مجرَّد مُفكِّر عظيم. إنَّ ما يقولُه لنا يسوع فعليًّا هو: "عليكَ أن تفحصَ ما أقولُه عن نفسي. إنْ كنتُ مُخطئًا، فأنا أقلُّ شأنًا من كلِّ مؤسِّسي الأديان الآخرين الذين امتَلَكوا من الحكمة والتواضع ما جعلَهم يُحجِمون عن الزَّعم أنَّهم الله. وإنْ كُنتُ مُحقًّا في ما أقولُه، فحَتمًا أنا في مكانةٍ أعلى من الجميع تؤهِّلني لأن أُعَرِّفَك مَن هو الله وما هي حقيقةُ الوُجود. لكنَّ الأمرَ المؤكَّد هو أنِّي لستُ مساويًا للآخرين".

لقد تحاوَرتُ مع الكثيرين الذين حاوَلوا الخروجَ من هذه المعضلة ثلاثيَّة الأبعاد بطرقٍ مختلفة. وربَّما كانت المحاولةُ الأكثرُ شيوعًا بين ما سمعتُه من آراء

هي القَول إنَّ يسوعَ لم يزعُمْ بتاتًا أنَّه الله. والسؤال المطروح في هذا الخصوص يواجِهُنا بالاعتراضات التالية: "كيف يمكنُك الوثوق بالمصداقيَّة التاريخيَّة لقصص العهد الجديد؟" و"كيف تتحقَّقُ أنَّ يسوعَ كان موجودًا في الأساس، قبل تَناوُل مزاعمه بشأن أنَّه الله؟" ألم تتطوَّرِ الفكرةُ القائلةُ إنَّ يسوعُ هو ابن الله القدُّوس بعد سنواتٍ عديدةٍ من موته؟" في حقيقة الأمر، نحن نملك أدلَّةً قويَّةً على وُجودِ يسوع وحياته من الوثائق التاريخيَّة وبعيدًا عن الكتاب المقدَّس. أيضًا هناك وفرةٌ من الدراسات الأكاديميَّة الجيِّدة التي تقدِّمُ برهانًا مُقنعًا عن الأناجيل، ليس بوصفها تُراثًا شفهيًّا مملوءًا بالأساطير، بل بوصفها **تاريخًا** شفهيًّا يستندُ إلى رواياتِ شُهود عِيان. أيضًا فإنَّ البراهينَ على هُويَّة يسوع السماويَّة تتجاوَزُ ما يَرِدُ في روايات الأناجيل نفسها. وتشيرُ الأدلَّة التاريخيَّة إلى أنَّه لم يكن هناك أيُّ جدلٍ أو وقتٍ امتنعَ بسببه أو في أثنائه المسيحيُّون عن الإيمان بأنَّ يسوعَ هو الله. مثلًا، في رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبِّي- التي كُتِبت بعد عقدَين من مَوت يسوع- توجد ترنيمةٌ كان يرنِّمها المسيحيُّون الأوائل، ولعلَّها أقدمُ من الرسالة نفسها، وهذه الترنيمة هي أشبه ما تكون بتَمجيدٍ لألوهيَّة السيِّد المسيح (فيلبِّي ٢: ٥-١١). وهذا يعني أنَّ الإيمانَ بالهويَّة السماويَّة ليسوع لم ينشَأْ بعدَ مَوتِ المسيح، ولكنَّه كان مستَنِدًا إلى تعاليمه وكان حقيقةً آمنَ بها المسيحيُّون منذ البداية.[٥] لذا لم يفلحِ الجَهدُ المبذولُ للخروج من هذه المعضلة ثلاثيَّة الأبعاد.

ويتبنَّى البعضُ ممَّن يدركون أنَّهم لا يستَطيعون الهروبَ من هذه المعضلة أحَدَ الآراء الثلاثة التي طرَحْناها سابقًا، فيَطرحون عَلَينا الآتي: "حسنًا،

أليس من المحتمل أن يكونَ المسيح مُحتالًا؟ كَونه كان مُعلِّمًا بارعًا لا ينفي عنه احتماليَّة أن يكونَ مُخادعًا". غير أنَّ من المهمِّ هنا أن نتذكَّرَ أنَّ كلَّ مَن تَبِعَ يسوعَ من المسيحيِّين الأوائل كانوا يهودًا، وقد كان لدى يهودِ القرن الأوَّل تصوُّرٌ عن الله بلغَ من السموِّ مكانةً عاليةً إلى الحدِّ الذي امتنعوا معه عن كتابة اسمه أو حتَّى نطقه. لذا فإنَّ أيَّ إيحاءٍ بأنَّ الله يمكنُ أن يتجسَّدَ في صورة بشرٍ ضعيفٍ من لحمٍ ودم كان سيُقابَل بالرَّفض العنيف. وهذا يعني أنَّ فكرةَ الله-الإنسان ما كانت لِتَردَ على أذهان اليهود، رجالًا أم نساءً، بغَضِّ النظر عن المكانة التي يحظى بها القائد الدينيُّ الذي يُنادي بذلك. كما يعني ذلك أيضًا أنَّه لم يكن لأيِّ محتالٍ أن يجرؤ حتَّى على محاولة إقناع تابِعيه من اليهود أنَّه القدُّوس من السماء. كان هذا الشخصُ سيَعرفُ أنَّ فُرصَ نجاح محاوَلاته تكادُ تكونُ معدومةً، والتاريخُ يشهدُ لذلك. كانت هناك شخصيَّاتٌ يهوديَّةٌ أُخرى زعمَ كلٌّ منها أنَّه المسيَّا وذلك خلال القرن الأوَّل، وكان لكلٍّ منهم أتباع، لكنْ لم نسمَعْ عن واحدٍ منهم قُدِّمَت إليه العبادة بوصفه الله.

البديلُ الثالثُ في المعضلة المُشَار إليها هو أن تطرحَ هذا السؤال: "ماذا لو لم يكُن يسوعُ مُحتالًا، لكنَّه كان شخصًا صادقًا حقًّا، لكنَّه كان مخدوعًا؟ ماذا لو أنَّه صدَّق نفسَه فعلًا بأنَّه هو الله؟ ألا يوجدُ احتمالٌ واحدٌ هنا أنَّه استَطاعَ بذلك أن يُقنعَ تابِعيه بأنَّه هو الله؟" الإجابة هي: لا! وإليكَ الأسباب. علينا أن نتأمَّلَ تلك الحقيقة القائلة إنَّه لا توجَدُ ديانة كبرى واحدة زعمَ مؤسِّسها أنَّه الله، وإنْ كان بعض مؤسِّسي بعض العبادات الصغيرة التي لم تدُم طويلًا

فعلوا ذلك. إنْ كان التاريخُ يشيرُ إلى وُجود أشخاصٍ مخدوعين زعموا أنَّ كلًّا منهم هو الله، فإنَّهم لم يستَطيعوا إقناعَ أحَدٍ بذلك، ما عدا فئةً قليلة من الناس. لماذا؟ من المستحيل أن تُقنعَ الناس بأنَّك الله لو كانت في شخصيَّتك النقائصُ الطبيعيَّة الموجودة في الشخصيَّة الإنسانيَّة مثل الأنانيَّة والتذمُّر والغضب بلا ضابط والكبرياء وعدم الأمانة والقَسوة. وحَتمًا يوجَدُ من الناس مَن يعيشون بالقرب من الشخصيَّة التي تزعمُ هذا الزَّعم، لذا يكون في وُسعهم أن يرَوا ما يُخفيه الإيهام. وإنْ أضفتَ إلى ذلك ما تنطوي عليه اليهوديَّةُ من نزعةٍ شكوكيَّة لها أبعادٌ لاهوتيَّة وأخرى ثقافيَّة إزاء كلِّ مَن يزعم هذه المزاعم، لاكتشفتَ أنَّه يكاد من المستحيل أن يُقنعَ المرءُ عددًا كبيرًا من اليهود أنَّه الله، إلَّا إذا كان هذا الزَّعم هو فعلًا التفسيرَ الوحيدَ الأكثر منطقيَّةً لحقائقَ أُخرى كثيرة.

هناك العديد من الدراسات الأكاديميَّة التاريخيَّة التي تُظهِرُ لنا أنَّه بعد موت السيِّد المسيح ظهرَتْ أعدادٌ متزايدةٌ من الناس الذين أكَّدوا أنَّهم مؤمنون بوحدانيَّة الله كما جاءت بها اليهوديَّة، ومع ذلك بدأوا يعبدون يسوعَ بوصفه الله الواحد الحقيقيّ.[٦] ما نوعيَّة الحياة التي عاشَها يسوع ليُنجزَ بها ما لم يُنجزِه أيُّ شخصٍ آخرَ في التاريخ- أي أن يُقنعَ عددًا كبيرًا من العقلاء المتَّزنين أنَّه هو خالق الكَون ودَيَّان العالم؟ والإجابة هي أنَّه كان على يسوع أن يكونَ مثل هذا الشخص الذي لا يُضاهيه في جماله أحَد، والذي يقدِّمه إلينا العهد الجديد حيثُ نرى هذه اللَّوحة المدهشة لهذا الشخص.

وعندما يلتَقي يسوع مَرثا نرى لمحةً من ألوهيَّته وسلطانه- هو الله. لكنَّ تلك اللمحة لا تُفسِّرُ لنا حقيقةَ هُوِيَّته كاملًا. ففي اللحظة التالية لهذا اللقاء نراه

منكسرًا، ويتنهَّد باكيًا تحت وطأة نَوح مريَم، وأمام وَحشةِ القبر. وربَّما تظنُّ هنا أنَّه لا يمكنُ للشَّخص الآتي من السماء حقيقةً أن تتأثَّرَ عواطفُه بمَن حولَه على هذا النحو، لكنَّ يسوع كان كذلك. لذا فإنَّنا هنا نرى الألوهيَّة جنبًا إلى جنب مع الضَّعف الإنسانيّ. محبَّته تعتصرُ قلبَه، فيبكي. ورغمَ ما قاله عن نفسه إنَّه هو القيامة والحياة- أي كونه الله- فإنَّه يتجاوَبُ مع مريَم على هذا النحو لأنَّه إنسانٌ كاملُ الإنسانيَّة أيضًا. لقد اتَّحَدَ بنا، وهو يشعرُ بقوَّة الموت المرعبة، ويعرفُ اللَّوعة التي تُصيبُنا لدى فقدان الأحبَّاء.

الذي لنا في المسيح يسوع إذًا هو أمرٌ من الصعب تصديقه، بل من الأصعب وصفه. هو ليس نصفَ إنسانٍ ونصف إله، وليس ٢٠٪ إله و٨٠٪ إنسان أو العكس. هو ليس مجرَّدَ إنسانٍ يحملُ وعيًا إلهيًّا خاصًّا، أو حتَّى شخصًا سماويًّا يتخفَّى بصريًّا وراء ما يبدو أنَّه جسمٌ بشريّ. هو الله ولكنَّه إنسانٌ بالتَّمام والكمال. ولا يوجَدُ أيُّ دينٍ من الأديان يقبلُ بذلك. لا توجدُ ديانةٌ أُخرى غير المسيحيَّة تؤمن بأنَّ الله الخالقَ، المتعالي فوقَ كلِّ الكَون، مُنشئَ الكون قد صار إنسانًا محدودًا، ضعيفًا شعرَ بقوَّة الموت والرعب الذي يبثُّه في نفوس البشر. هل تؤمن بأنَّ يسوع هو الله المتجسِّد؟ لن أُدهَشَ إن وجدْتَ صعوبةً في قبول ذلك. لكنِ انظُرْ إلى القصَّة التي يستعرضُها إنجيل يوحنَّا وتأمَّلْ ردَّ فعل يسوع تُجاه مَرثا ومريَم، وسترى أنَّك في أشدِّ الحاجة إلى هذا الشخص، بغضِّ النظر عمَّا إذا كنتَ قادرًا على قبول فكرة الله المتجسِّد.

لقد قدَّمَ يسوعُ إلى مَرثا ما يمكنُ أن نسمِّيَه خدمةَ الحقّ. وهذا ما كانت تحتاج إليه بشدَّةٍ في تلك اللحظة. وأتخيَّلُ يسوعَ في هذا الموقف وهو يمسكُ

مَرثا من كتَفِها ويقولُ لها: "أنصتي لي! لا تبتَئِسي. أنا هنا. القيامة. الحياة. هذا أنا". وبسبب هُويَّته السماويَّة كان مرتفعًا إلى الدرجة التي جعلَتْه قادرًا أن يرفعَ عَينَيها بعيدًا عن الأرض. ثمَّ يتحوَّلُ يسوعُ إلى مريَم ليقدِّمَ إليها ما يمكنُ أن نسمِّيَه خدمةَ الدُّموع. وهذا ما كانت تحتاجُ إليه أشدَّ الحاجة في تلك اللحظة. وبسبب هُويَّته الإنسانيَّة كان قادرًا على الوصول إلى أدنى نقطة، إلى الحدِّ الذي جعلَه يتوحَّدُ مع حزنها- بكلِّ الصدق والإخلاص- ويبكي معها.

في الواقع، يحتاجُ كلٌّ منَّا إلى خدمة الحقِّ وخدمة الدموع في أوقاتٍ مُتَباينة. ونحتاجُ أحيانًا إلى جرعةٍ أكبرَ من الحقِّ الذي يُثبِّتُ ويدعَم، ونحتاج إلى صديقٍ مُحبٍّ يُعيدُ إلينا وعيَنا وهو يقول: "كُنْ يقظًا وانظرْ إلى ما يدورُ حولك". وفي أحيانٍ أُخرى لا نحتاج إلَّا إلى شخصٍ يبكي معنا. أحيانًا نرتكبُ خطأً بالغًا عندما نقدِّمُ الحقَّ إلى الناس بينما هم يتوجَّعون، وفي أحيانٍ أخرى نقترفُ خطأً مماثلًا عندما نكتفي بالبكاء مع الناس دون أن نقدِّم إليهم الحقّ. لا يملك أيٌّ منَّا التكوينَ النفسيَّ أو الصبرَ أو البصيرة التي تمكِّننا من أن نقدِّمَ إلى الناس ما يحتاجون إليه بالضَّبط في كلِّ الأوقات. يملكُ بعضُنا شخصيَّةً تميل أكثر إلى المواجهة في وقتٍ يتطلَّبُ التعاطف، فيما يميلُ بعضُنا إلى التوجُّه النقيض. أمَّا يسوع المسيح فلا يُظهِرُ القوَّة في وقتٍ يستَدعي الرقَّة، ولا يُبدِي الرقَّة في وقتٍ لا يناسبُه إلَّا القوَّة. لكنَّ يسوعَ ليس مجرَّدَ مُشيرٍ كامل، بل هو الحقُّ نفسُه وقد أتانا قادرًا على البكاء معنا، وهو الله الظاهر في الجسد.

إنَّ هذهِ المفارَقة- أنَّه الله وإنسانٌ في آنٍ معًا- هي ما يمنحُ يسوعَ هذا الجمالَ المذهِل. هو الأسد والحمل معًا. ورغمَ سموِّ ما يقولُه عن نفسه، فإنَّه لا يفعلُ

ذلك بغرورٍ وتَعالٍ. وهو لا ينظر إلى الناس بتاتًا من علُ، رغم أنَّه هو العالي. ورغم أنَّ أضعفَ الضعفاء وأكثرَ البشر انكسارًا يمكنُهم الاقتراب منه دونَ عوائق، فهو يقفُ مَهوبًا أمام الفاسدين وأصحاب السلطة. في شخصيَّته رقَّةٌ دون ضعف، وقوَّةٌ دونَ قسوة، وتواضعٌ دون أدنى فقدان للثِّقة. لديه سلطانٌ لا يهتزّ، دون أن يكونَ مشغولًا بنفسه. في شخصيَّته قداسةٌ بلا حدود، دون أن يحدَّ ذلك من انفتاحه على الآخرين، وقوَّة لا تفتقر إلى الحسَّاسيَّة. سمعتُ مرَّةً أحَدَ الوعَّاظ يقول: "لم يكتشفْ أحَدٌ حتَّى الآن الكلمة التي كان على يسوع أن يقولها. هو شخصيَّةٌ حافلةٌ بالمفاجآت، ولكنَّها كلَّها مفاجآت كاشفةٌ عن الكمال".[٧]

يسوعُ إذًا هو الله الذي صارَ إنسانًا. لكنَّ ذلك يضَعُنا بالتَّأكيد أمامَ السؤال: لماذا فعلَ ذلك؟ لماذا كان على صاحب السلطان المطلق أن يأتيَ إلينا ويشاركَنا ضعفَنا؟ وللإجابة عن هذا السؤال، فلنتأمَّلِ الجزءَ الأخيرَ من قصَّة الأختَين النائحتَين:

> "فانزعَجَ يسوعُ أيضًا في نفسِه وجاءَ إلى القَبر، وكانَ مَغارةً وقد وُضعَ علَيه حَجَر. قالَ يَسوعُ: «ارفَعوا الحَجَرَ!».
>
> قالَت له مَرثا، أُختُ الميت: "يا سيِّدُ، قد أنتَنَ لأنَّ له أربَعةَ أيَّام».
>
> قالَ لها يَسوع: «ألَم أقُل لك: إنْ آمَنتِ ترَينَ مَجدَ الله؟».
>
> فرَفَعوا الحَجرَ حيثُ كانَ الميتُ مَوضوعًا، ورَفعَ يَسوعُ عَينَيه إلَى فوقُ، وقالَ: «أيُّها الآبُ، أشكُرُكَ لأنَّكَ سمعتَ لي، وأنا

عَلمتُ أَنَّكَ في كُلِّ حينٍ تسمَعُ لي. ولكنْ لأجل هذا الجَمع الواقف قُلتُ، ليؤمنوا أَنَّكَ أرسَلتَني».

ولَمَّا قالَ هذا صَرَخَ بصوتٍ عظيم: «لِعازر، هلُمَّ خارجًا!» فخرجَ المَيتُ ويَداه ورجلاه مَربوطاتٌ بأقمطَةٍ، ووجهُهُ مَلفوفٌ بمنديلٍ. فقالَ لهُم يَسوع: «حُلُّوه ودَعوه يَذهَب»" (يوحنَّا ١١: ٣٨-٤٤).

تكادُ كلُّ ترجمةٍ إنكليزيَّة متاحةٍ للآية ٣٨ أن تصيبَني بالإحباط. نقرأ هنا في النصِّ الإنكليزيِّ* أنَّ "يسوع انزعجَ أيضًا في نفسه وجاء إلى القبر". لكنَّ الآية تحتوي على كلمةٍ يونانيَّةٍ تعني "يصرخُ غاضبًا"، وعلى ما يبدو أنَّه لم يوجَدْ مترجمٌ استَطاعَ أن يختارَ اللَّفظةَ التي يُقِرُّ أيُّ مُفسِّرٍ أو خبيرٍ باللغة اليونانيَّة أنَّ النصَّ يستخدمُها. كان يسوع في ذلك الموقف غايةً في الغضب، وفي داخله غَيظٌ شديد- إنَّه يزأرُ كالأسد الغاضب. لكنْ ما الذي (أو مَن الذي) أثارَ غضبَه؟ ليسَتْ هناك إشارةٌ إلى أنَّه كان غاضبًا من عائلة مريَم ومَرثا؟ ما الذي أثارَ غضبَه إذًا؟

كان ديلان توماس (Dylan Thomas) مُحقًّا عندما قالَ في إحدى قصائده: "لا تمضِ بيُسرٍ عندَ تحيَّة المساء. ثُر واغضَبْ على احتضار النور".** يسوعُ هنا يثورُ ويغضبُ على **الموت**. هو لم يَقُل: "تعقَّلوا، عليكم أن تعتادوا ذلك الأمر.

---

* المعنى في الترجمة الإنكليزيَّة شبيه بما جاء في الصياغة العربيَّة لترجمة فاندايك، وإن كانت بعض الترجمات العربيَّة الأخرى تُبرزُ المعنى بوضوحٍ أكبر. ففي الترجمة العربيَّة المشتركة مثلًا ترِدُ ترجمة الآية كالتالي: "وتوجَّعَتْ نفسُ يسوع ثانيةً وجاءَ إلى القبر"، وفي ترجمة كتاب الحياة تردُ الآية هكذا: "ففاضَ قلب يسوع بالأسى الشديد مرَّةً ثانية، ثمَّ اقتربَ إلى القبر" (المترجم).

** هذا السطر مقتبسٌ من إحدى أشهر قصائد الشاعر الإنكليزيِّ ديلان توماس المولود في مقاطعة ويلز، وعاش في الفترة ما بين ١٩١٤ و١٩٥٣م. نشرَ هذه القصيدة عام ١٩٥١م، وأهداها إلى والده المحتَضَر آنذاك (المترجم).

كلَّنا سنموت. وهذه هي حال الدنيا، وعليكم الاستسلام للأمر الواقع"- لم يقُلْ يسوعَ ذلك. في هذا المشهد نرى يسوع وهو ينظرُ بجسارةٍ إلى ذلك الكابوس الذي يروِّعُنا جميعًا- فقدان الحياة، وفقدان الأحبَّاء وضياع الحبّ- فيثورُ غضبُه. إنَّه غاضبٌ هنا على الشرِّ والألم، لكنَّه لا يغضب من نفسه، كونه الله. ما معنى ذلك؟

يعني ذلك بدايةً أنَّ الشرَّ والموتَ هما نتاج الخطيَّة، ولم يكونا بتاتًا في خُطَّة الله الأصليَّة. لم يخلقِ الله عالمًا ملآنًا بالمرض والمعاناة والموت. لكنْ لعلَّك تسأل: إنْ كان الله غير راضٍ عن العالم بحالته هذه، فلماذا لا يَظهَرُ ليَضَعَ حدًّا لذلك كلِّه؟ لماذا لا يأتي إلى الأرض ويقضي على كلِّ الشَّرّ؟ لكنَّ هذا السؤال يكشفُ عن قصورٍ في معرفة الذات. يقول الكتاب المقدَّسُ إنَّ مصدرَ الكثير من البلايا التي أصابَتِ العالم هو قلبُ الإنسان، وهذا ما نعرفُه جميعًا في دواخلنا. ومرجعُ الكثيرِ من البؤس الذي نراه في الحياة هو الأنانيَّة والكبرياء والقسوة والغضب والقهر والحرب والعنف. وهذا معناه أنَّه لو أتى يسوع المسيح إلى الأرض وفي يدَيه سيفُ غضبِ الله على الشَّرّ، فلن يبقى منَّا أحَدٌ. نحن جميعًا مضروبون بالشرِّ وبالتمَركُز على ذواتِنا.

إلَّا أنَّ يسوعَ لم يأتِ بسَيفٍ في يدَيه، بل بمسامير. لم يأتِ ليُنزِلَ دَينونتَه، بل ليَحمِلَها عنَّا. وهذه الفِقرة من إنجيل يوحنَّا تكشف لنا ذلك بواسطة المعضلة التي كان على يسوع مواجهتها. بعد ذلك في أصحاح ١١ نفسه يرى القادة الدينيُّون ما أظهرَه يسوع من قدرةٍ وسلطان، ويدركون أنَّ هذه المعجزة جعلَتْ منه شخصًا خَطِرًا عليهم على نحوٍ أكبرَ ممَّا توقَّعوا. لذا بعد إقامة لِعازر، اجتمعَ

قادةُ اليهود، وفي العدد ٥٣ يقول يوحنَّا: "فمن ذلك اليوم تشاوَروا ليقتُلوه".

كان يسوع عالمًا بذلك كلِّه. وكان يعلم أنَّه لو أقامَ لِعازر من الأموات، فستَسعى المؤسَّسة الدينيَّة إلى قتله. لذا كان يدركُ أنَّه كان عليه لكي يُخرجَ لِعازر من القبر أن يدخلَ هو نفسُه القبر. كان يسوع مدركًا أنَّ الطريقة الوحيدة لوَقْف جنازة لِعازَر أن يبدأ هو في التَّجهيز لجنازته؛ ولكي يُخلِّصَنا نحن من الموت، كان عليه هو أن يذهبَ إلى الصليب ويحملَ عنَّا الدينونة التي نستحقُّها. لذا لم يكُنْ يسوع مبتسمًا عند اقترابه من القبر لأنَّه كان سيقدِّمُ عرضًا مُبهرًا ولكنَّه كان منفعلًا بغَضب، والدُّموع تنسال على وجنَتَيه. كان عالمًا بالكُلفة التي كان سيتحمَّلُها ليُخلِّصَنا جميعًا من الموت. ربَّما كان قادرًا في هذه اللحظة أن يستَشعرَ أنيابَ الموت وهي تقتربُ منه. ورغمَ معرفته بكلِّ ذلك؛ ورغم كلِّ تلك المشاعر داخله، فقد صرخَ قائلًا: "لِعازر هلمَّ خارجًا".

مَن شَهِدوا هذا الحدث قالوا عن يسوع: "انظروا كيف كان يحبُّ لِعازر"، ولكنَّ علينا في الواقع أن ننظرَ كيف يحبُّنا **نحن**. لقد صارَ إنسانًا فانيًا وضعيفًا ومُعرَّضًا لأن يُقتل، وقد فعلَ كلَّ ذلك من فَرْطِ حبِّه لنا.

في عام ١٩٦١م، أرسلَ الرُّوس إنسانًا إلى الفضاء، وبعدَها أدلى رئيس الاتِّحاد السوفييتيِّ آنذاك نيكيتا خروشوف (Nikita Khrushchev) بتصريحٍ جريء. أتذكَّرُ ما قالَه جيِّدًا، فقد كنتُ في الحاديةَ عشرةَ من عمري عندما حدثَ ذلك. قال خروشوف شيئًا من قبيل: "لقد أرسَلْنا بإنسانٍ إلى الفضاء، ولكنَّنا لم نرَ الله، وهكذا أثبَتْنا أنَّه لا يوجَدُ إله". ومع أنَّ هذا القَول لا يقوم

على أيِّ منطقٍ قويٍّ أو فلسفةٍ متماسكة، فقد قصدَ خروشوف ما قالَه، وهناك الملايين من الناس الذين يؤمنون بهذا المعنى. يظنُّ هؤلاء أنَّ الملاحظةَ التجريبيَّة أثبتَتْ عدمَ وُجودِ إله. وكتب سي. أس. لِويس مقالةً حول هذه الفكرة عنوانه: "العين التي ترى" (The Seeing Eye)، وفيه يقولُ إنَّه إنْ كان هناك إلهٌ فإنَّنا لن ندركَه بالطريقة نفسها التي يرى بها شخصٌ في الطابَق الأوَّل شخصًا آخر في الطابَق الثاني من منزل. في هذا المثل، سيصعدُ الشخص من الطابَق السفليِّ إلى الطابق الأعلى ليجدَ الشخص الآخر. لكنَّ الله ليس مجرَّدَ شخصٍ يسكنُ السَّماء؛ إذ إنَّه خالقُ الكَونِ كلِّه، الأرض والسماء، الزمان والمكان، وخالقُنا نحن. وعلاقتنا بالله هي أكثرُ شبهًا بالعلاقة ما بين شكسبير وشخصيَّة هاملت.*** ما حجمُ ما يعرفُه هاملت عن شكسبير؟ إنَّه يعرفُ فقط ما دَوَّنه شكسبير عن نفسه في المسرحيَّة. ولن يتمكَّن هاملت بتاتًا من التعرُّف إلى المؤلِّف الذي خلقَه إلَّا بهذه الطريقة. ويستنتج لويس أنَّنا على النحو ذاته لا يمكننا أن نجدَ الله إذا صعدنا إلى ارتفاعٍ أعلى. لكنَّنا سنتعرَّفُ إلى الله بما يدوِّنه الله عن نفسه في حياتنا وفي العالم حيثُ نعيش. وقد كتبَ الله حقًّا على صفحة حياتنا وعلى صفحة هذا الكون.

غير أنَّ الله لم يمَنْحنا مجرَّدَ معلومات. فهناك صديقة لِلويس فعلَتْ شيئًا شبيهًا بما يصفُه هنا، وهذه الصديقة هي المؤلِّفة دوروثي سييرز (Dorothy Sayers). كانت سييرز واحدةً من أوائل النساء اللاتي ذهبنَ إلى الدراسة في جامعة أكسفورد، وكانت مؤلِّفةَ رواياتٍ بوليسيَّة. ومن بين أعمالها سلسلةٌ من الروايات تحت عنوان

*** الشخصيَّةُ الأساسيَّةُ في مسرحيَّةٍ كتبَها شكسبير في عام ١٦٠٠م، وتحملُ العنوانَ نفسَه (المترجم).

"**اللورد بيتر ويمسي**" (Lord Peter Wimsey). كان اللورد بيتر مخبرًا من عائلةٍ أرستقراطيَّة، وكان عازبًا ووحيدًا. وفي منتصف السلسلة، تظهَرُ امرأةٌ طويلةٌ لا تملك جاذبيَّةً خاصَّةً اسمها هارييت ڤاين (Harriet Vane). ونقرأ في الرواية أنَّ هارييت هي إحدى أوائل النساء اللَّاتي ذهبنَ للدِّراسة في أكسفورد، وتعملُ مؤلِّفةَ روايات بوليسيَّة. يحبُّ بيتر وهارييت أحَدُهما الآخر ويتزوَّجان ويعملان معًا على حلِّ ألغاز الجرائم التي تقعُ حولَهما. ما الذي يحدُثُ هنا؟ تأمَّلَ بعضُ الناس في ما فعلَتْه دوروثي المؤلِّفة في هذه الرواية، ورأوا أنَّها أحبَّتِ العالمَ الذي خلقتْه في الرواية، وكذلك شخصيَّة بيتر التي ابتدعَتْها، ورأتْ ألَمَه ووحدتَه، فوقعَتْ في غرامِه وقرَّرتْ أن تكتبَ نفسَها، وتدخلَ الروايةَ بوصفها واحدةً من الشخصيَّاتِ لتُنقذَ بيتر.

لقد فعلَ الله الأمرَ نفسَه. نظرَ إلى عالمنا- ذلك العالم الذي صنعه هو- ورآنا ونحن ندمِّرُ أنفسَنا والعالم بالابتعاد عنه، فامتلأ قلبُه ألَمًا (تكوين ٦: ٦). لقد نظرَ إلينا ورآنا بينما نصارع للنَّجاة من الفخاخ التي نصَبْناها لأنفسنا والبؤسِ الذي جَلَبْناه علينا. وعندها قرَّرَ الله أن يكتُبَ نفسَه في قصَّتنا ليَأتيَنا في صورة يسوع المسيح، الله-الإنسان، المولود في مذوَد، والذي وُلِدَ ليَموتَ على الصليب لأجلنا.

انظروا إلى شخصيَّة يسوع وكم أحبَّنا وكيف أتانا ليُصحِّحَ أوضاعَ العالم.

الفصل الرابع

حفلُ العرس

رأينا في الفصول السابقة أنَّ يسوع أتى إلى هذا العالم ليتعاملَ مع انكساره وحالته المظلِمة. لكنِّي في هذا الفصل أودُّ أن أتأمَّل في كيفيَّة تصحيح الأوضاع الخاطئة في العالم. ويشغلُني على وجه التحديد السؤال التالي: كيف فعل يسوع ذلك؟

اللقاء الذي نحن بصَدَده في هذا الفصل يدورُ حول وليمةٍ في حفل عرس. يُخبرنا الأصحاح الثاني من إنجيل يوحنَّا بأنَّ يسوعَ وأمَّه وتلاميذَه تلقَّوا دعوةً لحضور عرسٍ في قانا الجليل. تُعطي الثقافات القديمة والتقليديَّة الأولويَّة الأكبر للعائلة والمجتمع مقارنة بالفرد؛ لذا فمعنى الحياة لدى هذه الثقافات لا يكمنُ في الإنجاز الذي يحقِّقه الفرد، بل في أن يكونَ صالحًا في الدور الاجتماعيِّ الذي يقوم به بوصفه زوجًا أو زوجةً؛ ابنًا أو ابنةً؛ أبًا أو أُمًّا. والغرض من الزواج هنا لم يكن في الأساس تحقيق السعادة للفردَين المتزوِّجَين، بل ربطُ أفراد

المجتمع بعضهم ببعض وتنشئة الجيل المقبل. بعبارةٍ أخرى، كان الغرضُ من الزواج هو المصلحة العامَّة للجماعة: فكلَّما زاد عدد أفراد العائلة وزادت قوَّتها؛ وكلَّما زادت أعداد العائلات في المدينة الواحدة، تحسَّن اقتصاد هذه المدينة وزاد أمنُها عسكريًّا، وتحسَّنت أوضاع الجميع.

وكان كلُّ هذا يعني أنَّ حفلاتِ العرس وولائمه كانت أمورًا غايةً في الأهمِّيَّة آنذاك إذا ما قورنَت بأهمِّيَّتها في وقتنا الحاضر. فقد كان كلُّ حفل زفاف أشبَهَ بِعيدٍ للمدينة كلِّها؛ لأنَّ الزواج كان أمرًا يتعلَّق بالمجتمع بأسره، وليس فقط أمرًا خاصًّا بالفردَين المتزوِّجَين. في الوقت ذاته، كان الزواج هو الحدثَ الأبرزَ في الحياة الشخصيَّة للعروسَين؛ حيث كان يوم العرس لهما هو اليومَ الذي يُعلَن فيه أنَّهما بلغا سنَّ الاتِّزان وتحمُّل المسؤوليَّة، ليصيرا عضوَين ناضجَين من أعضاء المجتمع. لم يكن من المستغرب إذًا مع هذه الأهمِّيَّة لحفل العرس في الثقافات القديمة أن تستمرَّ هذه الاحتفالات أسبوعًا على الأقلّ.

بناءً على هذه الخلفيَّة سنجد أنَّ النصَّ الذي أمامنا في إنجيل يوحنَّا يُفتَتَحُ بمفاجأةٍ هي أقربُ ما تكون إلى كارثة كبرى. فربَّما بعد يومٍ أو يومَين من بداية الأفراح فرغَتِ الخمر، وهو الأمر الأهمُّ في الاحتفالات القديمة. لم يكن ذلك يعني إلَّا نهاية الحفل بكلٍّ بساطة. ونتيجة ذلك لم تكن مجرَّد تجاوُزٍ لقواعد الذوق واللياقة، بل عنى أيضًا مأساةً اجتماعيَّة ونفسيَّة، لا سيَّما في ثقافةٍ تقليديَّةٍ تُجلُّ مفهومَي الشرف والعار.

وكان هذا مثارًا لجدل نشأ بين يسوع وأمِّه:

"وفي اليوم الثالث كان عُرسٌ في قانا الجليل، وكانت أُمُّ يسوع هناك. ودُعي أيضًا يسوعُ وتلاميذُه إلى العُرس. ولمَّا فرغَتِ الخمرُ، قالت أمُّ يسوع له:

«ليس لهُم خمرٌ».

قال لها يسوع: «ما لي ولك يا امرأة؟ لم تأتِ ساعتي بعدُ».

قالت أُمُّه للخُدَّام: «مهما قال لكُم فافعلوه».

وكانت ستَّةُ أجرانٍ من حجارةٍ موضوعةً هناك، حسب تطهير اليهود، يسعُ كلُّ واحدٍ مطرَين أو ثلاثةً.

قال لهم يسوع: «املأوا الأجران ماءً». فملأوها إلى فوقُ.

ثمَّ قال لهم: «استَقوا الآن وقدِّموا إلى رئيس المتَّكأ».

فقدَّموا. فلمَّا ذاق رئيسُ المتَّكأ الماء المتحوِّل خمرًا، ولم يكُن يعلمُ من أين هي، لكنَّ الخدَّام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا، دعا رئيسُ المتَّكأ العريس، وقال له: كلُّ إنسانٍ إنَّما يضعُ الخمر الجيِّدة أوَّلًا، ومتى سكروا فحينئذٍ الدُّون. أمَّا أنت فقد أبقيتَ الخمرَ الجيِّدة إلى الآن!»

هذه بدايةُ الآيات فعلها يسوعُ في قانا الجليل، وأظهر مجدَه، فآمن به تلاميذُه" (يوحنَّا ٢: ١-١١).

إنَّ مفتاحَ فهمِنا هذا الحدث يكمنُ في الآية الأخيرة. لم يُطلق على ما حدث مجرَّد "معجزة" بل آية (Sign). والآية رمزٌ يَدُلُّ على أمرٍ ما. لم يكن على يسوع أن يستخدم قدرته في هذا الموقف لكنَّه فعل. وعندما اختارَ أن يفعل ذلك

كانت النتيجةُ أنَّ "هذه كانت بداية الآيات التي أظهرَ بها مجده"- أي هُويَّته- للآخرين. وكونه صنع ذلك على هذا النحو هو أمرٌ جديرٌ بكلِّ اهتمام.[٨]

تَذكَّر أنَّ هذه الحادثة كانت بداية خدمةَ يسوعَ العلنيَّة. تخيَّل أنَّك مُرشَّحٌ لوظيفةٍ ما، مثل أن تكون صاحبَ مشروع سيطلق "ماركة" جديدة، أو موسيقيًّا سيطلقُ أوَّل ألبوم له. في كلِّ الحالات، أنتَ سَتُولي عنايةً هائلةً للخطوة العلنيَّة الأولى التي ستقدِّمك إلى الناس. وهنا ستبذلُ قُصارى جَهدك لتضعَ كلَّ التفاصيل تحت سيطرتك وبعناية فائقة على النحو الذي يجعل كلَّ شيء تقوله وتفعله يوصلَ الرسالةَ الصحيحةَ عنك. لكنِ انظُرْ إلى ما فعله يسوع في هذا الموقف. ليس هناك شخصٌ يُحتَضَر، ولا شخصٌ مسكونٌ بالأرواح الشرِّيرة، ولا شخصٌ يتضوَّر جوعًا. لماذا يختار يسوع أن تكون الآية التي تمثِّله وتعبِّر عن هُويَّته هي المحافظة على استمراريَّة حفل؟ لماذا كانت المعجزة الأولى- أي المعجزة ذات الدلالة بحسب يوحنَّا- هي استخدام القوَّة الخارقة لتوفير كمِّيَّة هائلة من الخمر للحفاظ على استمراريَّة الاحتفالات؟ لماذا فعل يسوع ذلك؟

كتبَ رينولد پرايس (Reynold Price)- وهو أستاذ الأدب الإنكليزيِّ البارز في جامعة ديوك لسنوات عديدة، والروائيُّ الشهير أيضًا- كتابًا أسماه "**ثلاثة أناجيل**" *(Three Gospels)*، وقد فسَّرَ فيه إنجيلَي مرقُس ويوحنَّا وحلَّلهما، ثمَّ كتب صياغته هو لحياةِ يسوع. ويتحدَّث پرايس بوصفه خبيرًا في الأدب قائلًا إنَّه لم يكن إنجيل يوحنَّا عملًا من نتاج الخيال، ولكنَّه عملٌ مكتوبٌ من "شاهد عِيان صافي الذهن وثاقب الفكر، عاين أعمالَ يسوعَ وفكرَه".[٩] وأحدُ

الأسباب التي جعلت پرايس يخلُصُ إلى هذه النتيجة هو قصَّة المعجزة الأولى التي نحن بصدَدِها الآن. وهنا يتساءل: "ما الذي يجعل يسوع يقدِّم في الآية الأولى التي يبدأ بها خدمتَه حلًّا معجزيًّا لمشكلة ناتجة عن سهوٍ أو غفلةٍ من المسؤولين عن إعداد الاحتفال؟"[١٠] لا يمكن لعاقلٍ أن يختلقَ أمرًا كهذا!

كما رأينا سابقًا، فإنَّ پرايس يبالغُ قليلًا هنا. فعند الناس المنتَمين إلى هذه الثقافة، فإنَّ نفادَ الخمر هو أمرٌ يتجاوزُ مجرَّد مشكلةٍ تسبِّب حرجًا اجتماعيًّا. ولكنْ رغمَ الشعور بالخزي الذي أصاب حتمًا العروسَين، فالأمر لم يكن مسألةَ حياةٍ أو موت، كما نفهم من السؤال الذي طرحه پرايس. السؤال إذًا: ما الذي يدلُّ عليه هذا الحدث في علاقته بالأسباب التي جعلَتْ يسوعَ يأتي إلى هذا العالم؟

فلنتأمَّل بدايةً في ما قدَّمه يسوع في هذا الموقف (وما قدَّمه إلينا). في العدد ٩ من هذا النصّ، نقرأ عن "رئيس المتَّكأ"؛ وهو في منزلة المسؤول عن مراسم الاحتفال. ووظيفة هذا الشخص أن يدعوَ الناس للاحتفال، وأن يضمنَ توافُر الأوضاع اللازمة لإتمام الحفل، وأن يجعلَ كذلك الحفلَ رائعًا قدر الإمكان. وعندما يحوِّل يسوع الماءَ خمرًا ويتدخَّل لإنقاذ الموقف، فهل ترى الرسالة التي يحاول يسوع إيصالها هنا؟ كأنَّه يقول في هذا الموقف: أنا رئيس المتَّكأ الحقيقيّ. أنا ربُّ الاحتفال الحقيقيّ.

ربَّما يقول أحدُهم هنا: "انتظر! كنتُ أتصوَّر أنَّ يسوعَ جاء ليتَّضع ويتخلَّى عن مجده، ثُمَّ يُرفضَ من الناس ليذهبَ بعدها إلى الصليب". هذا صحيح بالتَّأكيد، لكنَّ يسوعَ يضعُ هنا الفقدَ والألمَ في سياقهما.

يقول يسوع: "نعم، أنا سأتألَّم! نعم سيكون هناك إنكارٌ للذَّات! نعم ستكون هناك تضحية- من قبَلي، وكذلك من قِبَل مَن سيتبَعونني أيضًا. غير أنَّ هذا ليس سوى الوسيلةِ التي ستؤدِّي إلى الغاية، وهي فرح الاحتفال. فالهدفُ من كلِّ ذلك هو القيامة والسموات الجديدة والأرض الجديدة، ونهاية الشرِّ والقضاء على الموت ووضع حدٍّ للدُّموع. هل تذكرون تلك الأساطير الخاصَّة بالإله ديونيسوس (Dionysus) في الأساطير اليونانيَّة الذي يُلهِمُ مُحبِّيه نشوةً بالغةً تجعلهم يرقصون من سَكرةِ الفرح على أنغام الموسيقا؟ ولا يمثِّلُ هذا المشهدُ شيئًا إذا ما قورن بالحفل الأبديِّ الذي سيُقام بعد أن يطويَ التاريخُ صفحتَه الأخيرة. أمَّا الذين يؤمنون بي فسيجري داخلهم الآن ينبوعٌ من ذلك الفرح، ويذوقون بعضًا منه مُقدَّمًا. وسيغمرُ طَعْمُ هذا الفرح قلوبَهم بالعزاء، وينعشُ نفوسَهم في أقسى اللحظات وأكثرها جفاءً وجَدبًا، تمامًا كما يفعل الماء الحيّ. هذا ما جئتكم به، ولهذا كانت تلكَ آيتي الأولى".

لا شكَّ أنَّ الكتاب المقدَّس يستخدمُ لغةَ الحواسِّ عندما يتحدَّث بشأن خلاص الله، بل أيضًا عندما يتحدَّث بشأن الله ذاته. مثلًا، يقولُ داوُد في المزمور ٣٤ لقرَّائه من شعب العهد القديم: "ذوقوا وانظروا ما أطيب الرَّبّ" (عدد ٨). لكنْ، ألا يعرف الشعبُ أنَّ الربَّ طيِّب؟ نعم يعرفون، لكنَّ داوُد في دعوته إليهم ليتذوَّقوا، إنَّما يريد لهم أن يتجاوَزوا مجرَّد قبول هذه الفكرة بالعقل، بغضِّ النظر عن صحَّتها. وكأنَّ داود يقولُ لهم هنا: "تعرفون بالتَّأكيد أنَّ الربَّ طيِّب، ولكنِّي أريدكم أن تَذوقوا هذه الحقيقة". إنَّه يريدهم أن يختبروا ذلك في أعماقهم.

أنا قسٌّ في الكنيسة المشيخيَّة، وقد يستغربُني البعضُ قليلًا عندما يسمعونني أقول: "يسوع المسيح أتى ليمنحَنا فرحًا يفوق التصوُّر، ويجعلَ قلوبَنا تعرفُ طعمَ الاكتمال والتحقُّق على نحوٍ بالغِ العُمْق، وهو سيُعطينا ذلك ليس لاحقًا فقط، بل الآن أيضًا". فالمعروفُ عن المشيخيِّين أنَّ تحفُّظَهم يمنعُهم قليلًا عن مثل هذا الحديث. لكنَّ الكتاب المقدَّس لم يتركْ لي خِيارًا. هل تعرف ما يقوله الكتاب المقدس عن اليوم الأخير، ونهاية الدهر؟ ربَّما كان يسوع يُفكِّر حينها في أثناء العُرس. يقول إشعياء: "ويصنعُ ربُّ الجنود لجميع الشُّعوب في هذا الجبل وليمةَ سمائن، وليمة خمرٍ على دردِيٍّ، سمائن ممخَّة، دردِيٍّ مصفًّى. ويُفني في هذا الجبل وجهَ النِّقاب. النِّقاب الذي على كلِّ الشُّعوب، والغطاءَ المغطَّى به على كلِّ الأمم. يَبلَعُ الموتَ إلى الأبد، ويمسحُ السيِّدُ الربُّ الدُّموعَ عن كلِّ الوجوه، وينزعُ عارَ شعبِه عن كلِّ الأرض، لأنَّ الربَّ قد تكلَّم" (إشعياء ٢٥: ٦-٨).

في رواية "**سيِّد الخواتم**" *(Lord of the Rings)* لمؤلِّفها جاي. آر. آر. تولكين (J. R. R. Tolkien) يستيقظ ساموايز غامجي (Samwise Gamgee) بعد إنقاذه من نيران جبل الدَّينونة ليري غاندالف (Gandalf) ما زال على قيد الحياة، وعندها يدركُ ما حدث، فيقول: "غاندالف، لقد ظننتُ أنَّك مُتَّ. لكنِّي ظننتُ أيضًا أنِّي مُتُّ. هل ستَختَفي كلُّ الأمور المحزِنة دونَ أن تتحقَّق؟" يقولُ الكتابُ المقدَّس إنَّ هذا بالضبط ما سيفعلُه يسوعُ في النهاية. في نهاية الزمان، لن نؤخَذَ من هذا العالم لنذهبَ إلى السماء، لكنَّ السماءَ نفسَها ستأتي إلى الأرض لتُجدِّدَ هذا العالم. وستُمسَح كلُّ دمعة، وستَختَفي تمامًا كلُّ الأمور المحزِنة دون أن تتحقَّق. هذا ما جاء يسوع لأجله.

هناك مشهدٌ في رواية فيودور دوستويڤسكي (Fyodor Dostoyevsky) العظيمة "**الإخوة كارامازوف**" *(The Brothers Karamazov)* يتحدَّث فيه شخصان بشأن المعاناة والألم. ويتكلَّم إيڤان كارامازوف (Ivan Karamazov) في هذا المشهد عن إمكانيَّة فَهم المعاناة، قائلًا:

> "أومن إيمانَ الأطفال بأنَّ لكلِّ معاناةٍ إبراءً وتعويضًا، وبأنَّ كلَّ تَناقُضات البشر بعبثيَّتها وإيلامها ستَتَلاشى كسرابٍ بائس، مثلُها مثلُ الأباطيل الفارغة التي يختلقُها عقلُ الإنسان الإقليديُّ* بعجزه ومحدوديَّته اللَّامتناهية. وفي نهاية العالم، عند لحظة التناغُم الأبديِّ، سيحدثُ أمرٌ بالغُ القيمة من شأنه أن يكفيَ حاجاتِ كلِّ القلوب، ويداويَ كلَّ سخط، ويُكفِّر عن كلِّ جرائم البشر، وكلِّ الدماء التي سفكوها، بحيث يصير ممكنًا ليس فقط الصفح عنها، بل أيضًا تبريرُ كلِّ ما حدث فيها".[١١]

تشي هذه الفِقرةُ بقناعات دوستويڤسكي المسيحيَّة، كما تُفصح عنها مُخيَّلته وصنعته الأدبيَّتَين؛ فهو يقول هنا إنَّه يؤمن بأنَّ النهاية ستَشهدُ واقعًا غايةً في الإبهار، وأنَّ الفرحَ سيفوق التصوُّر، والإحساس بالتحقُّق والاكتمال سيكون مذهلًا جدًّا، حتَّى إنَّ كلَّ نفسٍ مسكينةٍ ستشعرُ معه بأنَّ ما مرَّت به كأنَّه كان

---

* نسبةً إلى عالم الرياضيات اليونانيِّ إقليدس (Euclid) الذي وضعَ أسس علم الهندسة في كتابه "العناصر". ومصطلح "العقلُ الإقليديُّ" (Euclidean mind) هو مِن وَضْع ڤولتير (Voltaire)، والمقصود به المحدِّدات التي تحكمُ عملَ العقل البشريِّ وتصوغ فهمه للعالم (المترجم).

"ليلة واحدة أمضَتْها في فندق سيِّئ" (على حدِّ تعبير القدِّيسة تيريزا الأڤيليَّة [St. Teresa Avila] كما رُوِي عنها).

لسان حالُ يسوع المسيح: "أنا ربُّ العيد. آتي في النهاية ومعي الفرح. لهذا كانت معجزتي الأولى أن أرسمَ الضحكةَ على وُجوه الجميع".

تخبرنا هذه المعجزةُ بما أتانا به يسوع. لكن لماذا كان عليه أن يأتيَنا بهذا الفرح؟ فلنتأمَّل تفصيلةً أخرى من تفاصيل هذه المعجزة. إنَّه سيُنقذ العروسَين من هذا الموقف المحرج، لكن كيف سيفعل ذلك؟ بأن يملأ أجرانًا كان يستخدمُها اليهود في عمليَّات التطهير الطقسيّ. ربَّما تعلم أنَّ اليهوديَّة، كما يصوِّرها لنا العهد القديم، تحوي عددًا هائلًا من الطقوس والتوجيهات، وقد تطلَّبت جميعًا العديد من أشكال "الاغتسال" والتطهير المتنوِّعة، والتي تشير إلى احتياجنا الروحيّ. وأكَّد هذا الاغتسال بوضوح على فكرة أنَّ الله قدُّوس وكامل بينما نحن ناقصون. ولكي ندخلُ في علاقةٍ بالله لا بدَّ من وجود كفَّارةٍ وتطهير وعفوٍ من جانبه. ولا يمكننا بكلِّ بساطةٍ أن نقتربَ مباشرةً من محضره. لذا كان لدى اليهود العديد من طقوس التطهير التي تسبق الذبائح الدمويَّة، وكانت تلك وظيفةَ الأجران.

وعلينا هنا أن نتذكَّر أنَّ نفادَ الخمر كان أمرًا محرجًا جدًّا. ولك أن تتخيَّل شكلَ المهانة التي يمكن أن تتسبَّب فيها عندما تخذل أسرتك في ثقافةٍ عِمادها مفهومَي العار والشرف. نحن لا نعي جيِّدًا هذه الطريقة في التفكير في العالم الغربيِّ الذي يقوم على الفرديَّة. لكنَّ هذين الشابَّين (العروسَين) كانا في مواجهة شكلٍ من أشكال العار الاجتماعيِّ المختلط بالشُّعور بالذنب. غير

أنَّ يسوع المسيح أنقذَ الجميع من ذلك كلِّه. وعندما استخدم يسوع الأجران التي كانت تُستخدَم عادةً في التطهير الطقسيّ، كان يبعث برسالةٍ مفادها أنَّه أتى ليُتمِّم بالفعل ما كانت تشيرُ إليه الوصايا الطقسيَّة والوصايا الخاصَّة بتقديم الذبائح في العهد القديم. لكن كيف حدث ذلك؟

تناولتُ في الفصل الثاني فكرة الخطيَّة. وأعلمُ أنَّ كلمة "خطيَّة" تسبِّبُ الإزعاج، وأنَّ الكثيرين يديرون وُجوههم عندما يتحدَّث واعظ بشأنها. ولكنَّنا لا نستطيع استيعاب الفرح الذي يأتينا به يسوع دون أن نفهمَ الخطيَّة. علينا أن نفهمَ أنَّ الخطيَّة وصمَتْنا، ولا بدَّ لنا من تطهير، وأنَّ الذنبَ والعارَ لصيقان بنا ونحتاج إلى النجاة منهما. وعلينا أن نحذرَ هنا من تصديق تلك الخدعة القائلة إنَّه لا وجودَ للخطيَّة. فلأخاطبْكَ مباشرةً وعلى نحوٍ شخصيّ. أنت مُدركٌ بالفعل في أعماقك أنَّ هناك خطأ ما فيك. لماذا تجاهِدُ بشدَّةٍ في مواجهة هذا الخطأ؟ ولماذا تحاولُ إصلاح حالك طَوال الوقت؟ ولماذا تقلق كثيرًا بشأن صورتِكَ أمام الآخرين؟ أنت تفعل كلَّ ذلك لأنَّك تعلمُ أنَّ هناك شيئًا ما ليس في محلِّه، وأنت تجتهدُ لتتطهَّر من هذا الأمر، وتُظهِرَ نفسَك في صورة صحيحة، محاولًا تغطية هذا الأمر.

هل تذكرُ الجزء الأوَّل من فيلم روكي (Rocky)؟ وتلك اللحظة قبل المباراة المرتَقَبة مع ملاكم الوزن الثقيل أبولو كريد (Apollo Creed)، والتي يستلقي فيها روكي بجانب صديقته أدريان (Adrian) ليقولَ لها إنَّه لا يحتاجُ فعلًا إلى الفوز بهذه المباراة، بل كلُّ ما يحتاجُ إليه فقط هو أن يظلَّ واقفًا على قدمَيه حتَّى الجولة الأخيرة. ويشرح روكي ذلك قائلًا:

"كلُّ ما أرغب فيه هو أن أُبرهن شيئًا- أنا لست فاشلًا... لا يهمُّ إنْ خسرت... لا يهمُّ إنْ فتحَ خصمي جرحًا في رأسي... رغبتي الوحيدة الآن هي أن أظلَّ واقفًا حتَّى الجولة الأخيرة- هذا كلُّ ما أرغب فيه. لم يتمكَّن أيُّ ملاكم من إكمال الجولات الخمس عشرة مع كريد. فإنْ أكملتُ كلَّ الجولات، وقُرِعَ الجرس بينما ما أزال واقفًا، فسأدرك حينئذٍ أنِّي لم أكُنْ مجرَّد أحدِ هؤلاء الفاشلين الذين يلتقيهم المرءُ كلَّ يوم".

فلأخبرك بالآتي: أحد الأسباب التي تجعلك تحلمُ كثيرًا وتجتهد لتتمكَّنَ من تحسين صورتك وتحسين إنجازاتك هو أنَّك تحاول أن تبرهنَ لنفسك وللجميع أيضًا، بل ربَّما لأشخاصٍ لم يعودوا موجودين الآن، أنَّك لستَ فاشلًا.

ربَّما تتذكَّر أيضًا هارولد أبراهامز في فيلم "عربات النار" (Chariots of Fire). ما الحافز الذي كان يدفعه ليكونَ الأفضل في سباق العدو لمسافة ١٠٠م؟ قبل نهاية السباق يقول هارولد: "سأرفع عيني وأنظر إلى هذا الطريق الذي يفصلني فيه عن الشخص الذي خلفي عشر ثوانٍ فقط- عشر ثوان تخلقُ مسوِّغًا لوجودي كلِّه". كلُّ ما يفعلُه هارولد هنا هو أنَّه يتحدَّث بصراحةٍ بأمرٍ لا يرغب الكثيرون منَّا في الحديث بشأنه بصراحة. نحن نرغب ليس فقط في إتقان ما نفعل؛ ولا نكتفي فقط بأن نُسهِمَ في مجتمعاتنا أو نترك بصمتنا، حيث إنَّنا نشعر- لا، بل نعرف- في أعماقنا بأنَّنا فاشلون بشكلٍ من الأشكال. إذا أردتَ تصويرًا من الكتاب المقدَّس لهذه الفكرة، فيمكنك الرجوع إلى سفر التكوين أصحاح ٣ عندما أكل آدم وحوَّاء من شجرة معرفة الخير والشَّرّ، وهربا

من وجه الله، وبعدها مباشرةً شعرا بأنَّهما عريانان. لقد شعرا بأنَّهما يحتاجان إلى التغطية، وأنَّه لا يمكنُهما أن يتركا الله نفسَه يراهما على حقيقتهما، لذا غطَّيا نفسَيهما بمَآزر من أوراق التين. فلتُفكِّر في احتماليَّة أن يكونَ نجاحُك في الحياة مجرَّد ورقةِ تينٍ كبيرة. ولتتأمَّل تلك الحقيقةَ القائلةَ إنَّك لن تستطيع في نهاية المطاف أن تُغطِّيَ ما تعلَمُ يقينًا أنَّه خطأ فيك.

إنِّي واثقٌ بأنَّنا جميعًا مدركون حاجتَنا لأن نتطهَّر، بما في ذلك أولئك الذين لا يستَسيغون فكرةَ الخطيَّة. قد يكون من المحرج أن أعبِّر عن هذه الفكرة بذلك الوضوح، لكنَّ الحقيقة تقول إنَّ فينا الكثير من التَّمركُز على الذات، والكثير من الخطيَّة ما يتجاوزُ قدرتَنا على التَّصديق. هناك الكثير في داخلك ممَّا تريد إنكارَه، بالمعنى اللاهوتيِّ والفلسفيّ. ربَّما تقول لي: "أنا مؤمن بالمذهب الإنسانيِّ الذي لا يجعَلُني أصدِّق أنَّ البشر بطبيعتهم أشرار". ولكنَّك إنْ عشتَ ما يكفي، وامتلكتَ ما يكفي من الأمانة مع نفسك، ستتيقَّنُ أنَّ قلبك يحمل في ثناياه أمورًا يمكنُها أن توجعَك، لا بل تصدمك، وعندها ستقول لنفسك: "لم أكن أعلم أنَّ في وُسعي أن أفعلَ ذلك كلَّه".

في الحقيقة، يمكنُ لكلٍّ منَّا أن يفعل ذلك. كان أدولف إيخمان (Adolf Eichmann) أحدَ القادة الألمان الذين نفَّذوا الهولوكوست. وبعد الحرب العالميَّة الثانية، هرب إلى أميركا الجنوبيَّة، حيث أُلقِيَ القبضُ عليه هناك عام ١٩٦٠م، واقتيدَ إلى الدولة العبريّة ليُحاكَم هناك. وبالفعل جرت محاكمة الرَّجُل وأُثبِتَت التُّهم الموجَّهة إليه ونُفِّذَ فيه حكم الإعدام. لكنْ وقعَتْ في أثناء المحاكمة حادثةٌ لافتةٌ للانتباه: فقد كان على المحكمة أن تجدَ شهودًا كانوا قد رأوا إيخمان يقترفُ

هذه الجرائم البشعة بحقِّ الإنسانيَّة والتي كان يُحاكم بسببها. كما احتاجت المحكمة لأنْ تعثُرَ على أناسٍ شاهدوه وهو يشارك في الأعمال الوحشيَّة التي ارتُكِبت في معسكرات الموت النازيَّة. وكان أحد الشهود الأساسيِّين في المحاكمة رجلٌ يُدعى يهيئيل دي-نور (Yehiel De-Nur) والذي ما إن تقدَّم إلى الشهادة؛ ووقعت عيناه على إيخمان من خلف القفص الزجاجيّ، حتَّى انهارَ ووقعَ على الأرض وهو ينتحب. وعندها عجَّت قاعة المحكمة بالصَّخب في مشهد دراميٍّ دفعَ القاضيَ لأن يقرعَ بمطرقته محاولًا استعادةَ النِّظام.

في وقتٍ لاحق حَلَّ دي-نور ضيفًا على المذيع المشهور مايك والاس (Mike Wallace) في برنامجه "ستُّون دقيقة" (60 Minutes). وفي البرنامج أطلعَ والاس دي-نور على شريط المحاكمة حيث ظهرَ وهو يسقط على الأرض، وسأله عن أسباب ما حدث: هل دهمَتْه الذكرياتُ المؤلمة، أم غلبَتْه كراهيته لإيخمان؟ وهل أيٌّ من تلك الأسباب هي ما أدَّى إلى فقدانه الوعي على هذا النحو؟ وجاءت إجابة دي-نور بالنَّفي. وبعدها أضافَ شيئًا ربَّما صدمَ والاس، وقد يُصيبُ الغربَ العَلمانيَّ كلَّه بالصدمة. فقد قال دي-نور إنَّه صُدِمَ عندما رأى أنَّ إيخمان لم يكن شيطانًا، بل مجرَّد إنسانٍ عاديّ. واسترسل قائلًا: "لقد خشيتُ على نفسي... وأدركتُ أنَّ في وُسعي أن أرتكبَ هذه الجرائم... مثله تمامًا".[١٢]

يمكنُكَ بالتَّأكيد أن تقول إنَّ النازيِّين أدنى مرتبةً من البشر، وإنَّهم لا يشبهوننا في شيء، وإنَّنا لا يمكن أن نفعلَ ما اقترفوه. لكنَّ وجهة النظر تلك تنطوي على مشكلات خَطِرة. إنَّ أكثر الأمور رُعبًا في هذا الفصل من فصول التاريخ لا يتعلَّق ببضعة أفرادٍ أشرارٍ رتَّبوا هذا الفعلَ الإجراميَّ ونفَّذوه، بل

يتعلَّق بتواطُؤ أعداد كبيرة من البشر في مجتمع كان يُنتج وقتها أفضل ما في العالم من بحثٍ وعلم وثقافة. وهذا يجعل من المُحال أن نَصِفَ هذه الحقبة بأنَّها صنيعةُ بضعةِ وحوشٍ. بالإضافة إلى ذلك، فإنَّنا بوصفنا للنَّازيِّين بأنَّهم "أدنى من البشر" أو بأنَّهم "لا يشبهوننا"، فإنَّنا نستند إلى المنطق نفسه الذي دفع النازيِّين إلى ارتكاب فظائعهم الوحشيَّة. هم أيضًا تصوَّروا أنَّ فئاتٍ معيَّنةً من المجتمع كانت أدنى من البشر وأقلَّ منهم. هل أنت على استعداد لأنْ تُنكرَ عليهم إنسانيَّتهم التي يشاركوننا إيَّاها؟ هل ترغب في التصرُّف كما تصرَّفوا هم؟ إنَّ الغالبيَّة الساحقة من النازيِّين وملايين البشر الذين كانوا تحت قيادتهم لم يكونوا وحوشًا بمخالب. شاهدَتِ الكاتبة حنَّة أرِنت (Hannah Arendt) المحاكمةَ وكتبتْ عنها تقريرًا لمجلَّة النيويوركر (The New Yorker) قالت فيه إنَّ إيخمان لم يبدُ مضطربًا نفسيًّا، ولم تظهر عليه أَمارات الكراهية أو الغضب، بل كان شخصًا عاديًّا سعى إلى النجاح الوظيفيّ. وصفت أرِنت هذا المشهد بأنَّه يكشفُ عن أنَّ "الشرَّ أمرٌ اعتياديّ". الشرُّ يرقدُ في قلوب البشر العاديِّين جدًّا.

لذا فمن الإخلاص أن يُقرَّ المرء بالقول: "بشكل من الأشكال، أنا لا أختلف عن أولئك الذين ارتكَبوا أعمالًا مُفزعة. لقد خُلِقتُ من المادَّة ذاتها التي خُلِقوا منها. لا بدَّ أنَّ هناك شيئًا ما في أعماقي يمكن أن تصدر عنه هذه الوحشيَّة المفرِطة وتلك الأنانيَّة التي أودُّ أن أغضَّ الطرف عنها". أمَّا يسوع فهو يعلَمُ بالتَّأكيد بوُجود هذا الشرِّ داخلي. حيث يقول الكتاب: "آمنَ كثيرون باسْمه. لكنَّ يسوع لم يأتمنهم على نفسه... لأنَّه علمَ ما كان في الإنسان" (يوحنَّا ٢: ٢٣-٢٥). وإنْ كان دورانُنا حول أنفسنا والخطيَّة

الساكنة فينا لم تؤدِّ إلى أعمال عنفٍ إجراميَّة- كما هي الحال مع معظمنا- لكنَّ ذلك تسبَّبَ في تعاسةٍ من حولنا، وحالَ بيننا وبين خدمة الله الذي خلقَنا، والذي نُدين له بكلِّ شيء. غير أنَّ يسوعَ أتى ليغسلَنا من كلِّ ذلك، ويطهِّرَنا من كلِّ خرابنا الروحيّ.

لكنْ كيف استطاع يسوع أن يُتمِّم هذا الشفاء، وذلك التطهير والغفران؟ وهنا نأتي إلى جوهر القصَّة التي وردت في إنجيل يوحنَّا. أخبرَتِ الطوباويَّة مريَم يسوعَ أنَّ الخمرَ نفدَت، ومن الوارد أنَّها أخبرتْ آخرين بذلك أيضًا، لكنَّ احتمالَ ذلك ضئيل. ربَّما لم تكن تعلمُ الطوباويَّة مريم تمامًا هُويَّة يسوع، لكنَّها على يقين بأنَّه إنسان غير عاديّ. إنَّها تتذكَّر دونَ شكٍّ ما قاله لها الملاك. وكيف لها أن تنسى ذلك؟ كما أنَّنا لا نعلم الكثير عمَّا سمعته ورأته من يسوع منذ ولادته.[١٣]

وعندما تُطلعُ العذراء مريَم يسوعَ على المشكلة يقول لها: "ما لي ولكِ يا امرأة؟" ربَّما يبدو ذلك أسلوبًا قاسيًا في مخاطبة الأمّ. مع فِقرة كتلك، أحيانًا ما لا تُصيبُ الترجمات، وهنا يحتاج المرء إلى مراجعة النص في لغته الأصليَّة. ولكنْ في هذه الحالة سيُخبرُك المفسِّرون أيضًا أنَّ الطريقةَ التي خاطبَ بها يسوعُ أمَّه كانت قاسية على نحوٍ استثنائيّ، لا سيَّما في مجتمعٍ كهذا يُولي أهمِّيَّة كبرى للعائلة. ما الذي يحدُثُ هنا؟ نعلمُ من أحداث الأناجيل أنَّ يسوعَ ليس الشخصيَّةَ التي يُثارُ غضبُها بسهولة؛ وهو لا يقول شيئًا يندمُ عليه لاحقًا. حتَّى عندما يتعرَّضُ للتَّعذيب لا يتفوَّه بتاتًا بكلمةٍ غاضبةٍ أو قاسية؛ ومن ثمَّ فلَيسَت للموقفِ هنا علاقةٌ بحالةٍ مزاجيَّة سيِّئة. هناك أمرٌ ما كان يشغلُه، وهو يُطلعنا عليه في الحديث نفسه عندما قال: "لم تأتِ ساعتي بعد".

إنْ قرأتَ إنجيل يوحنَّا بتَدقيق، ستكتشفُ أنَّ يسوع يُشيرُ مرارًا إلى "ساعته"، وفي كلِّ مرَّة كان يقصدُ موتَه. ساعته هي اللحظة التي يُسلِم فيها الرُّوحَ على الصليب. والآن بعد أن عرفتَ ذلك، هل ترى عدم الاتِّساق في هذا الحوار؟

فلنتَخيَّلِ الحوار ثانيةً. تأتي الطوباويَّة مريَم إلى يسوع ولسانُ حالها: "يا للكارثة، لقد نفدَ خمرهم". ووَفقًا لنَصِّ الإنجيل، لسانُ حال يسوع: "لماذا تخبريني بذلك؟ إنَّ لحظةَ موتي لم تأتِ بعد". ما معنى هذا؟

من غير المحتمل تمامًا أن تكونَ مريم العذراء على درايةٍ بمعنى "الساعة". وكلُّ ما أدركَتْه وقتَها أنَّ ردَّ فعل ابنها على عبارتها البسيطة كان عاطفيًّا وحادًّا وغامضًا، وربَّما جارحًا إلى حدٍّ ما. ومع ذلك، فهي لم تجادل، ولم تسأله أن يُفسِّر كلامَه، بل لم تتركه وهي مستاءة كما هي الحال مع الكثير من الأهل. فهي تتذكَّر فقط ما قالَتْه الملائكةُ لها، ومن ثمَّ تتَّجه إلى الخدَّام القائمين على خدمة ضيوف العرس لتقولَ لهم: "كلَّ ما قال لكم فافعلوه".

لكنْ، مالذي كان يفكِّرُ فيه يسوع في تلك اللحظة؟ لماذا يربطُ بين طلبٍ بسيطٍ لتوفير الخمر وساعة موته؟ حسنًا، فَكِّر إذًا في الإشارة الرمزيَّة. ستصيرُ هذه المعجزةُ عندَه علامةً على ما أتى هو ليتمِّمه. ما الذي ترمز إليه الخمرَ عند يسوع؟ ما الأمر الغائب عن المشهد والذي من دونه لا يمكن جَعلُ العار والخزي يصيران فرحًا؟ نحن الآن نَعِي ذلك بواسطة ما فعله يسوع عندما صنع الخمر في أجران التطهير.

والآن يمكنك أن ترى أنَّه عندما ذكرَ يسوع هذه العبارة المبهَمة، فإنَّه كان يتجاوزُ ببصيرته أمَّه والعروسَين ومشهدَ العرس كلَّه. في تلك اللحظة كان يرى

شيئًا آخر. كان هذا ما يجول في خلده: "نعم، في وُسعي أن أجلبَ أفراحَ الاحتفال إلى هذا العالم، وفي وُسعي أن أطهِّر البشريَّة من ذنبِها وعارِها. لقد أتيتُ إلى هذا العالم حاملًا معي الفرح، ولكنْ لا تنسَي يا أمِّي أنَّ عليَّ أن أموت حتَّى أتمِّم ذلك".

في الواقع، ظنِّي أنَّ كثيرًا من الأفكار تزاحَمَتْ في رأسه. في العهد القديم، يكشفُ لنا الله أنَّه لا يريد أن تكونَ علاقتنا به مجرَّد علاقةِ ملكٍ برعيَّته، لكنَّه يريد أن يرتبط بنا ارتباطَ العريسِ بعروسه. إنَّه يتوق إلى علاقةِ حبٍّ بيننا وبينه، تبلغ في عمقها حدَّ علاقة الحبِّ ما بين الرجل وزوجته. لذا يقدِّم الله نفسه مِرارًا في العهد القديم بوصفه عريسَ شعبه. وفي العهد الجديد يُطلعُنا إنجيل يوحنَّا على لحظةٍ يوجِّهُ فيها اللوم إلى التلاميذ لأنَّهم لم يصوموا، وهنا يقول يسوع: "لماذا يصوم أصدقاء العريس، والعريس ما زال معهم؟" هل انتبهتَ إلى ذلك؟ يشيرُ يسوعُ إلى نفسه بوصفه العريس! وهو يفعل ذلك وهو مدركٌ تمامًا أنَّ الخالقَ وحدَه- إلهَ هذا الكون- بحسب نصِّ التوراة هو عريس شعبه. وكونَ يوحنَّا إناءً من آنية الوحي، فإنَّه يستفيضُ في تَناوُل هذه الفكرة في كتاباته. ففي سفر الرؤيا مثلًا في نهاية العهد الجديد يرسم يوحنَّا نهايةَ كلِّ شيء على هذا النحو: "وأنا يوحنَّا رأيتُ المدينة المقدَّسة أورشليم الجديدة نازلةً من السماء من عند الله مهيَّأةً كعروسٍ مُزيَّنة لرجلها" (يوحنَّا ٢١: ٢). "وقالَ لي [الملاك] «اكتب طوبى للمدعوِّين إلى عشاء عُرس الخروف!»" بكلماتٍ أخرى فإنَّ نهاية الزمن ستَشهدُ العرسَ الذي لن يُضاهيَه عرسٌ في الزمان. ولن يكونَ هذا الاحتفال مجرَّد وليمة، بل سيكون حفلَ عرسٍ يُحتفَل فيه باللحظة التي طالَ

انتظارها- لحظةِ الاقتران الأبديِّ بين الأحبَّاء. وعند هذه اللحظة ينتهي الزمان؛ فهذا ما جاء يسوع ليُتمِّمَه. وعند هذه اللحظة ستقترن العروس- نحن الذين أحبَّهم يسوع- به إلى الأبد. وأقصى حالات الفرح التي يمكن أن يختبرها عروسان على الأرض ما هي إلَّا لمحةٌ باهتةٌ وصدًى خافتٌ لهذا الفرح الكونيِّ الذي ينتظرنا في المستقبل.

كان يسوع مُشبَّعًا تمامًا بنصوص العهد القديم، وكان مدركًا تمامًا دَورَه بوصفه العريسَ الحقيقيّ، وإن كان في تلك اللحظة يرى العمل الذي ينتظره قبل إتمام هذا الدَّور. ما الذي يفكِّر فيه الشخص العازب عندما يحضرُ الأعراس؟ لماذا يجلس في العرس وفي عينَيه هذه النظرة العجيبة التي تأخذه بعيدًا عن اللحظة؟ إنَّ هذا الشخص يتطلَّعُ إلى ما هو أبعد من العروسَين الماثلَين أمام ناظرَيه ليفكِّر في عرسه هو، والكيفيَّة التي سيكون بها. وربَّما هذا ما كان يجول في خلدِ يسوع. لعلَّه كان يفكِّر في عرسه هو بشعورٍ يجمعُ ما بين الفرح الذي لا يحدُّه شيء والرهبة الكاملة في آنٍ معًا. والآن فلأُعِدْ صياغة ما قاله يسوع في هذا الموقف: "يا أمِّي، حتَّى أصل إلى اللحظة التي أضمُّ فيها شعبي إلى حضني، عليَّ أن أموت. ولكي يشربَ شعبي من كأس الأفراح وبركات الاحتفال، عليَّ أن أتجرَّع كأسَ العدل والعقوبة والموت".

وهنا نجدُ الإجابةَ عن هذا السؤال الأخير: كيف سيأتينا يسوع بالأفراح؟ بأن يتنازلَ هو عن كلِّ أفراحه، عندما يُخلي نفسَه تاركًا مجدَه مع الآب، وعندما يعيشُ حياةً يتعرَّض فيها لسوء الفهم من الآخرين، وعندما يذهب إلى الصليب ويموت عوضًا عنَّا.

لسانُ حال كثيرٍ من الناس: "لا أحبُّ الكنيسةَ ولا يروقُني التعليم المسيحيّ، ولا أومنُ بالجحيم ولا بغضب الله ولا بالتكفير بالدَّم، وما إلى هذه العقائد. ولكنّي أحبُّ يسوع فعلًا. أنظرُ إلى الكيفيَّة التي يحبُّ بها الناس، والكيفيَّة التي يعطيهم بها. لو أنَّ البشرَ استطاعوا فقط أن يتشبَّهوا بيسوع واتَّبعوا تعاليمه، لصار العالم في حالٍ أفضل". ينطوي هذا التصوُّر- رغم شيوعه- على الكثير من المشكلات العميقة. إنْ كان يسوع يفكِّر في موته في أثناء حفل عرس، فهذا يعني أنَّه ربَّما فكَّرَ في هذه اللحظة على الدوام. لم يأتِنا يسوع ليُقدِّمَ إلينا مثالًا جيِّدًا. وأنا شخصيًّا سعيدٌ لأنَّ ذلك لم يكن مهمَّته الأساسيَّة. هل تعرف لماذا أنا سعيد؟ لأنَّه شخصٌ غاية في الكمال! هو من الكمال بحيث إنَّك لو فكَّرت فيه كمثالٍ يُحتذى، ستنطرح أرضًا. إنَّ كلَّ مَن يفكِّر بجدِّيَّة وبصورة فعليَّة في جَعْلِ يسوعَ نموذجًا لحياته، مع التِفاته إلى تفاصيل شخصيَّته وسلوكه، فسيُصاب حتمًا باليأس. إنَّه شخصٌ بعيدٌ عن متناول أيدينا إلى أبعد حدّ. وأن تُقارن بينك وبينه لن يؤدِّي بك إلَّا إلى تحويل تطلُّعاتك الأصيلة للسموِّ الأخلاقيِّ إلى حالةٍ من حالات اليأس.

لذا فإنَّنا نرى هنا أنَّ يسوعَ لم يأتِ ليُعلِّمَنا الكيفيَّة التي نُخلِّص بها نفوسنا، بل أتى ليخلِّصنا بنفسه. لقد أتى ليموتَ ويسفك دمه، وليشربَ كأس اللعنة والعقوبة، حتَّى نستطيع نحن أن نتناولَ كأسَ البركة والحبّ.

ومن شأن هذه الأهمِّيَّة المحوريَّة لموت يسوع أن تمنحنا بصيرةً لا غنى عنها تمكِّننا من فهم الأناجيل. الفكرة الأخرى المساوية لها في الأهمِّيَّة هي الغرضُ من موت يسوع، أي البدليَّة. فعندما اختار يسوع الأجران التي كانت تستخدم

في طقوس التطهير ليتمِّم بها معجزته، فقد كان يوجِّه انتباهَنا إلى أمرٍ تشرحُه رسالة العبرانيِّين باستفاضة أكبر: أنَّ يسوع أكملَ نظامَ الذبائح الذي يقوم عليه العهدُ القديم كلُّه. إنَّ نظام العبادة في العهد القديم الذي يقوم على خيمة الاجتماع والهيكل والحجاب والحِجال الداخليَّة المسمَّاة بقدس الأقداس- هو نظامٌ يدورُ حول مركَز هو الذبيحةُ ودمُها. لماذا؟ لأنِّي خاطئ والخطيَّة تستحقُّ العقاب. لا بدَّ أن يكون هناك شيءٌ يُكفِّر عن خطيَّتي- شيء يموتُ بدلًا منِّي. والسؤال الذي كان يمكن طرحُه طَوال هذه القرون التي قُدِّمت فيها ذبائح حيوانيَّة هو: كيف يمكن للحَمل أن يأخذَ مكانَ الإنسان؟ لكنَّنا نتذكَّر هنا أنَّ يوحنَّا المعمدان قال عندما رأى يسوعَ أوَّلَ مرَّة: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطيَّة العالم". معنى ذلك أنَّ يوحنَّا أدرك أنَّ كلَّ هذه الحملان الصغيرة التي جرى تقديمها ما كانت لتَرفعَ عنَّا خطايانا. لكنَّها في واقع الأمر كانت تشير إلى هذا الشخص الطاهر، الخالي من كلِّ عيب، يسوع الذي يستطيع وحدَه أن يرفع خطايانا. لقد أتى يسوعُ المسيح ليموتَ بدلًا منَّا ويحمل عنَّا عقوبتنا.

وهنا يأتي ردُّ العديد من الناس على هذا النحو: "هذا أمرٌ بشع؛ فأنتم تَرجِعون بنا إلى آلهة الأزمنة القديمة المتعطِّشة إلى الدِّماء". انظرْ مثلًا إلى ملحمة الإلياذة (Ilyad) الإغريقيَّة، فتجدَ شخصيَّة مثل أغاممنون (Agamemnon) وهو يحاول الوصول إلى طروادة، لكنَّه يفشل، فما كان منه إلَّا أن قدَّم ابنته أُضحيةً إلى الآلهة. وبعدما فعل ذلك، تقول له الآلهة: "حسنًا، هذا سيخفِّف من غضبنا عليك يا أغاممنون. والآن سنُعينُك بالرِّيح المواتية التي تصلُ بكَ إلى طروادة". أهذا يشبُه ما يتحدَّث به الكتاب المقدَّس؟

عندما نسمع في وقتنا الحاضر أنَّ يسوعَ المسيح جاء إلى عالمنا ومات؛ وأنَّ أتباعه يستَجلِبون غضب الله على كلِّ مَن لا يؤمن بذلك، فإنَّ ما يتجسَّد أمامنا هو صورة لواحد من تلك الأديان البدائيَّة التي تقوم على الذَّبح والتضحية. غير أنَّ هذا التصوُّر يُسيئُ فَهْمَ رسالة الإنجيل تمامًا. إنْ كان يسوع المسيح هو فعلًا الشخصَ الذي يقول إنَّه هو- خالق هذا الكون الذي أتانا مُتجسِّدًا- فمعنى ذلك أنَّ مَن عُلِّقَ على الصليب هو الله نفسه الذي جاءَ إلى أرضنا ليدفعَ بحياته مستحقَّات خطايانا؛ فهو لم يدَعْنا ندفعُ مديونيَّتنا؛ حيث إنَّه دفعَها بذاته. ويسمِّي البعض ذلك "البدليَّة الإلهيَّة الذاتيَّة" (The self-substitution of God).

هل تجد هذه الفكرة مُنافيةً للمنطق؟ تأمَّلْ هذه الفكرةَ في ضَوء خبرتك مع مسألة الغفران. إذا دفع أحدُهم واحدًا من مصابيحك الثمينة وكسرَها، ثمَّ قال لك: "أعتذر عن هذا. فلأدفعْ لك ثمنَه، سأستَبدلُ به واحدًا آخرَ جديدًا"، فإنَّك في هذه الحالة أمام خِيارَين: إمَّا أن تقول له: "أجل! أكون شاكرًا لو فعلتَ ذلك"، وهنا تجعله يدفعُ ثمنَ ما أتلفَه، وإمَّا في وُسعك أيضًا أن تقول: "لا تقلق بشأنه"، وفي هذه الحالة تكونُ قرَّرتَ مسامَحتَه. لكنْ حتَّى لو سامحتَ هذا الشخص، فإنَّ الأمرَ لم ينتَهِ عند هذا الحدّ؛ فإمَّا أن تستبدل أنتَ بالمصباح آخرَ جديدًا، وإمَّا أن تستغني عنه. معنى ذلك هو أنَّ أحدكُما يجب أن يتحمَّل تكلفةَ هذا المصباح. لا تختفي الغرامةُ والتكلفةُ في كلِّ الأحوال؛ إذ إنَّ شخصًا ما عليه أن يسدِّدَ التكلفة. إنْ كنتَ تملك أموالًا كثيرة، فقد يسهل عليكَ أن تقولَ لهذا الشخص: "لا تقلق! هذا لا يساوي شيئًا يُذكَرُ عندي". ولكنْ إنْ لم يكن لديك الكثير من المال، وهذا المصباح كان ثمينًا تناقَلَتْه

أسرتُك من جيلٍ إلى جيل، فقد يصعب عليك أن تردَّ بهذه الإجابة.

يمكن لنا أن نزيدَ هذا السيناريو السابق تعقيدًا. إنْ أساء شخصٌ ما إلى سُمعتك، وتسبَّب فعلًا في جراح بالغة لك، فما الذي ستفعله؟ أحدُ البدائل التي يمكن أن تردَّ بها على الإساءة هو الذهاب إلى الناس الذين شوَّه هذا الشخصُ سمعتَك عندهم، وتشوِّهَ بِدَورِك سمعتَه هو عندهم إتمامًا للقَّول: "العين بالعين، والسنُّ بالسِّنّ". بمعنى آخر، أنت تجعل هذا الشخص يدفعُ ثمنَ الخطأ الذي اقترفَه. البديل الآخر هو أن تغفرَ له. وإنْ فعلتَ ذلك، فأنتَ مَن يتحمَّلُ هذا الدَّين. وهنا أنت تفقدُ كرامتَك أمام بعض الناس، ومع ذلك تتنازل عن حقِّك في تشويه سمعة هذا الشخص. باختصار، فإنَّ غفرانك سيتسبَّبَ لك في ألم؛ لذا فإنَّك لا يمكن أن تغفرَ خطأ ما دون أن تدفعَ أنتَ ثمنَ هذا الخطأ.

وهذا الموقف يمثِّل انعكاسًا باهتًا لطبيعة الله؛ إذ لا يمكنُ لله القدُّوس والعادل أن ينظرَ إلينا من سمائه ويقول: "انظروا إلى أنفسكم بينما تُفسِدون حياةَ أحدكم الآخر، وتخرِّبون خليقتي، وتدمِّرون أحدكم الآخر؛ ولكنِّي سأغَضُّ الطرْفَ عن هذا كلِّه". لا يمكن لله أن يتغافلَ عن ثمن الخطأ وتَبِعاته، وهذا لا يعني أنَّه لا يحبُّك محبَّةً كافية؛ فالعكس هو الصحيح: الله كامل القداسة إلى حدٍّ جعلَه يأتينا متجسِّدًا في يسوع المسيح ليموتَ مُسدِّدًا الدَّين، ولكنَّه أيضًا كامل المحبَّة إلى حدٍّ جعلَه سعيدًا بأن يأتيَ ليموتَ عنك.

والآن قلأخاطِبْ ضميرَك. هل هناك ما يُسيئ في فكرة الذبيحة البدليَّة؟ هل هناك خطأ في جوهر هذه الفكرة؟ لا أظنُّ ذلك. ليس في الوجود كلِّه قصَّة يمكن

أن تأسرَ المشاعر أكثرَ من قصَّة شخص تنازلَ طواعيَّةً عن شيء غاية في الأهمِّيَّة عنده لتَحسين وضع شخصٍ آخر. ليس من فرحٍ يقدرُ أن يُذيبَ قلبك أكثر من الفرح الناجم عن معرفتك بشخصٍ ضحَّى من أجلك. في رواية تشارلز ديكنز (Charles Dickens) "**قصَّة مدينتَين**" *(A Tale of Two Cities)*، نجد شخصيَّتَين من الرجال هما سيدني كارتون (Sydney Carton) وتشارلز دارناي (Charles Darnay) اللذان يحبَّان امرأةً واحدة، ولكنَّها تتزوَّج تشارلز. في نهاية الرواية، يُلقى القبضُ على تشارلز ويوضَع في زنزانةٍ انتظارًا لإعدامه في اليوم التالي. زوجٌ وأبٌ سيَذهب إلى الإعدام في غضون أربع وعشرين ساعة. وهنا يظهر سيدني- وهو يُشبِه في ملامحه تشارلز- الذي تسلَّل إلى السجن ليطلقَ سراحَ غريمه السابق، ويرتديَ ملابسه ويبقى في الزنزانة في انتظار الموت عوضًا عنه.

داخل السجن نلتقي شخصيَّة نسائيَّةً في طريقها إلى المقصلة. تقترب هذه السجينة من الشخص الذي ظنَّته تشارلز، وتطلب منه أن يشجِّعَها وهي في طريقها إلى الموت، وفجأة تدرك أنَّ الشخصَ الواقف أمامها ليس تشارلز. وهنا تتَّسع عيناها وتهمسُ في أذن سيدني قائلةً: "وهل ستَموتُ نيابةً عنه؟" فما كان من سيدني إلَّا أن ردَّ عليها محاولًا إسكاتها، قائلًا: "وبالنيابة عن زوجته وطفلته". وعند هذه اللحظة أمسكت هذه السيِّدة بيَد الرجل الذي طلبت منه التشجيع منذ لحظات، وهي تقول: "أيسعُني أن أمسك بهذه اليد الجريئة أيُّها الغريب؟" لقد استمدَّت هذه المرأة دفئًا أمام برودة الموت وتشدَّدت بمجرَّد فكرة الفداء البدليّ، حتَّى لو لم تكن من أجلها. كيف يمكنك أنت أن تتغيَّر لو علمتَ وآمنتَ بأنَّ يسوع المسيح قدَّم نفسه فداء بدلًا منكَ أنت؟ هذا ما

جاء يسوع ليقدِّمَه إلى الجميع، وهذه هي الطريقة التي استخدمَها ليقدِّم ذلك. إنَّ يسوع بفدائه البديلِيِّ لن يعملَ فقط على تحريرك من الشعور بالذَّنب، بل سيجهِّزُك أيضًا ليضمَّك بين ذراعَيه في نهاية الزمان- يضمَّك إلى عروسه ويغمرَك بمحبَّته ويحضِرُكَ إلى نفسه كاملًا.

فلأقدِّم إليك الآن فكرتَين عمليَّتَين. في كلِّ مرَّة يقدِّم إلينا الله صورة مجازيَّة، فإنَّه يساعدنا على رؤيته بوضوح أكبر، كما يكشف لنا أيضًا بهذه الصورة كيف يرانا هو. إن كان هو كالعريس لنا، فهذا معناه أنَّه يجد فرحته فينا إن سلَّمنا له حياتنا بالإيمان. في كلِّ مرَّة يختار الله صورة مجازيَّة له، فإنَّه يريد بها أن يقول شيئًا عنَّا. هل تعلم كيف تبدو العروس في عينَي العريس وهي تتقدَّم نحوه بينما هو واقفٌ بانتظارها في الأمام في الكنيسة؟ تأتيه العروس وهي ترتدي أجملَ الثياب وأبدع الحُلِيّ. وعندما يقع ببصره عليها يفيض قلبه فرحًا بها، ويتمنَّى لو يستطيع أن يعطيَها العالمَ كلَّه. ما الذي يجعل يسوع يستخدمُ صورةً بلاغيَّة كهذه، مستَدعِيًا بها إلى الأذهان هذه الخبرة الإنسانيَّة البالغة التأثير؟ هل يعني هذا أنَّه يحبُّ خاصَّته على هذا النحو؟ وأنَّ قلبه يطيبُ بكَ فرحًا بهذا القدر؟ أجل، هو كذلك بالفعل. وما الحال التي يمكن أن تتغيَّر إليها حياتك لو عشتَ كلَّ لحظة فيها وأنت تعي ذلك؟

فكرتي الثانية لك هي أن تتعاملَ مع الحاضر بتطلُّعك إلى المستقبل. قبل سنوات خلَت، استمعتُ إلى عظة من إدموند كلوني (Edmund Clowney) حول هذا النصِّ نفسه، وكان يتأمَّلُ فيها في اللحظة التي كان الجميع فيها يستَمتِعون بالفرح المصاحب للاحتفال، ويشربون الخمر، بينما كان يسوع يذوقُ بمعنى من

المعاني مرارة الموت الذي كان ينتظره. لكنْ علينا ألَّا نفعل ذلك. صاغ الدكتور كلوني فكرته كما يلي: "لقد جلس يسوع وسط أفراح العرس وهو يتجرَّع كأس الحزن المقبل عليه، حتَّى نتمكَّن أنا وأنت ممَّن آمنوا به اليوم من الجلوس وسط أحزان العالم ونحن نشرب كؤوس الفرح". لنا كلُّ السلام والطمأنينة عندما نفكِّر في الفرح الآتي، في عرس عشاء الخروف. في كلِّ مرَّةٍ تشترك فيها في عشاء الرَّبّ، تختبرُ عربونَ أفراح الاحتفال التي لا يُعبَّر عنها. حتَّى لو كنتَ الآن وسط الأحزان، استَمتعْ برَشفةٍ من الأفراح الآتية. ليس هناك إلَّا حبٌّ واحد، واحتفال واحد، وشيء واحد يمكنه أن يمنحَ قلبك ما يحتاج إليه، وكلُّ هذه في انتظارك، وإدراكك هذه الحقائق يجعلك تملك شيئًا يمكِّنك من مواجهة أيِّ تحدٍّ.

الفصل الخامس

أوَّل مسيحيَّة

رأينا في الفصل السابق كيف استطاع يسوع أن يصحِّح الأوضاع الخاطئة في العالم. وفي هذا الفصل سنتأمَّل في الكيفيَّة التي يمكن بها أن نتجاوب مع ما صنعه، وهو ما يأتي بنا إلى الموضوع الجوهريِّ الذي تتأسَّس عليه علاقتنا بالسيِّد المسيح، ألا وهو الإيمان. تؤكِّد كلُّ صفحة من صفحات الكتاب المقدَّس على أنَّ كلَّ بصيرة وتعزية وموهبة يعطينا الله إيَّاها بالمسيح إنَّما نقبلها بالإيمان. إلَّا أنَّ هناك الكثير من الالتباس حول معنى الإيمان المسيحي. ولكي نفهم فهمًا أفضل هذا المفهوم المحوريّ، فلنتأمَّل في لقاء آخر بين يسوع المسيح وشخصيَّة من الشخصيَّات التي نجدها في إنجيل يوحنَّا:

"وفي أوَّلِ الأُسبوعِ جاءَتْ مَريَمُ المَجدَليَّةُ إلَى القَبرِ باكِرًا، والظَّلامُ باقٍ. فنَظَرَتِ الحَجَرَ مَرفوعًا عن القَبرِ. فرَكَضَتْ وجاءَتْ إلَى سِمعانَ بُطرُسَ وإلَى التِّلميذِ الآخَرِ الذي كانَ

يَسوعُ يُحِبُّهُ، وقالَتْ لهُما: «أخَذوا السَّيِّدَ مِنَ القَبرِ، ولَسنا نَعلَمُ أين وضَعوهُ!».

فخرجَ بُطرُسُ والتِّلميذُ الآخَرُ وأتَيا إلَى القَبرِ. وكانَ الاثنانِ يَركُضانِ مَعًا. فسبَقَ التِّلميذُ الآخَرُ بُطرُسَ وجاءَ أوَّلًا إلَى القَبرِ.

وانحَنَى فنَظَرَ الأكفانَ مَوْضوعَةً، ولكنهُ لَمْ يَدخُلْ.

ثُمَّ جاءَ سِمعانُ بُطرُسُ يتبَعُهُ، ودَخَلَ القَبرَ ونَظَرَ الأكفانَ مَوْضوعَةً، والمِنديلَ الّذي كانَ علَى رأسِهِ ليس مَوْضوعًا مع الأكفانِ، بل مَلفوفًا في مَوْضِعٍ وحدَهُ.

فحينَئذٍ دَخَلَ أيضًا التِّلميذُ الآخَرُ الّذي جاءَ أوَّلًا إلَى القَبرِ، ورأى فآمَنَ، لأنَّهُمْ لَمْ يكونوا بَعدُ يَعرِفونَ الكِتابَ: أنَّهُ يَنبَغي أنْ يَقومَ مِنَ الأمواتِ. فمَضَى التِّلميذانِ أيضًا إلَى مَوْضِعِهِما.

أمَّا مَريَمُ فكانتْ واقِفَةً عِندَ القَبرِ خارِجًا تبكي. وفيما هي تبكي انحَنَتْ إلَى القَبرِ، فنَظَرَتْ مَلاكَينِ بثيابٍ بيضٍ جالِسَينِ واحِدًا عِندَ الرأسِ والآخَرَ عِندَ الرِّجلَينِ، حَيثُ كانَ جَسَدُ يَسوعَ مَوْضوعًا.

فقالا لها: «يا امرأةُ، لماذا تبكينَ؟». قالَتْ لهُما: «إنَّهُم أخَذوا سيِّدي، ولَستُ أعلَمُ أين وضَعوهُ!».

ولَمَّا قالَتْ هذا التَفَتَتْ إلَى الوَراءِ، فنَظَرَتْ يَسوعَ واقِفًا، ولَمْ تعلَمْ أنَّهُ يَسوعُ.

قالَ لها يَسوعُ: «يا امرأةُ، لماذا تبكينَ؟ مَنْ تطلُبينَ؟».

فظَنَّتْ تِلكَ أنَّهُ البُستانيُّ، فقالَتْ لهُ: «يا سيِّدُ، إنْ كُنتَ

أنتَ قد حَمَلتَهُ فقُلْ لي أين وضَعتَهُ، وأنا آخُذُهُ».

قالَ لها يَسوعُ: «يا مَريَمُ».

فالتَفَتَتْ تِلكَ وقالَتْ لهُ: «رَبُّوني!» الذي تفسيرُهُ: يا مُعَلِّمُ.

قالَ لها يَسوعُ: «لا تلمِسيني لأنِّي لَمْ أصعَدْ بَعدُ إلَى أبي. ولكن اذهَبي إلَى إخوَتي وقولي لهُمْ: إنِّي أصعَدُ إلَى أبي وأبيكُمْ وإلهي وإلهِكُمْ».

فجاءَتْ مَريَمُ المَجدَليَّةُ وأخبَرَتِ التلاميذَ أنَّها رأتِ الرَّبَّ، وأنَّهُ قالَ لها هذا" (يوحنَّا ٢٠: ١-١٨).

نتعلَّم من الجزء الأوَّل من هذه الفقرة أنَّ الإيمان المسيحيّ مستحيل ومنطقيٌّ في الوقت نفسه. ماذا أقصد بذلك؟ لا أعني بذلك أنَّ الإيمان المسيحيّ يستحيل الحصول عليه على أيِّ شخص. ما أقصده هنا أنَّنا في حالتنا الراهنة بما فيها من نقصٍ وعوارٍ في الحساسيَّة الأخلاقيَّة والروحيَّة لا نملك داخلنا القدرة أن نظهر إيمانًا حقيقيًّا بالمسيح. ولذلك فالإيمان أمرٌ مستحيل على أيِّ شخص دون تدخُّل أو مساعدة من خارجه.

فلنتأمل هذه الفقرة ونرى كيف تقدِّم هذه الحقيقة. علينا أن نتذكَّر هنا أنَّ يسوع كان يخبر تلاميذه مرارًا كثيرة أنَّه سيموت ويقوم في اليوم الثالث. وهذا أمرٌ لافت للانتباه على وجه الخصوص في إنجيل مرقس. ففي الأصحاح الثامن من إنجيل مرقس يقول يسوع: "إنَّ ابن الإنسان... ينبغي أن يُقتل وبعد ثلاثة أيَّام يقوم". وفي الأصحاح ٩ من الإنجيل نفسه يقول: "إنَّ ابن الإنسان يُسَلَّم إلى أيدي الناس فيقتلونه، وبعد أن يُقتَل يقوم في اليوم الثالث".

ومرَّة أخرى يقول في الأصحاح ١٠: "وابن الإنسان يُسَلَّم إلى رؤساء الكهنة والكتبة... ويقتلونه، وفي اليوم الثالث يقوم". لقد كان ما قاله يسوع عن موته وقيامته معروفًا لدى الجميع حتَّى أنَّ أعداءه سمعوا به ووضعوا حارسًا على قبره (متَّى ٢٧: ٦٢-٦٦).

ورغم كلّ ذلك، نقرأ أنَّ مريم المجدليَّة بعدما ذهبت إلى قبر يسوع، ورأت الحجر وقد تدحرج، رجعت بسرعة لتقول: "لقد أخذوا الجسد". لا بدَّ أنَّ مريم سمعت ما قاله يسوع عن قيامته، مثلها مثل بقيَّة التلاميذ. لماذا إذًا عندما نظرت القبر فارغًا لم تقل حتَّى لنفسها: "نعم! لقد قال إنَّه سيقوم! هل يمكن أن يكون قد قام حقًّا؟" لا، لم يطرأ ذلك على ذهنها.

سأعود لاحقًا إلى الأسباب التي تجعل يهود القرن الأوَّل مقتنعين باستحالة القيامة وبعدم إمكانيَّة قيامة يسوع من الأموات. لكنّي الآن أودُّ التركيز على النقطة الأهمّ التي تبرزها لنا هذه القصة: أنَّ الإيمان بشخص المسيح وعمله أمرٌ لا يحدث بصورة طبيعيَّة لأيِّ أحد. بعض اللاهوتيين يصفون ذلك بأنَّه "عدم قدرة" من جانب الإنسان الطبيعيّ على إظهار هذا الإيمان. ربَّما تكون لديك بعض الدراية بأنَّ التيَّارات المسيحيَّة المختلفة تتبنَّى وجهات نظر متباينة إلى حدٍّ ما بشأن الحدِّ الذي يمكن أن تصل إليه قدرة الإنسان على التجاوب مع الله. لكنَّ كلَّ هذه التيَّارات تتَّفق في ما بينها على عجز الإنسان أن يحصل بقوَّته على الإيمان بيسوع المسيح الذي يمنحه الخلاص. ربَّما تُقدَّم لنا كلُّ الأدلَّة الدامغة على صحَّة المسيحيَّة، وتصلنا الرسالة بأوضح ما يكون، ومع ذلك فإنَّ في كلٍّ منَّا عمًى روحيًّا كامنًا فينا.

نحن عاجزون عن رؤية الحق، ولا نستطيع أن نمسك به ونخصّصه لأنفسنا. نحن هنا أمام مشهد في أعقاب حدث الفداء الأهمّ في تاريخ البشريّة، ذلك الحدث الذي كَسَّر الله فيه سلطان الموت والخطيّة بقيامة يسوع المسيح من بين الأموات. وكان هذا الحدث مصحوبًا بسنوات علَّم فيها يسوع بهذا الحدث وشرح معناه. ومع ذلك نجد أمامنا هنا مريم وهي تُحدِّق ببصرها في القبر الفارغ، دون أن تستطيع أن ترى هذا الحقَّ أو تستوعبه. الإيمان إذًا أمرٌ مستحيلٌ دون تدخُّل الله بنفسه.

كتب الفيلسوف الأميركيُّ البارز توماس ناجل (Thomas Nagel) كتابًا منذ بعض سنوات بعنوان "الكلمة الفصل" *(The Last Word)*، والذي تناول فيه علم المعرفة (أو الإپستمولوجيا) والذي يهتمُّ بدراسة الكيفيَّة التي نعرف بها ما نتَحَصَّل عليه من معرفة. يقول ناجل- الذي يصف نفسه بأنَّه ملحد عَلماني- إنَّ الإيمان بالله يجعل الناس يشعرون بالضغط العصبيِّ بسبب "الخوف الذي يبثُّه الدين". ويكتب ناجل عمَّا أسماه "الخوف من الدين" قائلًا: "لا أقصد الإشارة إلى تلك الخصومة المنطقيَّة تمامًا مع أيَّة ديانة معروفة أو مؤسَّسات دينيَّة بسبب أوجه الاعتراض في المعتقدات الأخلاقيَّة والسياسات الاجتماعيَّة والتأثير السياسيِّ التي ينادون بها". بعباراتٍ أخرى، يرى ناجل أنَّ لدى الناس الحقَّ أن يكرهوا الكنيسة بسبب ما تؤمن به وما تَسلُكه. ثمَّ يسترسل في كلامه ليقول: "إنَّما أتحدَّث هنا بأمر شيئ أكثر تَجذُّرًا فينا- وهو الخوف من الدين ذاته. أتحدَّث هنا من واقع تجربة؛ حيث إنِّي وقعت تحت التأثير المباشر لهذا الخوف". ثمَّ يختم ناجل فكرته بالقول:

"أريد أن يكون الإلحاد حقيقيًّا وصادقًا؛ إذ إنّي أشعر بعدم الراحة أمام حقيقة أنَّ بعضًا من أكثر الناس ذكاءً ومعرفةً هم مؤمنون بدينٍ ما. ليس الأمر مجرَّد أنّي لا أومن بوجود الله، وبالضرورة آمل أن أكون مُصِيبًا فيما اعتقدت. إنَّما ما أرجوه هو ألَّا يكون هناك إله! لا أرغب في أن يكونَ هناك إله؛ ولا رغبة لي في أن يكون الكون على هذا النحو. ظنّي أنَّ هذه المشكلة المتعلِّقة بالسيادة الكونيَّة ليست استثنائيَّة... ويدفعني فضولي لأن أتساءل إن كان هناك أحد لا يكترث فعلًا إن كان هناك إله أم لا".

يعرف الجميع أنَّ هناك من الأسباب ما هو عاطفيٌّ ونفسيٌّ للإيمان بالله. في حقيقة الأمر هناك العديد من المتشكِّكين ممَّن يرون أنَّ الإيمان بالله ليس سوى شكل مبالغ فيه من أشكال التلبية النفسيَّة للتمنِّيات. لكن من ناحيةٍ أخرى، نادرًا ما سمعت أحدًا يقول إنَّ هناك أيضًا من الأسباب العاطفيَّة والنفسيَّة الكثير لعدم الإيمان بالله. كيف يتأتَّى ذلك؟ إذا تأمَّلت كتابًا كالكتاب المقدَّس وأمعنت النظر في رسالة الإنجيل لأمكنك أن تكتشف بسهولة إن كانت هذه الرسالة حقيقيَّة؛ فمعنى ذلك أنَّك ستفقد بعضًا من التحكُّم في كيفيَّة إدارتك لحياتك لو آمنتَ بها. مَن يمكنه ادِّعاء الموضوعيَّة والحياد أمام هذه الفكرة؟ توماس ناجل يقرُّ بذلك بكلِّ أمانة. هو يعلم أنَّه لا يستطيع أن يقول: "أنا موضوعيٌّ ومحايد تمامًا في بحثي عن الأدلَّة على وجود الله، ولكنّي لا أملك ما يكفي من هذه الأدلَّة". أتمنَّى أن ندرك أنه لا يوجد مَن يمكنه أن يقول ذلك

بصدق وبكلِّ استقامة فكريَّة. نحن جميعًا لدينا مستويات عميقة من الانحياز متجذِّرة داخلنا ضدَّ فكرة وجود إله قدُّوس بإمكانه أن يُلزمنا متطلَّباتٍ معيَّنة. وإن لم تُقِرَّ بذلك، فأنت لن تتقدَّم خطوة واحدة في اتِّجاه الموضوعيَّة.

فلنفترض أنَّك قاضٍ وفجأةً عُرِضَت عليكَ قضيَّة تتعلَّق بشركة تملك فيها بعض الأسهم، وقرارك بشأن هذه القضيَّة سيؤثِّر تأثيرًا بالغًا في سعر الأسهم. هل سيُسمَح لك، أو حتَّى ستسمح أنتَ لنفسك، بأن تتولَّى الحكم في هذه القضيَّة؟ لا؛ لأنَّك لن تستطيع أن تكون موضوعيًّا لعلمك بأنَّه يمكن أن تخسر كلَّ مدَّخراتك لو جاء قرارك على نحوٍ ما. وفي هذه الحالة يُلزمك القانون أن تتنحَّى عن نظر القضيَّة. وفيما يتعلَّق بالحكم على المسيحيَّة، فنحن جميعًا في الموقف نفسه الذي تعرَّض له هذا القاضي: فحينما تريد أن تحكم ما إذا كانت الدعاوى التي تطرحها المسيحيَّة صحيحة أم خاطئة، فأنت حتمًا لديك مصلحة واضحة في أن تكون هذه الدعاوى خاطئة. ولكنَّك في هذه الحالة لا تتنحَّى عن القضيَّة؛ وكلُّ ما تملكه في هذه الحالة هو أن تُمعِن في النظر في الأدلَّة. لذا أودُّ هنا أن أقترح بعض السبل للتعامل مع هذه المُعضلة.

عليك أوَّلًا أن تضع شكوكَك موضع الشك. كن مُتشكِّكًا في نزوعك إلى الشك. لماذا؟ لأنَّه عليك أن تدرك أنَّك لست موضوعيًّا تمامًا. ربما لديك أب أو أمٌّ غاية في التديُّن وأنت لا تحبهم. أو ربَّما تكون قد جُزتَ في تجربة سيِّئة مع مجموعة من المسيحيِّين الذين لا يملكون الحسَّاسيَّة الكافية ولا الاتِّساق الكامل بين ما يؤمنون به وما يعيشونه. وفوق هذا كلِّه، وكما لاحظنا، هناك القليل من الناس الذين سيقبلون الدعوة للتنازل عن حرِّيَّاتهم، دون أن يكون

لديهم انحياز ضدَّ هذه الدعوة. ربَّما تخشى أن تكون الدعاوى التي تطرحها المسيحيَّة حقيقيَّة- حسنًا. إن كنَّا أمناء، فنحن جميعًا لدينا خوف من هذا الاحتمال. لن تستطيع أن تكون مُنصِفًا في جمعك للأدلَّة، إن لم تُقرَّ بأنك لا يمكن أن تكون مُنصِفًا تمامًا. ما الذي يمكن أن تفعله إذًا؟ أوَّلًا، عليك أن تتأنَّى قليلًا، فلا تتسرَّع في الوصول إلى أحكام شكوكيَّة. أيضًا عليك أن تُدرك أنَّه إن كانت المسيحيَّة حقيقيَّة، فهي ليست مجرَّد مجموعة من المبادئ الفلسفيَّة والمنطقيَّة التي يمكن قبولها بالعقل- إنها أيضًا علاقة شخصيَّة ندخل طرفًا فيها. ولذا فإن أمكنكَ أن تأخذ احتماليَّة صحَّة المسيحيَّة على محمَل الجدِ، فلما لا تجرِّب الصلاة؟ لماذا لا تطلب هذه الطلبة من الله: "يا رب، لا أعرف إن كنتَ موجودًا هناك، ولكنِّي أعرف معنى الانحياز، وأنا مُستعدٌّ لأن أتشكَّك في انحيازي. ولذا، فإن كنت موجودًا هناك؛ وإن كنتُ منحازًا ضدَّ هذا الوجود، ساعدني أن أعبر هذا العائق". اكسر الجمودَ في علاقتك بيسوع وتحدَّث إليه. ليس بالضرورة أن يعرف أحد عن ذلك. إن كنت غير مستعدٍّ لاتِّخاذ هذه الخطوات، فرأيي أنَّك لست راغبًا في الإقرار بما لديك ولدينا جميعًا من انحياز.

لكنَّ هناك العديد من الناس الذين يعانون مشكلة مناقِضة: فهؤلاء يبالغون في انزعاجهم خشية ألَّا يكون لديهم الإيمان الكافي. هؤلاء يساورهم الكثير من القلق بشأن شكوكهم. كثيرًا ما ألتقي أشخاصًا يقولون لي: "لديَّ رغبة ودافع لأومن بالمسيحيَّة الحقيقيَّة، ولكنِّي أخشى ألَّا تكون بواعثي صحيحة"، أو "لست متيقِّنًا إن كان لديَّ الإيمان الكافي". ويظنُّ هؤلاء أنَّ الإيمان يعتمد على إيصال ذهنهم وقلبهم إلى الحالة الصحيحة. خلاصة الأمر أنَّ هؤلاء يشبهون

المجموعة الأولى في ارتكابهم الخطأ نفسه، وهو التعويل كثيرًا على ذواتهم. وهؤلاء الأشخاص يعجزون أن يروا التعليم الذي يقدِّمه هذا النصُّ الذي بين أيدينا- ومفاد هذا التعليم أنَّك عاجزٌ عن الإيمان دون مساعدة تأتيك من خارجك، ودون تدخُّل من الله، ودون أن يأتيك يسوع ليساعدك، كما ساعد مريم في لحظة الانزعاج التي كانت تمرُّ بها. تأمَّل المشهد فتجد أنَّ مريم لم تؤمن حتَّى التقاها يسوع. لقد كانت منزعجة ومرتعبة والدموع تفيض من عينَيها وعاجزة حتَّى عن رؤية يسوع وهو واقف أمامها. لكن يسوع منحها صفاءً ذهنيًّا وراحةً قلبيَّة. ولذلك، فأنت أيضًا بحاجة إلى مساعدته، فلا تتردَّدْ في طلبها منه. في حقيقة الأمر، إن كان يشغلك أن تنال إيمانًا بيسوع، فهذا في حدِّ ذاته قد يكون علامةً على أنه بالفعل قد مدَّ يد المساعدة ليصل بكَ إلى هذه النقطة. نحن غير قادرين حتَّى على توجيه الإرادة في اتِّجاه يسوع دون مساعدته. مجرَّد الإحساس بغياب يسوع قد يكون علامةً على حضوره- علامةً على أنَّه يعمل في حياتك بالفعل. كما في حالة مريم، قد يكون يسوع واقفًا بجانبك الآن دون أن تستطيع رؤيته.

لذا فإن الإيمان أمرٌ يستحيل علينا لو تُركَ الأمرُ لنا. لكن، كما قال يسوع: "هذا عند الناس غير مُستطاع، ولكن عند الله كلُّ شيءٍ مُستطاع" (متَّى ١٩: ٢٦).

الأمرُ الآخر الذي نراه في هذه المشهد هو أنَّ الإيمان عقلاني. من الضروريِّ أن ندرك هذا الأمر، لأنَّنا كنَّا قد شرحنا توًّا أنَّ الإيمان ليس مجرد فعل عقلاني؛ فهو لقاء شخصيٌّ فائق للطبيعة مع يسوع المسيح نفسه. لكن إن كان الإيمان المسيحيٌّ أكثر من مجرد فعل عقلاني، فالأمر المؤكَّد أنَّه ليس أقلَّ من الفعل

العقلاني. ما أقصده بذلك أن الإيمان يستند إلى أدلَّة، وأمامنا الآن بعض من تلك الأدلَّة بالغة الأهمِّيَّة التي يطرحها علينا الكتاب المقدس.

لماذا لم يُقم يوحنا وبطرس ومريم حول القبر على مدار الساعة؟ إن لم تكن تعلم الكثير عن القرن الأوَّل بتاريخه وثقافته، فربَّما تندهش من أنَّ يسوع كرر قوله مرارًا وتكرارًا بأنه سيقوم في اليوم الثالث، ورغم ذلك فإننا لا نرى التلاميذ منتظرين بشوقٍ حول القبر في اليوم الثالث. حتَّى مريم المجدليَّة رغم إخلاصها الشديد لمعلِّمها، فإنها تجري بعيدًا عندما ترى القبر فارغًا دون أن تضع احتمالًا بأنَّه قام فعلًا. لماذا لم يكونوا هناك مُنتظرين حدوث المعجزة؟ ألم يروا من يسوع ما يكفيهم من المعجزات حتَّى يتوقَّعوا منه أن يأتيهم بمعجزةٍ أخرى أكبر؟

لو قرأت كتاب أن. تي. رايت (N. T. Wright) المعنون "قيامة ابن الله" (The Resurrection of Son of God)، وهو أفضل ما كُتِبَ عن القيامة على مدى الأعوام المئة الماضية على الأقلّ، ستدرك أنَّ اليهود واليونانيِّين والرومان كلَّهم لم يظنُّوا أنَّه بالإمكان أن يقوم شخص من الأموات حرفيًّا. لقد آمن اليونانيُّون (ومن بعدهم الرومان) أنَّ كلَّ ما هو مادِّي- بما في ذلك الجسد- هو مصدر للضعف والشرِّ وأنَّ الروح هي نبع القوَّة والخير. ومن ثَمَّ فإنَّ الخلاص هو تحرُّر الروح من سطوة الجسد. لذا فإنَّ قيامة الجسد من وجهة النظر تلك ليست بالأمر المرغوب فيه على الإطلاق. أيُّ إلهٍ هذا الذي يرغب في فعل ذلك؟

من ناحيةٍ أخرى فإنَّ اليهود لم يتبنَّوا وجهة النظر تلك حول الجسد. لقد رأوا أنَّ العالم المادِّيَّ هو جزء من خليقة الله الحسنة، كما آمن بعض اليهود

(وليس كلُّهم) بأنَّه ستكون هناك قيامة عامَّة للأبرار في نهاية الأيَّام. لكن لا يوجد آنذاك من آمن- يهودًا كانوا أم يونانيِّين أم رومانَ- بأنَّ الله يمكن أن يقيم شخصًا من الأموات في زماننا. فضلًا عن ذلك، فإنَّ اليهود كانوا آخر مَن يمكن أن يؤمن بأنَّ إنسانًا يمكن أن يكون ابن الله الذي تجب عبادته. لقد ظلُّوا يُلقَّنون طَوالَ حياتهم أنَّ الإنسان لا يمكن أن يتألَّه. لقد كانوا ينظرون إلى الله بوصفه مُتعاليًا* تمامًا عن خليقته. ضع كلَّ هذه العوامل معًا فتدركَ عندها انَّ فكرة قيامة يسوع من الأموات لم تكن عند اليهود أمرًا واردًا. رغم كلِّ ما قاله يسوع سابقًا، فإنَّ فكرة القيامة كانت أمرًا يستعصي على التصديق، بل على التمنِّي أيضًا.

نحن، قُرَّاءَ العصر الحديث، نظنُّ أنَّ القدماء كانوا شديدي التعلُّق بالخرافات، وهذا صحيح إلى حدٍّ كبير؛ فقد آمن القدماء بكلِّ أنواع الادِّعاءات المتعلِّقة بالسحر والمعجزات والكائنات الخارقة للطبيعة، بل أيضًا بقوى لا نؤمن بها في يومنا هذا. ومن هنا نتصوَّر أنَّ تلاميذ يسوع كانوا من السذاجة بحيث صدَّقوا أيَّ زعم عن قيامته، أو أنَّهم كانوا يتوقون إلى قيامته، وأنَّ أيَّ شخص يأتيهم بمزاعم (حتَّى لو كانت ضعيفة، متهافتة) عن رؤية يسوع، فإنَّ الآلاف من السُّذَّج سوف يقبلون ذلك في الحال على أنَّه حقيقة جديرة بالترويج لها.

المشكلة في هذا التصوُّر أنَّه خاطئ تمامًا، حيث إنَّنا لا نرى التلاميذ في روايات الأناجيل عن القيامة وهم يتوقَّعون القيامة على الإطلاق. والمفارقة

---

* اللفظة بالإنكليزيَّة هي "transcendent" وهي مصطلح فلسفيٌّ معناه "متعالٍ" أي أنَّه متميِّز عن كلِّ ما هو ماديٌّ، ومستقلٌّ عن كلِّ ما هو محسوس (المترجم).

الكبرى هنا أنَّ التلاميذ كانوا متشكِّكين، تمامًا كما الناس في وقتنا الحاضر. لقد كانوا بحاجة إلى العديد ممَّن شاهدوا هذا الحديث من شهود العيان (كما هي حالنا اليوم) حتَّى يقتنعوا بأنَّ يسوع فعلًا حي. وهنا فإنَّ روايات الأناجيل تتَّسق تمام الاتِّساق مع ما نعرفه تاريخيًّا عن هذه الثقافات. ويخبرنا أن. تي. رايت بكثيرٍ من الاستفاضة بأن أهل هذه الثقافات، وإن كانوا لم يستبعدوا تمامًا إمكانيَّة حدوث المعجزات، فإنَّ القيامة عندهم كانت أمرًا مجاوزًا لخيالهم وغير وارد الحدوث، تمامًا كما هي الحال مع معظم الناس اليوم.

سؤالي المطروح عليك، إذًا، هو: إن كنتَ مثل العديد من الأشخاص الذين يعيشون في الوقت الحاضر، ولديك تصوُّراتك العقليَّة التي تؤكِّد أنَّ القيامة الجسديَّة الحرفيَّة لشخص ماتَ فعلًا، وجروحه المميتة ما زالت بادية للعيان، هو أمرٌ مستحيل بكلِّ بساطة؛ فتخيل الآن طبيعة الأدلَّة والقرائن التي ستحتاج إليها لتغلبَ بها شكوكك وتتخلَّص بها من كلِّ افتراضاتك حول هذا الحدث. ما الأدلَّة التي ستحتاج إليها لتؤمن بأنَّ يسوع المسيح هو ابن الله الذي قام من الأموات؟ أيًّا كانت هذه الأدلة، يمكنك أن تصل إلى نتيجة بأن هؤلاء تحصَّلوا على أدلَّة شبيهة. وإن كانت هذه الأدلَّة قد أقنعتهم وأتت بهم إلى الإيمان، فهي قد تكون كافية لإقناعك أنت أيضًا.

أو قد تكون هذه الأدلَّة كافية لتعضيد إيمانك لو كنتَ أصلًا مسيحيًّا. لقد اختبرتُ ذلك عندما أُصبتُ بسرطان الغدَّة الدرقيَّة قبل عشر سنوات. لقد تعافيت تمامًا الآن من المرض، وإن كانت خبرة الحياة في ظلِّ السرطان والمرء لا يعلم كيف ستتطوَّر الأمور، هي خبرة غاية في الإيلام. في اللحظة التي

يخبرونك فيها أنك مصاب بالسرطان، حتّى لو قالوا لك أنّك قد تتعافى منه، فإنّ تركيز ذهنك ينصبُّ بصورة رائعة حول معنى الحياة. في أثناء التعافي، كان عندي شهر كامل لم أفعل فيه شيئًا ولم أذهب فيه إلى أيِّ مكان. وفي واقع الأمر وُضعتُ في الحجر الصحّيّ، وذلك بسبب مقدار اليود المُشعِّ التي كانت في جسدي، ولذا لم يكن لديَّ شيئًا أفعله للمرَّة الأولى (وربَّما الأخيرة) منذ ثلاثين عامًا. فلم يكن أمامي سوى أن أجلس وأقرأ كتاب أن. تي. رايت وعدد صفحاته هو نحو ٨٩٠ صفحة، بما في ذلك الهوامش، وكانت تجربة مُدهشة. بالتأكيد، كنتُ قد آمنتُ بالقيامة من قبل- فقد راهنتُ بحياتي وعملي على هذه الحقيقة. كما كانت حياة يسوع وموته وقيامته دائمًا في مُخيِّلتي. لكنَّ ما أصابني بالدهشة فعلًا هو الطريقة التي طرح بها هذا الكتاب الأدلَّة على النحو الذي دفع بإيماني عدَّة قفزات إلى الأمام. قبل ذلك كنت قد آمنتُ بالقيامة، أمَّا الآن فقد آمنتُ بها أكثرَ بكثير من ذي قبل. يُردِّد البعض في أيّامنا هذه أنَّه يجب التفكير في الإيمان بوصفه أمرًا على النقيض من المنطق والبرهان- بمعنى أنَّك كلَّما تحصَّلت على الحقائق والبراهين المؤكدة، تلاشت حاجتك إلى الإيمان. لكنَّ المسيحيون لا يقصدون ذلك عندما يتحدَّثون بشأن الإيمان. ليس المقصود بالإيمان أن يرجو المرء ما ليس حقيقيًّا؛ بل الإيمان التيقُّن بما لا تراه بعينك. وفي هذا السياق، فإنَّ الأدلَّة الدامغة التي تتصالح مع العقلانيَّة والمنطق هي من أكثر ما يمكن أن يُشدِّد الإيمان المسيحيّ.

في هذه الفقرة يوجد دليل آخر قويٌّ على أنَّ روايات الأناجيل عن القيامة ليست مختلقة. مَن هو الشاهد الأوَّل على القيامة؟ يخبرنا يوحنَّا- وهو واحدٌ

من كُتَّاب الأناجيل- أنَّ الشاهد الأوَّل على قيامة يسوع المسيح امرأة اسمها مريم المجدليَّة. وإذا سألت المؤرِّخين والمتخصِّصين بالكتاب المقدَّس سيقولون لك إنَّه لم يكن يحقُّ للنساء الإدلاء بشهادتهنَّ أمام المحاكم اليهوديَّة أو الرومانيَّة. في تلك المجتمعات الأبويَّة**، لم تكن شهادة المرأة موضع ثقة، ومن ثمَّ لم تكن تمثِّل دليلًا يُعتدُّ به. معنى ذلك أنَّك إن كنت تختلق حكاية القيامة كي تروج بها لديانتك أو لحركتك (الروحيَّة)، فلن تجعل امرأةً الشاهد الأوَّل على هذه الحادثة المختلَقة. ومع ذلك فإنَّ كتَّاب الأناجيل الأربعة يؤكِّدون على أنَّ الشهود الأوائل على القيامة كُنَّ نساء. التفسير الوحيد المقبول تاريخيًّا لوجود النساء في تلك الروايات، والتفسير الوحيد لقيام الرجال الذين كتبوا الأناجيل بإدراج النساء في رواياتهم- على الرغم من معرفتهم أنَّ شهادة النساء غير مقبولة- هو أنَّ هؤلاء النساء كُنَّ فعلًا شهودًا على القيامة. حتمًا كانت مريم المجدليَّة هناك، وحتمًا كانت أوَّل مَن رأى يسوع. لا يوجد أيُّ باعث أو سبب يجعل كُتَّاب الأناجيل يذكرون ذلك.

الإيمان ينطوي على قدر كبير من التفكير العقلاني. لاحظ ما تقوله تلك الفقرة من إنجيل يوحنَّا: "ثمَّ جاءَ سمعان بطرس يتبعه، ودخل القبر ونظر الأكفان موضوعةً، والمنديل الذي كان على رأسه ليسَ موضوعًا مع الأكفان، بل ملفوفًا في موضع وحده". كلمة "نظرَ" في اليونانيَّة هي بليپو (blepo)، وتعني ليس فقط "يرى"، بل أيضًا "يُفكِّر" و"يتبصَّر" و"يستوعب". عندما دخل

** اللفظة في الإنكليزيَّة هي "patriarchal" وتعني سطوة الرجل ونفوذه في المحيط الاجتماعيّ الذي يعيش فيه (المترجم).

بطرس القبر لا بدَّ أنَّه فكَّر وقال في نفسه شيئًا من هذا القبيل: "لو كان يسوع قد استردَّ نشاطه ونهض من رقاده لانفكَّت الأكفان وتمزَّقت جميعًا. لكن لو كان أحبَّاء يسوع قد أخذوا الجسد، فما الذي يدفعه إلى إهانة الجسد بأخذه عاريًا؟ لو كان أحبَّاؤه هم من فعلوا ذلك، لكانوا أبقوا عليه في الأكفان. من ناحيةٍ أخرى إن كان أعداء يسوع هم مَن فعلوا ذلك، فما الذي يدفعهم لأنْ يخلعوا عنه الأكفان ويضعوها مرتَّبةً بهذا الشكل؟" هنا نجد بطرس يُفكر مَليًّا، ويسعى في أثر الأدلة، ويُقلِّبُ كلَّ الفرضيَّات المحتملة.

لذلك، إن كان الإيمان أكثر من مجرَّد فعل عقلانيّ- بمعنى أنَّك لا تستطيع أن تتحصَّل على الإيمان الحقيقيِّ بالتفكير العقلانيِّ فقط- فالإيمان أيضًا ليس أقلَّ من الفعل العقلانيّ. لا يمكنك أن تصل إلى الإيمان الحقيقيِّ دون العقل. لماذا؟ لأنَّ الإيمان الناضج هو فعل يشمل الكِيان كلَّه، بمعنى أنَّ الذهن يقبل الإيمان مثلما تقبله الإرادة والمشاعر. نحن نعيش في وقت يميل فيه الناس إلى ترديد أقوال مثل: "لا يوجد ما يُسمَّى بالحقِّ الموضوعيّ. إن أردت أن تؤمن بالمسيحيَّة؛ أو إن شئتَ أن تعتنق أيَّ معتقد ترغب فيه، ما دام أن هذا المعتقد يتَّفق معك ويرضيك- فلا تهتمَّ إن كانت تفاصيل هذا المعتقد حقائق واقعة. إن كان هذا المعتقد يناسبك، فآمن به".

لكنَّ الإيمان العاطفيَّ المتحمِّس قد يكون خاطئًا؛ فهناك من الناس من تحمَّسوا بصدق لإيمانهم بأنَّ جنسهم أكثر تفوُّقًا من الأجناس الأخرى، وأنَّ أفضل شيء يمكن أن يقدِّموه إلى إيمانهم هو أن يتسيَّدوا العالم ويحكموه. غير أنَّ هذا النوع من الإيمان لا يضع هؤلاء في خانة الصواب. لماذا؟ لأنَّنا جميعًا

نعرف في قرارة نفوسنا أنَّ هناك حقًّا. نعلم أنَّ بعض الأشياء خاطئة، حتَّى لو اعتقد الناس أنَّها صائبة، كما نعلم أنَّ هناك من الأشياء ما هو صائب، حتَّى لو ظنَّ الناس أنَّها خاطئة.

لذا فإنَّ لسان حال المسيحيَّة الحقَّة ليس: "آمن بذلك لأنَّه يناسبك" أو "آمن بذلك لأنَّه يروقك". لن تسمح لكَ المسيحيَّة بذلك؛ حيث إنَّ لسان حالها هو: "لا تصدِّق المسيحيَّة لأنَّها تثير مشاعرك أو تناسبك أو لأنَّها عمليَّة- بل صَدِّق المسيحيَّة لأنَّها حقيقيَّة. لأنَّها إن لم تكن حقيقيَّة وصادقة، فهي لن تكون عمليَّة ولن تناسبك". السبب الذي يجعلك تتحمَّل المعاناة وتتصدَّى للتساؤلات التي تنتظرك في الحياة ليس مجرَّد أنَّ المسيحيَّة مثيرة للمشاعر وتناسبك (وهي كذلك بالفعل)، بل أنَّ المسيحيَّة صادقة أيضًا.

لذا فإنَّ الإيمان بالمسيح مستحيلٌ ومعقول في آن معًا: مستحيل لأنَّنا لا نقدر عليه بمفردنا، ومعقول لأنَّنا بحاجة إلى إعمال العقل فيه. هناك أمرٌ آخر يلزمنا تعلُّمه هنا. الإيمان لا يحدث إلَّا بالنعمة وفي النعمة- الإيمان قوامه النعمة. ولأشرح هذا الأمر، لكن بعد أن نقرأ الفقرة التالية:

> "أمَّا مَريَمُ فكانتْ واقِفَةً عِندَ القَبرِ خارِجًا تبكي. وفيما هي تبكي انحَنَتْ إلَى القَبرِ، فنَظَرَتْ مَلاكَينِ بثيابٍ بيضٍ جالِسَينِ واحِدًا عِندَ الرأسِ والآخَرَ عِندَ الرِّجلَينِ، حَيثُ كانَ جَسَدُ يَسوعَ مَوْضوعًا.
>
> فقالا لها: «يا امرأةُ، لماذا تبكينَ؟». قالَتْ لهُما: «إنَّهُم أخَذوا سيِّدي، ولَستُ أعلَمُ أين وضَعوهُ!».

ولَمَّا قالَتْ هذا التَفَتَتْ إلَى الوَراءِ، فنَظَرَتْ يَسوعَ واقِفًا، ولَمْ تعلَمْ أنَّهُ يَسوعُ.

قالَ لها يَسوعُ: «يا امرأةُ، لماذا تبكينَ؟ مَنْ تطلُبينَ؟».

فظَنَّتْ تِلكَ أنَّهُ البُستانيُّ، فقالَتْ لهُ: «يا سيِّدُ، إنْ كُنتَ أنتَ قد حَمَلتَه فقُلْ لي أين وضَعتَهُ، وأنا آخُذُه».

قالَ لها يَسوعُ: «يا مَريَمُ».

فالتَفَتَتْ تِلكَ وقالَتْ لهُ: «رَبُّوني!» الذي تفسيرُهُ: يا مُعَلِّمُ.

قالَ لها يَسوعُ: «لا تلمِسيني لأنِّي لَمْ أصعَدْ بَعدُ إلَى أبي. ولكن اذهَبي إلَى إخوَتي وقولي لهُمْ: إنِّي أصعَدُ إلَى أبي وأبيكُمْ وإلهي وإلهِكُمْ».

فجاءَتْ مَريَمُ المَجدَليَّةُ وأخبَرَتِ التلاميذَ أنَّها رأتِ الرَّبَّ، وأنَّهُ قالَ لها هذا" (يوحنَّا ٢٠: ١١-١٨).

ربَّما تحوي هذه الفقرة بيت القصيد في العهد الجديد كلِّه في صياغة سرديَّة.

في البداية يمكنك أن تلحظ اللطف والرقَّة البادِيَين في هذا الحوار. هناك مواضع عديدة في العهد القديم نرى فيها الله وهو يواجه أناسًا في حالة خطأ بالغ أو ضلالٍ واضح، ولكنَّه في مواجهته لهم هو يفعل ذلك ليس بالفضح الصريح المُهين، إنَّما بالأسئلة المترفِّقة الباعثة على التأمُّل. في جنَّة عدن يسأل الله آدم وحوَّاء وهما في حالة العصيان قائلًا: "أين أنت؟" و"مَن أعلمكَ أنَّكَ عريان؟" وعلى يونان النبيِّ المتمرد يطرح الله السؤال: "هل اغتظت بالصواب؟" ويعرف كلُّ العاملين في مجال المشورة أنَّه لا يكفي أن نخبر

الناس بالكيفيَّة التي ينبغي أن يعيشوا بها. وطرح الأسئلة يساعد الناس على إدراك أخطائهم، واكتشاف الحق وقبوله من أعماق قلوبهم. أسئلة يسوع تحمل طابعًا مشابهًا، فقد جاء سؤاله لمريم "لماذا تبكين؟" وهو يحمل في طيَّاته عتابًا رقيقًا ويقدِّم دعوةً للاستيقاظ. أمَّا سؤاله التالي "مَن تطلبين؟" فهو- على حدِّ تعبير دي. إيه. كارسون (D. A. Carson)- سؤال تحريضيٌّ يحثُّها فيه على "توسيع مداركها لترى أنَّه مع كلِّ ولائها الشديد له، فإنَّ تقديرها لشخصه كان محدودًا جدًّا".[١٥]

لكن لاحظ أيضًا كيف تسيئ مريم تفسير أسئلة يسوع. لقد ظنَّته البستانيَّ الذي يعتني بالمكان، وأنه ربما يكون على علم بالمكان الذي نُقِل إليه جسد يسوع. وهنا يستمرُّ يسوع في محاولاته، محاولًا النفاذ إلى قلبها، وهو يفعل ذلك بكلمة بسيطة. كان يسوع قد قال في هذا الإنجيل قبل موته إنَّه هو الراعي الصالح وإنَّه "يدعو خرافه الخاصَّة بأسماء" وإنَّ "خرافه تتبعه لأنَّها تعرف صوته" (يوحنَّا١٠: ٣-٤). وهذا هو عين ما يفعله الآن في هذا الموقف، إذا يقول لها "يا مريم". الإيمان الحقيقيّ دائمًا ما يكون إيمانًا شخصيًّا. إن كنتَ فقط تؤمن بأنَّ يسوع مات لكي يغفر للناس عمومًا خطاياهم- دون أن تؤمن بأنَّه مات لأجلك أنت- فأنت لم تقبل يسوع بالإيمان بعد؛ وأنت لم تسمعه بعد يناديك باسمك.

تتلامس مريم مع نعمة يسوع وحنانه. لقد كانت تجري مندفعة تبحث عنه بجنون، ولكنَّها (كما أشار هو) كانت تبحث عن يسوع غير حقيقيّ. كانت تبحث عن يسوع ميت، وعن يسوع أقلَّ عظمةً بكثير من يسوع الحقيقيّ. لذا فلم يكن

لها أن تجده ما لم يبحث هو عنها. نراه هنا وهو يأتي إليها، ويتعامل برقّة مع قلبها، لينفذ إليها منه بالتعامل الشخصي. إيمان مريم كان بالنعمة، لا بجهدها هي.

لكّننا نتعلّم من هذا الموقف الكثير بشأن العلاقة ما بين النعمة والإيمان. ففي اللحظة التي تتيقّن فيها مريم بأنّ يسوع حيّ، يحمّلها هو رسالة بقوله لها: "اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم..." - وهنا تصير مريم أوّل مسيحيَّة بمعنى من المعاني. لماذا؟ حسنًا، فلأسألك: مَن المسيحي؟ المسيحي هو مَن يؤمن بأنّ يسوع مات وقام من بين الأموات. المسيحيُّ هو مَن يلتقي المسيح المُقام لقاءً شخصيًّا. وفي تلك اللحظة كانت مريم هي الشخصَ الوحيدَ في العالم الذي انطبقت عليه هذه الأمور.

السؤال الآن: هل حدث ذلك صدفةً؟ لا أظنُّ ذلك. كان من السهل على يسوع أن يرتّب لأيِّ شخص آخر أن يكون أوّل مَن يحمل هذه الرسالة. ولكنّه اختارها. وهذا يعني أنّ يسوع المسيح قصد أن يختار امرأة، لا رجلًا لهذه المهمَّة- لقد اختار مريضًا نفسيًّا تعافى من مرضه ولم يختر أهمَّ تلاميذه. اختار يسوع واحدًا من الصفِّ الثاني، لا واحدًا من القادة لكي يكون المسيحيِّ الأوّل. ما أوضح الرسالة التي يرسلها يسوع هنا! إنّه يقول: "لا يهمُّ مَن أنت أو ماذا فعلت. إنّ خلاصي ليس مشروطًا بشرف الأصل، وليس متوقّفًا على المجهودات الأخلاقيَّة، ولا تعنيه موهبة فطريَّة أو حجم ما تبذله من جهد أو تحقّقه من إنجاز. لم آتِ لأدعو الأقوياء، وإنّما دعوتي للضعفاء. ولم آتِ لأكون معلّمك، ولكن جئت لأكون مُخلّصك. أنا هنا لأخلّصك، لا بعملك، بل بعملي أنا". وفي اللحظة التي تفهم فيها ذلك، وترى فيها نفسك مكان مريم المجدليَّة، سيتغيَّر شيءٌ ما في داخلك إلى الأبد، وستجد نفسك تسلك الطريق نفسها التي سلكَتها أوّل شخصيَّة مسيحيَّة.

ما يخبرنا به هذا النصُّ هو أنَّ النعمة ليست فقط سبب الإيمان، بل هي أيضًا موضوع الإيمان. إن كنتَ لا تزال تعتقد أنَّ يسوع كان معلِّمًا عظيمًا؛ وإن كنت تعتقد أنَّه يمكن أن يساعدك ويجيب صلواتك إذا عشت بحسب وصاياه الأخلاقيَّة- إن كان هذا كلَّ تصوُّرك عن يسوع، فأنت لم تصر مسيحيًّا بعد. ما لديك هو اعتقاد عام، وليس إيمانًا يُخلِّص. الإيمان المسيحيُّ الحقيقيُّ هو الذي يصدِّق أنَّ يسوع يخلِّص بموته وقيامته لكي ننال نحن الرضا والقبول لدى الله بالنعمة وحدها. هذا هو الإنجيل- الخبرُ السارُّ أنَّنا مُخَلَّصون بعمل المسيح وعلى أساس النعمة.

في هذا السياق يتحدَّث مارتن لوثر (Martin Luther) بشأن تجربة قبوله خلاص المسيح. كان لوثر راهبًا ودارسًا للكتاب المقدَّس ومعلِّمًا له، ومع ذلك يصف ما حدث له على هذا النحو:

> "في الإنجيل يُستعلن بِرُّ الله [رومية١: ٧]... لطالما كرهت هذه الكلمة، «بِرّ الله»... فمع أنِّي عشتُ راهبًا بلا لوم، فقد شعرتُ بأنِّي خاطئ أمام الله أحملُ ضميرًا غاية في الاضطراب. لم أستطع أن أصدِّق أنَّ الله يمكن إرضاؤه على النحو الذي أفهمه. ومن هنا بدأت أفهم أنَّ بِرَّ الله هو ذاك الذي يحيا بموجبه الشخص المتبرِّر، وهو عطيَّة الله التي نقبلها بالإيمان... وعند هذه اللحظة شعرتُ بأنِّي ولدتُ من جديد، وأنِّي دخلت إلى الفردوس ذاته بأبوابه المفتوحة لي".[١٦]

هذه هي الكيفية التي أدرك بها لوثر أنَّ الخلاص ليس صكًّا أو وثيقة أقدِّمها أنا إلى الله، فيخلِّصني بموجبها، ولكنَّها صكٌّ يعطينا الله إيَّاه، وبموجبه أنال القبول والخلاص من الله. يقول لوثر عن ذلك: "في اللحظة التي فهمت فيها ذلك، شعرتُ بأنِّي ولدت، وأنِّي مررتُ من أبواب الفردوس".

لذا فالإيمان هو عطيَّة الله، وهو يتأسَّس على التفكير وفحص الأدلَّة، اللذين يتفاعلان بتدخُّل الله المعجزي، كما يستند الإيمان إلى اكتشافٍ جوهريٍّ مفاده أنَّ يسوع المسيح أكمل كلَّ ما تحتاج إليه لأن نُقبَل في عائلة الله بالتبنِّي. وقد نلنا كلَّ ذلك بالنعمة وحدها. لكن هل يمثِّل هذا التحوُّل نهاية المطاف؟ هل نتَّكئ على معرفتنا بهذه المحبَّة، فنبقى في أماكننا، قانعين بما حصلنا عليه من تغيير؟ الإجابة بالنفي؛ لأنَّ امتيازنا هو أن نقضي بقيَّة حياتنا نذوق هذه المحبَّة التي منحتها إيَّانا النعمة ونختبرها ونتشكَّل بموجبها. تعطينا نهاية النصِّ الذي تأمَّلناه لمحة مدهشة عن طبيعة هذا الاختبار.

يقول يسوع لمريم في هذا اللقاء: "لا تلمسيني، لأنِّي لم أصعد بعد إلى أبي". الأمر الذي يصيبنا ببعض الحيرة هو أنَّ يسوع عندما التقى توما بعد ذلك سمح لتوما بلمسه. وعندما التقى المرأتين في نهاية إنجيل متَّى، سمح لهما بأن تلمساه، عندما سجدتا له. لذا، فالسؤال الآن: لماذا قال ذلك لمريم؟ من السهل أن نتخيَّل مريم في هذه اللحظة في حالة نشوة غامرة وهي تحاول أن تمسك به بكلِّ قوَّة، ولسان حالها: "لقد فقدتكَ مرَّة، ولكنِّي لن أفقدك مرَّة أخرى أبدًا". لو فهمنا ذلك، لوجدنا أنَّ ما يحاول يسوع قوله لمريم هنا: "لستِ بحاجة لأن تمسكيني بهذا الشكل، فأنا صاعدٌ إلى السماء". ولكن ما معنى

ذلك؟ إليكَ ما يقوله العديد من المفسِّرين، والذين أظنُّهم على صواب. ما يحاول يسوع أن يقوله هو كالتالي: "يا مريم، عندما أصعد وأجلس عن يمين الآب، فلن أتركك على الإطلاق، ولكنّي سأرسل روحي. وبواسطة روحي يمكنكِ أن تلمسي حضوري وسلامي ومحبَّتي على الدوام، نهارًا وليلًا". ما أجمله من وعد! إنَّ الإيمان الحقيقيّ يربطك بشخص المسيح، ليس فقط لمجرَّد الخلاص من عقوبة خطاياك، بل أيضًا لاختبار علاقة المحبَّة المستمرَّة معه.

هناك أمر آخر من المفيد أن نتعلَّمه عن الإيمان في هذه الفقرة. لا يختبر شخصان الإيمان بالطريقة ذاتها تمامًا. فإذا قرأتَ هذا الأصحاح كلَّه، لوجدت أنَّ يسوع التقى يوحنَّا وبطرس ومريم وتوما (الذي يلتقيه يسوع لاحقًا في أصحاح ٢٠) لقاءً مختلفًا. يحتاج كلٌّ منهم إلى فترة زمنيَّة مختلفة حتَّى يختبر هذا الإيمان، كما يحتاج كلٌّ منهم إلى جرعة مختلفة من الأدلَّة والاختبار الشخصي. إنَّ لكلٍّ منهم مسارَه الاختباريّ الخاصَّ والمختلف. لذا عليك أن تحذرَ من التفكير على النحو التالي قائلًا: "إنَّ صديقي التقى المسيح بهذا الشكل، لذلك يجب عليَّ أنا أيضًا أن أختبر المسيح بهذا الشكل الدراميِّ نفسه". كذلك، إن كنت أنتَ هذا الصديق، فعليكَ ألَّا تفترض أنَّ على الجميع أن يقبلوا الإيمان بهذا الشكل. كلُّ ما عليكَ أن تفعله هو أن تُقِرَّ بأنَّك خاطئ، وتؤمن بأنَّ يسوع المسيح مات عوضًا عنكَ، وتجد راحتك في ما عمله هو، لا في ما تقدِّمه أنتَ من أعمال صالحة. أنتَ بحاجة لأن تستودعَه حياتك، اعترافًا منكَ بالجميل إزاءَ العمل الذي أكمله؛ لكن مع ذلك كلِّه عليكَ أن تدرك أنَّ غيركَ من الناس ينالون هذا الإيمان بأشكالٍ مختلفة.

كثيرًا ما فكَّرتُ في شعور مريم المجدليَّة عندما سمعت اسمها على شفاه المسيح المُقَام، وتخيَّلتها تشعر بإحساس آني ديلارد (Annie Dillard) عندما كتبت قائلةً: "لقد كنتُ جرسًا طَوال حياتي، لكنِّي لم أدرك ذلك إلَّا عندما رفعني أحدهم إلى فوق لتخرج مِنِّي رنَّاتي ودقَّاتي".[١٧]

الفصل السادس

العدوُّ الأكبر

سعيتُ في الفصول الخمسة الأولى لأنْ أتناولَ أسئلةَ الحياة الكبرى باستعراض حياة يسوع كما سجَّلها إنجيل يوحنَّا. وفعلتُ ذلك بالتأمُّل في اللقاءات التي جرت بين يسوع وأشخاصٍ عاديِّين تغيَّرت حياتهم إلى الأبد على أثر ذلك اللقاء. لكن كيف يمكننا أن نلتقيَ نحنُ يسوع اليوم؟ لقد رأينا في كلِّ الحالات التي تأمَّلناها أنَّ السيِّد المسيح لا يقدِّم نفسه في الأساس بوصفه نموذجًا؛ فهو لا يُريد أن يقدِّم إلينا الإجابات النموذجيَّة عن الأسئلة الكبرى. كما أنَّه لا يطرح نفسه أساسًا بوصفه مُعلِّمًا يريدُ إطلاعنا على إجابات هذه الأسئلة. بل بالحريِّ يقدِّم نفسه في كلِّ هذه اللقاءات بوصفه مُخلِّصًا- بوصفه هو نفسه الإجابة عن الأسئلة الكبرى. لقد جاء يسوع ليصنعَ لنا ما أملنا نحن أن نصنعَه بأنفسنا.

إنْ أردْنا نحنُ أيضًا أن تتغيَّر حياتنا إلى الأبد، فعلينا أن نلتقيَه بوصفه المخلِّص. ولكي نتمكَّن من ذلك، علينا أن ندركَ ما صنعه لأجلنا. وبتأمُّلنا

في الأحداث المهمَّة في حياة يسوع نستطيع أن نرى بكلٍّ وضوح الكيفيَّة التي صار بها يسوع مخلِّصًا لنا. لذا سأخصِّص الفصول الخمسة الأخيرة من هذا الكتاب للنَّظر في الأحداث المحوريَّة في حياة يسوع كما تصوِّرها لنا الأناجيل.

وربَّما تتعجَّب متسائلًا عن الأسباب التي دفعَتني لأن أستبعدَ الأحداث الثلاثةَ الأشهَرَ في حياة يسوع- أقصدُ ميلاده وموتَه وقيامتَه. السبب الرئيسيُّ من وراء ذلك هو أنَّنا أكثر وعيًا بهذه الأحداث مقارنة بغيرها، ممَّا يجعلُ معانيها إجمالًا واضحةً لنا. فمثلًا، دون التجسُّد ما كان ليسوعَ أن يصيرَ بشرًا ويحمل عنَّا عقوبتنا. ويعني الصليب أنَّ هناك حلًّا لذنوبنا وغفرانًا لخطايانا. وتعني القيامة أنَّه ستكون لنا في نهاية الزمان أجسادٌ جديدة تعلنُ نصرتنا على الموت. وكلُّ هذه الأحداث العظيمة والمعجزيَّة في حياة يسوع هي أحداثٌ جوهريَّةٌ فعلًا، وقد تأمَّلنا في كلٍّ منها بشكلٍ أو بآخر في الفصول السابقة. أمَّا في الفصول اللاحقة، فسنتأمَّل في أحداث أخرى ربَّما تكونُ أقلَّ شهرةً، ولكنَّها ستمنحُنا رؤيةً أعمقَ لما فعله يسوعُ ليتمِّم خلاصَنا. ينتصر يسوع على الشرِّ لحسابنا [سنرى هذا في الفصل السادس]، ويتشفَّع لحسابنا [الفصل السابع]، ويقدِّم طاعةً كاملة لحسابنا [الفصل الثامن]، ويترك الأرض ليصيرَ فوق الكلِّ لحسابنا [الفصل التاسع]، ويترك السماء ليموتَ عنَّا [الفصل العاشر].

فلنتأمَّل الآن في الكيفيَّة التي بدأ بها يسوع خدمته العامَّة. لقد وقعَ حدثان الواحد تلو الآخر، ولعبا دَورًا مهمًّا في استعداده للمهمَّة التاريخيَّة التي غيَّرت العالم. في ثلاثة أناجيل من الأربعة نجد هذين الحدثَين يُصوَّران معًا: معموديَّة يسوع وتجرِبتُه من الشيطان في البرِّيَّة، واعتقادي أنَّ هناك سببًا مهمًّا من وراء ذلك.

إليك القصَّة كما وردت في إنجيل متَّى والأصحاحَين الثالث والرابع:

"حينئذٍ جاء يسوع من الجليل إلى الأردنِّ إلى يوحنَّا ليعتمدَ منه. ولكنَّ يوحنَّا منعه قائلًا: «أنا محتاجٌ أن أعتمد منك، وأنت تأتي إليَّ!» فأجاب يسوع وقال له: «اسمح الآن، لأنَّه هكذا يليق بنا أن نكمِّل كلَّ برّ». حينئذٍ سمح له. فلمَّا اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء، وإذا السماوات قد انفتحت له، فرأى روح الله نازلًا مثل حمامةٍ وآتيًا عليه، وصوتٌ من السماوات قائلًا: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت».

ثمَّ أُصعِد يسوعُ إلى البرِّيَّة من الرُّوح ليُجرَّبَ من إبليس. فبعد ما صام أربعين نهارًا وأربعين ليلةً، جاع أخيرًا. فتقدَّم إليه المجرِّب وقال له: «إنْ كنتَ ابن الله فقُل أن تصيرَ هذه الحجارةُ خبزًا». فأجاب وقال: «مكتوبٌ: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلِّ كلمةٍ تخرج من فم الله». ثمَّ أخذه إبليس إلى المدينة المقدَّسة، وأوقفه على جناح الهيكل، وقال له: «إنْ كنتَ ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل، لأنَّه مكتوبٌ: أنَّه يوصي ملائكته بك، فعلى أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجرٍ رجلك». قال له يسوع: «مكتوبٌ أيضًا: لا تجرِّبِ الربَّ إلهك». ثمَّ أخذَه أيضًا إبليس إلى جبلٍ عالٍ جدًّا، وأراه جميع ممالك العالم ومجدها، وقال له: «أعطيك هذه جميعها إنْ خررتَ وسجدتَ لي». حينئذٍ قال له يسوع: «اذهب يا شيطان!

لأنَّه مكتوبٌ: للرَّبِّ إلهك تسجد وإيَّاه وحده تعبد». ثمَّ تركه إبليس" (متَّى ٣: ١٣-٤: ١١).

فضلًا عن أحداث الصليب، فإنَّ معموديَّة يسوع هي الحدثُ الوحيد في حياة يسوع الذي ورد ذكره في كلِّ الأناجيل الأربعة. وهو ما يدلِّل على أهمِّيَّته. لكنَّنا نجد فقط هنا في إنجيل متَّى تجربةَ يسوع وقد سُجِّلتْ بشيء من التَّفصيل. ومن المهمِّ إدراك أنَّ حادثتَي المعموديَّة والتجربة يرتبطانِ أشدَّ الارتباط بحرف العطف "ثمَّ". قال الله كلمات تصديق قويَّة: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت". ثمَّ اقتيد يسوعُ إلى البرِّيَّة ليجرَّبَ من إبليس. "ثمَّ" في هذا السياق تكاد تعني "وبناءً على ذلك". بعد البركة العظيمة والنجاح تأتي الضيقة والتجربة.

لا يوجد شخصٌ يمكنه الحفاظ على حياته في حالةٍ دائمةٍ من النجاح والفرح والبركة. فمهما حاولنا ذلك؛ وبغضِّ النظر عن كلِّ الاحتياطات التي نتَّخذها وسير الأمور سيرًا حسنًا، فلا بدَّ أن يظهرَ شيء ما ليخرِّبَ هذه الحالة. حتَّى أكثر الأشخاص تمتُّعًا بالموهبة وأكثرهم اجتهادًا لا يمكنهم أن يتجنَّبوا مصائبَ الحياة. وربَّما تقول لي هنا: "ولكن ماذا لو أتممنا ما علينا فعله بصورةٍ جيِّدة؟ وماذا لو عِشنا حياتَنا بتقوى وأطعنا الله في ما نفعل، وصلَّينا كلَّ يوم، سائلين الله أن يحفظَنا من كلِّ صعابٍ ومعاناة؟" الإجابة عن السؤال: حسنًا، جرِّب أن تفعلَ ذلك. ماذا لو استطعتَ التغلُّب على كلِّ أخطائك وعيوبك؟ ماذا لو استطعت أن تكونَ في كامل الحكمة والفهم لطرق الله، وقلب الإنسان، وأن تكون فاهمًا للأوقات والأزمنة إلى درجةٍ تمكِّنك من اتِّخاذ القرارات الصائبة؟

ماذا لو أمكنك أن تضعَ ثقتَك في الله دون أن تتزحزحَ عن إيمانك؟ ماذا لو صارَتْ حياتُك مُرضيَةً تمامًا لله؟ نتيجة كلِّ ذلك هي أنَّ الله سيحميكَ، كما أنَّ الحياة التي تعيشها في القداسة وحكمتك ستصونك أيضًا، وستسير حياتك على ما يرام. أليس كذلك؟

لا، ليس كذلك. ببساطة، لأنَّ أمامنا هنا شخصًا أتمَّ كلَّ ذلك. في هذا المشهد نجد الله الآب وهو يشهد أنَّ حياة يسوع أسرَّته وأرضَتْه تمامًا. كذلك الروح القدس استقرَّ عليه وكان يقتاده. لكنِ انظُرْ ماذا حدث بعد ذلك لشخصٍ محبوبٍ من الله ومدعومٍ بقوَّة منه. إنَّه يجد نفسه أمام قبضة الشيطان. لذا إليكَ ترتيبَ الأحداث كما وقعت: محبَّة الله ودعمه، ثمَّ ظهور الشرِّير، ومعه تجربة في برِّيَّة، في وجود جوعٍ وعطشٍ رهيبَين. يا لها من كلمة عجيبة- كلمة "ثمَّ" في هذا النصّ! ويبدو الأمر كأنَّ متَّى يريد أن يقول: "لا يوجد شخصٌ يُستثنى من التجارب والضيقات. في واقع الأمر إنَّ كلَّ مَن يحبُّهم الله كثيرًا يجوزون في هذه جميعها؛ لأنَّ هذه الآلام وتلك الضيقات هي جزءٌ من خُطَّةِ الله المبهَمة غالبًا والصالحة دائمًا لتَغييرنا إلى ما هو أعظم".

وبالمناسبة يُذكِّرنا ذلك بأنَّ أصدقاء أيُّوب لم يكونوا على صواب. لعلَّك تتذكَّر أنَّ أيُّوبَ- كما وردت قصَّته في السِّفر الذي يحمل اسمه- كان يحيا حياةً نموذجيَّة، ومع ذلك فقد تعرَّضَ فعلًا للأذى كلُّ ما كان معرَّضًا للأذى في حياته. لقد فقد عائلته، وكلَّ ممتلكاته، كما خسر صحَّته. بِلُغة النصِّ الذي أمامنا "لقد أُصعِدَ أيُّوب إلى البرِّيَّة". وعندما أتى أصحاب أيُّوب لزيارته، رأوا ما حدث له، وكان لسانُ حالهم في كلِّ ما قالوه له: "اسمع يا أيُّوب! ليست

حياتُنا سوى محصِّلة اختياراتنا، فإنِ اخترتَ أن تحيا حياتك بصورة صحيحة، فستسيرُ حياتُك في المسار الصحيح. وإنْ كان الله يحبُّك، فما كان ليتركَ كلَّ ذلك يحدث لكَ. لا بدَّ أنَّ الله هو غايةٌ في الغضب منكَ ومن الاختيارات التي اتَّخذتَها".

تلك هي الطريقة التي يفكِّر بها العديد من الناس، وربَّما أغلب الناس. عندما يتطلَّع أبناء الطبقة الوسطى إلى الفقراء، يفترضون أنَّ الفقراء لا يعملون بجدٍّ كما يعملون هم. وعندما تتطلَّع الأسرُ التي تتمتَّع بصحَّةٍ جيِّدة إلى الأسر التي يصارع أحد أبنائها مرضًا أو عجزًا ما، فهم يفترضون أنَّ تلك العائلات لم تعتنِ بصحَّة أبنائها كما يجب. إنْ كنَّا لا نعاني أمرًا ما في اللحظة الراهنة، فنحنُ نميل لأن ننسبَ ذلك إلى أنفسنا. وليست للأمر عندنا أيَّة علاقة بالتَّوفيق أو بالنِّعمة، بل السبب في ما نحن فيه- على حدِّ تفكيرنا- هو أنَّنا نعيش حياتنا بالشَّكل الملائم والصحيح. أليس كذلك؟ لكنَّنا نرى في الأصحاح الثالث من إنجيل متَّى الشخصَ الأوحدَ في تاريخ هذا العالم الذي عاش حقًّا حياته عيشةً صحيحة، بل عاشَ حياةً كاملة تمامًا استحقَّتْ رضى الله وسروره. وقد اجتاز هو أيضًا الآلام وعبرَ الأحوال غير المواتية دون أن يخطئ. ورغم ذلك كلِّه فقد اعترضَتْ حياتَه بعد ذلك العديدُ من البلايا، ولم يكن مشهد التجربة الذي نحن بصدده الآن إلَّا بداية هذه البلايا. سنَشهدُ بعد ذلك سلسلةً متوالية من نبذ الآخرين له، ومحاوَلاتٍ لقتله، وتعرُّضه للخيانة، ومعاناته الفقر والحُزنِ والفقد والتعذيب، انتهاءً بالموت. كما سيُحاكَم هذا الشخص ويُحكَم عليه بالإعدام على نحوٍ يفتقر إلى العدالة.

ما الذي يكشفُه لنا كلُّ ذلك؟ الأمرُ الوحيد الذي يتَّضحُ لنا هنا هو سطوة الشرِّ واستفحاله وتَعَقُّد أسبابه في هذا العالم. العالم من وجهة نظر مَن يتبنَّون الرؤية العَلمانية ليس سوى مجموعة من القوى المادِّيَّة تمامًا؛ فلا وُجود للنَّفس أو الروح أو الشياطين أو الملائكة. لكلِّ شيء في الوجود تفسيرٌ علميٌّ طبيعيّ. ومن وجهة النظر تلكَ، فإنَّ في وُسعِنا التعامُل مع الشرِّ الموجود في العالم (إنْ كان هناك حقًّا وجودٌ لهذا الشَّرّ) بمكافحة الجهل بواسطة التعليم، وتغيير الأنظمة الاجتماعيَّة، وتوفير مستويات أفضل من العلاج النفسيِّ والأدوية. ومع ذلك، فكثيرًا ما صُدِم المفكِّرون الغربيُّون على مدار القرن الماضي عندما شهدوا تَجذُّر قوى الشرِّ واستفحالها في القلب البشريِّ وفي العالم بأسره. في كتاب بعنوان "**موت الشيطان: كيف فقد الأميركيُّون إحساسهم بالشَّرّ**" *(The Death of Satan: How Americans Have Lost the Sense of Evil)* كتب أندرو دلبانكو (Andrew Delbanco)، الأستاذ بجامعة كولومبيا، قائلًا: "لقد اتَّسعَتِ الفجوةُ في ثقافتنا بين الوضوح البيِّن للشرِّ ومواردنا الفكريَّة المتاحة للتَّعامُل معه".

لكنْ يمكن للكتاب المقدَّس عبور تلك الفجوة، وتقديم تفسير لكلِّ ما نختبره اختبارًا شخصيًّا وما نشهده من معاناة على مدار التاريخ. إذ يُخبرُنا الكتاب المقدَّس أنَّ الشرَّ متعدِّد الأبعاد، ومتشابك ومعقَّد بما يتجاوز تصوُّرات العلم عنه. ويؤكِّد الكتاب المقدَّس أنَّه فضلًا عن الظلم الممنهَج والجهل وحالات عدم الاتِّزان النفسيّ، إلَّا أنَّ هناك أيضًا في عالمنا قوى شرٍّ روحيَّة- وخلف هذه القوى يكمن عقلٌ ذكيٌّ فائقٌ للطَّبيعة. وأمام شهادة الكتاب المقدَّس،

رفضَ العالم الغربيُّ رفضًا كبيرًا هذا التصوُّر عن الشرّ، ونتيجةً لذلك صرنا- مثل أصحاب أيُّوب- نميل دائمًا إلى التَّقليل من أهمِّيَّة قوى الشر الموجودة في حياتنا، بل التَّغاضي عنها. والمثلُ الذي أضربه على ذلك هو أنَّنا نميل في قرارة نفوسنا إلى تلك الفكرة التبسيطيَّة القائلة إنَّ حياتَنا ستَسيرُ على ما يُرام ما دُمنا صالحين. ولكنْ إنْ كانت هناك قوى شيطانيَّة حقًّا، فمن المعقول أنَّ صلاح الأشخاص وقداستَهم يُهيِّجان عليهم هجمات هذه القوى. وهذا ما نراه فعلًا في مشهدَي المعموديَّة والتجربة.

(إنَّ الإيمان بأنَّ الصلاح الأخلاقيَّ يؤدِّي إلى حياة سالمة، لهوَ تبسيطٌ في فهمنا لمقاصد الله من جهتنا. إنَّ حكمة الله لامُتناهية، وفي وُسعه أن يرى النهايةَ منذ البداية، ومقاصده الصالحة من جهتنا مَخفيَّةٌ عن أنظارنا على الطرف الآخر من البرِّيَّة.[١٨] تمامًا كما كان صبر أيُّوب في آلامه سببًا في أن يصيرَ نموذجًا أعانَ مئات الملايين من البشر، وأيضًا كانت تجارِبُ يسوعَ إعدادًا له ليُتِمَّ مهمَّة خلاص العالم التي غيَّرت التاريخ، كذلك هي الحال مع تجاربنا التي يقودنا روح الله فيها، ويعبر بنا برِّيَّتنا بما يؤول إلى خيرنا).

دائمًا ما نُصدَم عندما يواجهنا استفحال الشرِّ في العالم، ولكنَّ سبب الصدمة يرجعُ جزئيًّا إلى أنَّنا، نحن أبناءَ هذا الزمان، ننظر إلى الكتاب المقدَّس بوصفه نصًّا بدائيًّا، ومن ثَمَّ نُحوِّل آذاننا عن توصيفه للواقع. لكنْ إنْ كان الكتاب المقدَّس صائبًا؛ وكان هذا النوع من الشرِّ موجودًا فعلًا، فما الذي يفيدنا من قراءة المزيد عن هذا الشرِّ ومعرفته؟ حسنًا، عندما يتحدَّث الكتاب المقدَّس بشأن مواجهاتنا مع قوى الشرِّ الفائقة للطبيعة، فإنَّه يستخدم لغة المعركة. لذا فإنَّك إنْ كنتَ لا

تعلمُ من أين سيأتي الهجوم؛ أو إنْ قلَّلتَ من قدرات العدوِّ أو أسأتَ تقييمه، فالاحتمال الأكبر أنَّك ستخسرُ المعركة. من ناحيةٍ أخرى، فإنَّنا إنْ كنَّا نعلم ما نحن بصدد مواجهته، ومن أين تأتينا المواجهة، فكيف لنا أن نتصدَّى للهجمات دون أن نُستنزَف؟ فلنتأمَّل إذًا في ما يشير إليه الأصحاح الثالث من إنجيل متَّى. حيث يخبرنا هذا الفصل بأنَّ علينا الإجابة عن ثلاثة أسئلةٍ لكي نواجه الشَّرّ: مَن العدوّ؟ أين هي جبهة المعركة؟ ما أفضل دفاعاتنا في هذه المعركة؟

لنتأمَّل بدايةً في السؤال المتعلِّق بالعدوّ. كما ذكرنا الآن فإنَّ وجهة نظر الكتاب المقدَّس عن الشرِّ تراهُ مُعقَّدًا ومُستفحِلًا، لذا فلا يمكنكَ أن تحصر الشرَّ في خِيارات البشر أو في الأنظمة الاجتماعيَّة، أو المشكلات النفسيَّة، أو حتَّى في مجرَّد الافتقار إلى التعليم- في حقيقة الأمر لا يمكنك أن تحصر الشرَّ كلَّه في كلِّ هذه العوامل مجتمعة. كما لا يمكنكَ أن تتبنَّى وجهات النظر التي تبحث عن ضحيَّة تُحمِّلُها أسبابَ الشرّ، والتي نتجَ عنها كثيرٌ من الأضرار على مدار التاريخ- وهي وجهات نظر تُشير بأصابع اتِّهام صريحة إلى فئةٍ معيَّنة من الناس تُحمِّلهم وحدَهم الشَّرّ. وربَّما ينتمي "أولئك الناس" إلى جنسٍ أو طبقة أو أمَّة أو دينٍ أو أيديولوجيا سياسيَّة ما. يقول الكتاب المقدَّس إنَّ الشرَّ طبيعيٌّ وفائقٌ للطَّبيعة، وإنَّه داخلنا وخارجنا، وإنَّه كامنٌ في الفرد ومُتجذِّرٌ في النظام الاجتماعيّ. وعلى قدر فهمنا لطبيعة الشَّرّ، ليست هناك وسيلةٌ بشريَّةٌ تمكِّننا من الابتعاد تمامًا عنه أو سَبرِ أغواره.

تاريخيًّا، كانت هناك وجهَتا نظر أساسيَّتان على طرفَي نقيض من رؤية الكتاب المقدَّس وتفسيره لطبيعة الشَّرّ. فمن جهة هناك ما يُسمَّى النزعة

الثنائيَّة، والتي تقول بوجود قوَّتَين متناقضتَين ومتساويتَين للشَّرِّ والخير في هذا العالم. ووَفقًا لوجهة النظر تلك فإنَّ الواقع يقومُ أساسًا على الصدام ما بين هاتَين القوَّتَين اللتَين ستظلَّان على صراعهما حتَّى نهاية الزمان، أو ربَّما إلى أبد الآبدين. ومعنى ذلك أنَّه ليست هناك حتمًا أيَّة إمكانيَّة لتحقيق الانتصار. كذلكَ فإنَّ الله- وفقًا لوجهة النظر تلك- لا يفوقُ الشيطانَ في قوَّته على الإطلاق. ويشيرُ القدِّيس أغسطينوس (St. Augustine) في كتابه "**مدينة الله**" *(The City of God)* إلى أنَّ العبادة الوثنيَّة تعتمد على النزعة الثنائيَّة. فالوثنيَّة في كافة أشكالها تؤمنُ بوجود آلهة للخير وآلهة للشَّرّ؛ قُوى صالحة وقُوى شرِّيرة. ومعنى ذلك كلِّه أنَّ العالم في جوهره- وعلى نحوٍ يستعصي على التغيير- ساحةٌ للعنف وليس مكانًا لسيادة النُّظُم والجمال والرجاء. إنَّما يتكوَّن العالم من مراكز قوى عديدة يتحارب أحدها مع الآخر. وفي عالمٌ من هذا النوع قد تتمكَّن من إقامة جزيرة يعمُّها السلامُ والنظام، لكنْ حتمًا سيظهرُ شيءٌ ما في النهاية يُطيحُ بهذا السلام والنظام. لذا فلا أمل في حقيقة الأمر في فضِّ هذا الصراع وإحلال السلام الدائم.

أمَّا التوجُّه الفلسفيُّ الثاني تُجاه الشرِّ فهو ما يُطلَقُ عليه اسم "وحدة الوجود"، وهو ما يذهب في الاتِّجاه المناقض للنَّزعة الثنائيَّة، إذ ينادي بأنَّ أصلَ الوُجود واحد؛ فكلُّ شيء جزءٌ من الله، والله في كلِّ شيء، ومن ثمَّ فإنَّ كلَّ شيء في النهاية متَّحدٌ بكلِّ شيء آخر. وبواسطة وجهة النظر تلك تصيرُ الهُوِيَّات المتفرِّدة للأشخاص مجرَّد وهم؛ فنحنُ جميعًا مرتبطون بعضنا ببعض على نحوٍ غير مفهوم، وارتباطنا ليس مجرَّد تقاسُمِنا خبراتنا البشريَّة، بل نحن

مرتبطون بعضنا ببعضٍ على النحو الذي لا يجعلنا نتمايز أحَدُنا عن الآخر. يقول سي. أس. لِويس في كتابه "**المسيحيَّة المجرَّدة**"* *(Mere Christianity)* إنَّ المؤمن بوحدة الوجود، عندما يرى أمامه شخصًا آخر يُحتضَر بسبب السرطان أو من فرطِ الفقر والعوز فسيَقولُ لك: "لو تسنَّى لك أن ترى ذلك من وجهة النظر الإلهيَّة، لأدركتَ أنَّ هذا هو الله أيضًا". لذا فإنَّ الشرَّ والمعاناة- من وجهة النظر تلك- ليسا أبديَّين ولا يستعصيان على القضاء عليهما كما هي الحال مع النزعة الثنائيَّة؛ ذلك لأنَّهما ببساطة لا وجود لهما، لذا يمكننا القول إنَّ الشرَّ والمعاناة هما مجرَّد وهم.

اللافت للانتباه هنا في فحصنا للثَّقافة العَلمانيَّة الحديثة أنَّها تنظرُ إلى الشرِّ على نحوٍ يفتقر إلى التكامل والاتِّساق، وذلك باستعانتها بأفكارٍ نابعةٍ من وجهتَي النظر السالفتَين. فمن جهة، تشبه النزعة العَلمانيَّة العبادات القديمة التي تقوم على تعدُّد الآلهة، حاسبين أنَّها تنظر إلى العالم بوصفه ليس من صُنع خالقٍ مُبدع واحد كلِّيِّ القدرة، بل هو صنيعة قُوى عنيفة يصعب السيطرة عليها. وهنا ليس الكون المادِّيُّ مجرَّد محصِّلة الانفجارات والاحتراقات، ولكنَّنا نحن أيضًا محصِّلة التطوُّر بما يقوم عليه من مبدأ البقاء للأصلح. إنْ كانت هذه الرؤية إلى العالم صائبة، فمعنى ذلك أنْ ليس علاجٌ للعنف، لأنَّه يصير وَفقًا لهذا التصوُّر جزءًا من نسيج الواقع؛ فنحن جئنا إلى هذا العالم بوسائل بلا غاية، وسنواصل وجودنا وتطوُّرنا على النحو ذاته. ومن جهةٍ أخرى، يرى العديد من المفكِّرين العَلمانيِّين أنَّ شرَّ البشر هو إمَّا نتاج الأنظمة الاجتماعيَّة وإمَّا

* كتاب "المسيحيَّة المجرَّدة" للأديب المبدع سي. أس. لِويس من منشورات أوفير للطباعة النشر (الناشر).

الأوضاع النفسيَّة السيِّئة. وفي القرن التاسع عشر، طرحَ المفكِّرون العَلمانيُّون تصوُّرًا مفاده أنَّك إنْ كنتَ سفَّاحًا، فهذا يعودُ إمَّا إلى تربية سيِّئة من الأب والأمّ، وإمَّا بسبب الفقر أو شكلٍ ما من أشكال الحرمان. أيْ أنَّ أمرًا ما لا بدَّ أن يكونَ قد وقعَ لك ليجعلَ منك قاتلًا؛ لأنَّ البشر ليسوا أشرارًا بطبيعتهم. هناك تصوُّرٌ عَلمانيٌّ آخر في الوقت الحاضر يعتمد الرؤية النسبيَّة، فما يبدو شرًّا من وجهة نظر ثقافةٍ ما، ليس كذلك من وجهة نظر ثقافةٍ أخرى. أي أنَّ الإرهابيَّ عند شخصٍ ما هو مدافعٌ عن الحرِّيَّة عند شخصٍ آخر. لذا، فالشرُّ هو ما يراه الإنسانُ كذلك. وإنْ نظرتَ إلى الشرِّ بصورةٍ مختلفة، فقد لا تجده كذلك، فهو مجرَّد وهم.

في كتاب "**موتُ الشيطان: كيف فقد الأميركيُّون إحساسهم بالشَّرّ**"، يقتبس مؤلِّفه دلبانكو من رواية توماس هاريس (Thomas Harris) بعنوان "**صمتُ الحُملان**" *(The Silence of the Lambs)*، وذلك من المشهد الذي يتحدَّث فيه هانيبال لكتر (Hannibal Lecter) القاتل شديد الإجرام مع الضابطة ستارلينغ (Starling). وعندما يصفُ لكتر كلَّ الأمور السيِّئة التي فعلها، تنظر إليه الضابطة وتسأله: "ما الذي حدث لكَ ليجعلكَ تفعلَ كلَّ ذلك؟ ما الذي تعرَّضتَ له بحيث صرتَ بهذا السوء؟" وعندها ينظر إليها لكتر مُجيبًا:

> "لم يحدث لي شيءٌ أيَّتها الضابطة ستارلينغ. **أنا** ما حدث لي. لا يمكنكِ أن تختزليني إلى مجموعة من المؤثِّرات. لقد تجاهلتُم وجود الخير والشرِّ واستبدلتُم بهما النظريَّة السلوكيَّة. لقد ألبستُم الجميعَ رداءَ الكرامة الأخلاقيَّة، ولم يعُدِ الخطأ

مسؤوليَّة أيِّ أحد. انظري إليَّ أيَّتها الضابطة: هل يمكنك نَعتي بالشَّرّ؟"[١٨]

يسترسل دلبانكو قائلًا إنَّ تلك الكلمات هي الرعب الذي نعيشُه في عصرنا الحاضر، ويعني به الإدراك المتزايد لدى هذا الجيل أنَّه لا يمكننا بالفعل الإجابة عن سؤال هذا المجرم. ويقول دلبانكو إنَّنا إذا تخلَّصنا من فكرة الخطيَّة؛ واستَبعدْنا الشيطانَ ووُجودَ الشرِّ في هذا الكون، فإنَّ كلَّ تصرُّف سيِّئ لا ينشأ إلَّا بمسبِّباتٍ نفسيَّة أو اجتماعيَّة. ومن شأن هذا التصوُّر أن يقلِّل من حجم معاناة ضحايا الإجرام وحجم الجريمة الواقعة. يدرك هانيبال لكتر تمامًا أنَّ الضابطةَ ستارلينغ تشكَّلت بفعل الفكر العَلمانيِّ الحديث، وهو يدرك أنَّه لم يترك لها مَخرجًا عندما سألها هذا السؤال. لقد طرح عليها سؤالًا لا تملك في ما عندها من رؤية إلى العالم قدرةَ الإجابة عنه. إنَّ لسانَ حاله عندما سألها: "عليكِ أن تذهبي إلى عائلات الضحايا المساكين وتقولي لهم إنَّي قطعتُ الرؤوس وأكلتُ الجثثَ لأنَّ أمِّي لم تُحبَّني. ليس في وُسعكِ أن تجعليني مسؤولًا عن هذه الجرائم؛ بل إنَّكِ لا تستطيعين حتَّى أن تُلقي بالمسؤوليَّة على أمِّي". إنَّه يستعينُ بالحقِّ الذي منحَه إيَّاه العالم الحديث، ويوظِّفه كيفما شاء.

في نهاية الجزء الأوَّل من رواية "**هاري پوتر**" *(Harry Potter)*، تضع جاي. كيه. رولينغ (J. K. Rowling) كلامًا على لسان دُمية مملوكة للورد ڤولدرمورت سيِّد الظلام (Dark Lord Voldemort) تقول فيها: "لقد علَّمني السيِّد ڤولدرمورت أنَّه لا يوجد خيرٌ وشرّ، بل كلُّ ما هنالك هو السلطة".[١٩] أعتقد أنَّ ما تريد رولينغ قوله هنا إنَّ هناك بضعةَ أمورٍ أكثر شرًّا من إنكار وجود الشرّ، وهذا ما يريده الشيطان.

وربَّما يلفتُ انتباهك أنَّ المسيحيَّة لا تخيِّرُك ما بين النزعة الثنائيَّة أو مذهب وحدة الوجود، بل تقدِّم إليك أمرًا ربَّما تراه الآن أكثرَ منطقيَّةً ممَّا كنتَ تعتقده سابقًا: تحدِّثكَ المسيحيَّة بشأن وجودٍ حقيقيٍّ للشيطان. في الواقع، هناك قُوى شيطانيَّة في عالمنا، لذا لا يمكن اختزال الشرِّ في الخِيارات التي يتَّخذها البشر. لا تسئ فهمي؛ فللبَشر جميعِهم إمكانيَّةُ ارتكاب الشرّ، وبالتأكيد تلك الخيارات الشرِّيرة التي يتَّخذونها هي جزءٌ دالٌّ من منظومة الشرِّ الكبرى في هذا العالم. عندما انتقلتُ إلى مدينة صغيرة في الجنوب في السبعينيَّات، أمكَنَني تعرُّف الصورة الخفيَّة للمجتمع والمؤسَّسات التي أسهمَتْ في إقصاء الأميركيِّين الأفارقة بعيدًا عن أيَّة سلطةٍ اقتصاديَّةٍ أو سياسيَّة. لو تحدَّثتَ إلى الأفراد العاملين في هذه المؤسَّسات، لوجدتَ أنَّ العديد منهم هم حتمًا متعصِّبون، وستجد أشخاصًا أكثر منهم لا يدركون شيئًا، وعندها ستدرك أنَّ معظم هؤلاء الأفراد ليسوا أشرارًا في ذواتهم. تذكَّر أنَّ هذا ما رأته حنَّا أرِنت عندما كتبَتْ تقريرَ محاكمة أدولف إيخمان القائد النازيِّ لمجلَّة النيويوركر، وتناولتْ في تقريرها "اعتياديَّة الشَّرّ". لقد كان النظامُ المجتمعيُّ كلُّه أكثرَ شرًّا وتدميرًا من آلاف البشر العاديِّين الذين يتألَّف منهم هذا النظام. هناك قوَّة ما موجودة في عالمنا تعملُ على تضخيم الشرور الموجودة في النظامَين الاجتماعيِّ والنفسيِّ اللذين يقوم عليهما هذا العالم، كما تعمل على تعقيد هذه الشرور وعلى إدامة تأثيرها. وتقول المسيحيَّة لنا إنَّ هناك من الشرِّ في العالم ما يفوقُ قدرتَنا على فهمه من مجرَّد النظر في الخيارات الخاطئة التي يصنعُها الأفراد؛ لذا فإنَّ هناك بعضًا من هذا الشرِّ لا يمكن إلَّا أن تنسبَه إلى قوى شيطانيَّة فعليَّة.

لكنْ من ناحيةٍ أخرى، فإنَّ المسيحيَّة لا تقوم على النزعة الثنائيَّة. حيث لا تعادل هذه القوى الشيطانيَّة الله. فالشيطانُ ليس سوى ملاكٍ ساقطٍ يقودُ ملائكةً ساقطين، والله هو أعظم قدرة بما لا يُقاس منه ومن أجناده. وفي النهاية ليس فقط في وُسع الله أن يسحقَهم جميعًا، بل هو سيَسحقُهم فعلًا. هذا هو الوعدُ المذهل والرجاء الذي يلمعُ أمامنا على كلِّ صفحات الكتاب المقدَّس.

ربَّما تظنُّ أنَّ فكرة وجود شيطان هي فكرة بدائيَّة واعتقاد يليق فقط بالبسطاء من الناس. وما أحاول أن أناقشه هنا وما أسعى إلى إقناعك به- بكلِّ احترامٍ لك- أنَّك إنْ حاولتَ فهمَ هذا العالم وتفسيرَ ما يحدث فيه دون الإيمان بوجود الشيطان، فأنت مَن تكون قد وقعتَ في فخِّ السذاجة الروحيَّة والفكريَّة.

فلنجعَلِ الآن نقاشَنا عمليًّا. إنْ كنَّا قد عرفنا عَدُوَّنا، فالسؤال التالي هو: أين هي جبهة المعركة إذًا؟ ما الذي يُخبرنا به الكتاب المقدَّس فضلًا عن حقيقة وجود شيطان؟ يخبرنا الكتاب المقدَّس بشأن الجبهة الأساسيَّة للمعركة، وبشأن النقطة التي يبدأ عندها الشيطان هجومَه. لاحظْ أنَّ الشيطانَ في هذه التجربة كثيرًا ما يقول: "إنْ كنتَ ابن الله". هذه هي الهجمة الأساسيَّة لإبليس، وهي هجمة ليست فقط على يسوع، بل هي علينا نحن أيضًا، كما سنرى. لقد أعلن الله لتوِّه هنا أنَّ يسوع هو ابنه الحبيب، وعند هذه اللحظة ذاتها يبدأ الشيطان هجومَه. وكلُّ ما يفعله الشيطان هنا هو طلبُه من يسوع أن يجعلَ الله يُثبتُ أنَّه يحبُّه ويدعمه. لكنَّك لا تحتاجُ لأن تطلبَ تأكيداتٍ وأدلَّةً من شخصٍ ما على حقيقة مشاعره ما دمتَ لم تشكَّ في ذلك. وهذا هو الهدف الاستراتيجيُّ للشَّيطان- لقد أراد أن يجعلَ يسوع يفقدُ يقينَه وسلامَه النابع من محبَّة الآب غير المشروطة.

والآن، إنْ كانت تلك هي الجبهة الرئيسيَّة للشَّيطان في حروبه، فكيف يسعى إلى تحقيق النصر في هذه الجبهة؟ بدايةً هو يريد أن يحولَ بينَك وبين الإيمان بأنَّ يسوعَ هو فعلًا ابن الله ومُخلِّص العالم. لاحظْ جيِّدًا ما قاله الله من السماء لحظة المعموديَّة. في البداية يقول: "هذا هو ابني الحبيب"- وهذا اقتباس من المزمور الثاني وهو أنشودة عن المسيَّا الملك الذي سيقضي على كلِّ عصيانٍ وشرٍّ في العالم. وبعدها يقول الله: "الذي بِه سُررت"، وهذا اقتباسٌ آخر من الأصحاح الثالث والخمسين من سِفر إشعياء** الذي يصفُ شخصيَّة العبد المتألِّم، ذاك الشخص الغامض الذي يقول عنه إشعياء إنَّه يومًا ما سيتألَّم ويموتُ عن معاصي الناس وذنوبهم. أمامنا الآن مِفتاح مهمٌّ لفهم الكتاب المقدَّس. نجد في العهد القديم (كما نرى في المزمور ٢) وعدًا بشخصيَّة المسيَّا الملك العظيم الذي سيأتي ويضعُ كلَّ الأمور في نصابها في هذا العالم، وهو ما انتظره الكثيرون من اليهود بشغفٍ. لكنْ في العهد القديم أيضًا تجد هذه الشخصيَّة المتألِّلة، كما في نبوَّة إشعياء. وقد فهم اليهود من هذه النصوص أنَّ ذلك العبد سيُحتقَر، وأنَّنا "بِحُبُره [جِراحه] سنُشفى" (إشعياء ٥٣: ٥). ولم يوجَد شخصٌ اجتمعت فيه الصورتان [الابن الحبيب مسيح الله، والعبد المتألِّم الذي أسرَّ الله] حتَّى تلك اللحظة التى أعلن فيها الله بركتَه ليَسوع في المعموديَّة.

كان الله يحاول أن يُفهِمنا هذه الحقيقة: ليس يسوع مجرَّد إنسانٍ صالح سعى لأن يعلِّمنا الكيفيَّة التي نعيش بها بكلماته وبنموذج حياته، كما أنَّه ليس مجرَّدَ ملكٍ سماويٍّ أتى ليَقضيَ على الشرِّ بضربةٍ واحدة. إنَّ الشرَّ- كما

** الإشارةُ هنا هي إلى إشعياء ٥٣: ١٠: "ومسرَّة الربِّ بيَدِه تنجح" (المترجم).

رأينا- مُتأصِّلٌ فينا، ولو كان يسوع قد جاء ليَقضيَ على كلِّ الشرِّ في الحال، لكانَ قضى علينا جميعًا. إنَّ يسوعَ ملكٌ، ولكنَّه لم يأتِ إلى عرشٍ بل إلى صليب. لقد جاء ليُجرَّب ويتعرَّض للضِّيقات، ولكي يتألَّم ويموت. لماذا؟ حتَّى نستطيع نحن أن ننالَ محبَّة الله بوصفها عطيَّة مجَّانيَّة. وكما تقول الترنيمة: "أمامَ عرشكِ نقف مغسولين؛ لأنَّ محبَّتكَ قد وفَّت بمطاليب ناموسك".[٢٠]

وعلى هذا الأساس، فإنْ وجدَتْ نفوسُنا راحتَها في عمل السيِّد المسيح لأجلنا، فإنَّنا بالنعمة نصير أبناء في عائلة الله (يوحنَّا ١: ١٢). وهذا يعني أنَّ في وُسعنا أن نثقَ بأنَّنا أبناء الله المحبوبون وأنَّنا في المسيح موضوع مسرَّة الله. وهذا الضمان (أنَّنا أبناء الله) هو أعمق أنواع الفرح الذي يمكن أن تنالَه ويُطلقَ فيكَ الحياة. كذلك فإنَّ هذا يعني من جهةٍ أنَّنا نريدُ الابتعاد عن أيَّة خطيَّةٍ أو شيء لا يُسرُّ الآب. ونحن لا نفعل ذلك الآن خوفًا من عقوبةٍ أو بدافعٍ من حاجتنا إلى إثبات ذواتنا. فهذه الدوافع تُضنينا وتؤدِّي حتمًا إلى تضييق رؤيتنا إلى الحياة، وإصابتنا بالبرِّ الذاتيِّ وقساوة قلوبنا. بدلًا من كلِّ ذلك، فإنَّنا بدافعٍ من فرح الشكر والرغبة الخالصة في مُشابهة قلب مَن خَلَّصنا وإبهاجه وخدمته، فإنَّنا نُصلحُ من حياتنا بفاعليَّةٍ جديدة. ومن جهةٍ أُخرى فإنَّ كلَّ مشاعر الخوف والاضطراب وعدم الإحساس بالأمان التي كانت تكتنفُنا في ما سبق- كلَّ هذه المشاعر تبدأ في التلاشي؛ حيث لا يصيبُنا النجاحُ في العمل بالانتفاخ، كما لا يُصيبنا الفشل بالانكسار، ولا تصيرُ الدوافع التي تحرِّك حياتَنا مرتبطةً بالتعاسة التي يسبِّبها لنا مظهرنا أو حالتنا. كما أنَّ النقدَ لا يُحبطنا كما كان يفعل قبلًا؛ فصورتنا عن نفسنا تستقرُّ آمنةً في محبَّةٍ لا يمكن أن نفقدَها.

هل ترى الآن لماذا يريدُ الشيطان أن يجعلَ هذه القضيَّة ساحة المعركة الأساسيَّة؟ إنَّه يسعى بكلِّ قوَّته لأنْ يمنعَ الناس من امتلاك هذا السلطان وتلك القوَّة. فلدى أولئك الذين لا يؤمنون بما تقدِّمه المسيحيَّة، فهو يسعى بكلِّ ما يملك لأن يُعميَ بصائرهم عن حقيقة يسوع، وهو يريد لهم أن يصدِّقوا أنَّ يسوع هو شخصٌ لطيفٌ بصورةٍ تميِّزه عن الآخرين. أمَّا لأولئك الذين يعتقدون أنَّهم يؤمنون بما تقدِّمه المسيحيَّة، ولكنَّهم لا يفهمون أنَّ الخلاصَ هو عطيَّة مجَّانيَّة، فالشيطان يرغب في أن يُبقيَهم غافلين عن الإنجيل، كما يسعى جاهدًا لأن يُصيبَهم بالتَّشويش من جهة حقيقة التبرير- أي أنَّ الله صحَّح أوضاعنا بالإيمان بالمسيح وحدَه، وليس بموجب جهودنا لتحسين أخلاقيَّاتنا.

ومن جهة أولئك الذين يعلَمون من حيثُ المبدأُ أنَّهم أبناءٌ وبناتٌ تبنَّاهم الله، فيريدُ الشيطانُ أن يُزحزِحَهم عن هذه الهُويَّة ليُثبِّتَ أنظارهم على صورتهم عن ذواتهم التي تستند إلى سلوكيَّاتهم الأخلاقيَّة وصلاحهم وجهودهم. وكان هذا ما حدث مع قسٍّ سابق كنتُ قد تحدَّثت إليه منذ سنوات. فعندما كان يعظُ بما يمكن أن نسمِّيه بالمسيحيَّة القويمة، كان الشيطانُ قد هزمَه في داخله. بعقله وبفمه كان يقول: "نحنُ خَلصْنا بيسوع وبالنعمة". لكنَّ قلبَه كان يُفكِّر وَفقًا لمنطقٍ آخر. ولو كان لنا أن نسمعَ لغةَ القلب، لكُنَّا سمعنا هذا القلب يقول: "هذه هي الطريقة المُثلى التي يمكن بها أن أثقَ يقينًا بأنِّي شخصٌ صالحٌ ومستحقٌّ: سأكونُ قسًّا. ليس أفضل من أن أكونَ قسًّا. أجل. سأخبرُ الناس بالحقّ، وسأساعد المتألِّمين، وأعينُ الناسَ على إصلاح حالهم". بمعنى آخر، بينما كان عقلُ هذا الشخص يقول إنَّ يسوع مُخلِّص، كان يسعى لأن يكونَ هو مُخلِّصَ نفسه.

ونتيجةً لذلك، فعندما كانت كنيسته تنمو، وخدمته تسير حسنًا، وكان هناك إقبال شديد على وعظه، كانت البرودة الروحيَّة تتسرَّب إليه بالتَّدريج، وصارَ مُعجبًا بنفسه ومُتعاليًا. كما صار وعظُه يقوم على النَّقد الجارح، وصار أكثرَ تعاليًا وانتقادًا في معاملاته مع الآخرين. وهذا ما أدَّى إلى صراعات عديدة مع بعض العائلات التي انتهى بها الأمر إلى تَرْك الكنيسة. وعندما بدأت حالُ الكنيسة تسوء، لم يتمكَّن من تَحمُّل هذا الأمر، فالقضيَّة عنده لم تكن مجرَّد فقد الناس الذين انفضُّوا من حوله، بل كانت ضياعَ هُويَّته هو. وهنا بدأ يتعاطى الخمرَ ليتعامل مع ألمه الداخليّ، كما أقامَ علاقةً بأمرأةٍ كانت تمنحه التملُّق الذي كان في أمسِّ الحاجة إليه، وهكذا انهار زواجُه وخدمتُه.

ما الذي حدث هنا؟ بالتَّأكيد كسبَ إبليس هذه المعركة. إذا فكَّرتَ في قلبك بوصفه ماكينة، فيمكنكَ القول إنَّ هناك من الوقود ما يَمدُّ هذه الماكينة بكفاءة خاليةٍ من التلوُّث، كما أنَّ هناك نوعًا من الوقود غير النظيف الذي يقدر أن يُخرِّبَ الماكينة. الوقود غير النظيف هو الخوف والحاجة إلى إثبات الذات، أو الحاجة لأن يحتاج إليك الآخرون، أو الحاجة لأن تُعبِّر عن نفسك بالكامل دون أن يعوقك شيء أو شخص. هناك العديد من أنواع "الوقود" التي تُبقينا على قيد الحياة لبعض الوقت- لكنْ لا يوجد إلَّا "وقود" واحد نظيف لا يمكن أن يؤدِّي بنا بتاتًا إلى الإعياء أو الإحباط. وليس هذا الوقود سوى محبَّةِ الله لك. أيُّ وقود آخر يصيرُ بمرور الوقت وقودًا شيطانيًّا، وهذا الوقود الأخير لن يفعلَ لكَ إلَّا أحَدَ أمرَين: إمَّا أن يستحوذَ عليك ويستبدَّ بكَ، وإمَّا أن يخذلَك (في أفضل الأحوال). عندما تُديرُ حياتَك معتمدًا على هذا النوع من

الوقود، فإنَّ الشيطان سيسحبُك إلى حيثُ يريد. والأمرُ الوحيد الذي لا يريدُه الشيطان لك هو أن تأخذَ ماكينةُ حياتك طاقتَها من هذه الكلمات: "أنتَ هو ابني الحبيب".

كان جاي. سي. رايل (J. C. Ryle)، الأسقف الأنغليكانيُّ في ليڤربول بإنكلترا نهاية القرن التاسع عشر. وفي مقالةٍ له بعنوان "اليقين" (Assurance)، كتب رايل على نحوٍ مُدهش عن تأثير هذا الوقود النظيف:

> "يصلُ اليقين في تأثيره إلى الحدِّ الذي يُحَرِّر فيه كلَّ ابنٍ لله... وهذا اليقين يُمكِّنه من أن يشعرَ بأنَّ صفقةَ الحياة الكبرى قد سُوِّيَت، وبأنَّ أعظم مديونيَّة في الوجود قد سُدِّدَتْ، وبأنَّ أخبثَ مرضٍ قد شُفيَ، وبأنَّ أصعب عمل قد أُنجزَ، وأنَّ كلَّ الصفقات والأمراض والمديونيَّات والأعمال الأخرى هي صغيرة مقارنةً بما تمَّ. ومن ثمَّ فإنَّ اليقينَ يجعل المؤمنَ صابرًا في الضيقات، مُطمئنًّا عند فقدِ الأحبَّاء، ثابتًا أمام الأحزان، غير جازعٍ عندما توافيه أسوأ الأخبار. والمؤمن المتمتِّع بهذا اليقين راضٍ في كلِّ الأحوال؛ لأنَّ ذلك اليقين يمنح قلبه ثباتًا عظيمًا، ويُحوِّل مرارةَ كأسه إلى حلاوة، ويُقلِّل من أحمال صليبه ويُمهِّد وُعورةَ مسالكه، ويُضيء له واديَ ظلِّ الموت. إنَّ هذا اليقين يجعله يشعرُ بأنَّه يقف دائمًا على أرضٍ صلبة، ويتَّكأ بيَدَيه على مساند ثابتة، وأنَّ له في الطريق صديقًا يُوثَق به، وفي نهاية الرحلة ينتظره بيتٌ مضمون... هناك تعبير جميل يَرِد في صلوات زيارة

المرضى: «ليكنِ الله القدير- وهو برجٌ حصينٌ لكلِّ مَن يضعون ثقتهم فيه- لكَ الآن وإلى الأبد حاميًا عنك، وليجعلْكَ تدركُ وتشعرُ بأنَّه لا يوجد اسمٌ آخر تحت السماء يمكنكَ أن تنال به الصحَّة والخلاص إلَّا اسمَ ربِّنا يسوع المسيح»".[٢١]

ما أفضل دفاعٍ لدينا في معركتنا أمام إبليس؟ فلنرَ ثانيةً ما يمكن أن نتعلَّمه من هذا النَّصّ. أوَّلُ ما نراه هنا أنَّ يسوع لم يتعامَلْ مع الشيطان بطريقةٍ أشبهَ بالسحر أو القصص الخرافيَّة؛ فهو لم يسحقْه بمجده. لكنِّي لا أنفي هنا وجودَ كلمة السلطان التي تنتهرُ الشيطان. والواضح لنا أيضًا أنَّنا نرى يسوع في الأناجيل وهو يفعل ذلك في بعض الحالات. لكنْ عمومًا، لا يتحكَّم فينا الشيطان بمخالبَ مغروسةٍ في لحمنا، بل بأكاذيبَ موضوعةٍ في قلوبنا. ونرى ذلك في قصَّة جنَّة عدن عندما يُجرِّب إبليس آدمَ وحوَّاء. لم يظهَرِ الشيطانُ في هذا المشهد مصحوبًا بكلِّ أنواع المؤثِّرات الخاصَّة، بل ما يفعله هو أنَّه أوحى بأفكارٍ تنسلُّ إلى القلب، وتُناقِضُ كلمةَ الله، وتطعنُ في شخصه، وتدمِّر علاقة الثقة بيننا وبينه. لذا يجب أن نملكَ الدفاعات نفسها التي امتلكَها يسوع في معركته مع إبليس. إنَّ أفضل دفاعاتنا في هذه المعركة في مواجهة أكاذيب إبليس ليست ترديدَ التعاويذ، بل تقديم الحقّ.

لاحظْ هنا الطريقةَ التي يستخدم بها يسوع الكتاب المقدَّس، وهنا نجد أنفسنا أمامَ أحد الدروس الأجلى في هذا النصّ. يستخدم يسوع نصوصَ الكتاب المقدَّس في كلِّ مرَّة يتعرَّض فيها لهجمةٍ من إبليس. وتتناسبُ هذه الاستراتيجيَّة بالتأكيد مع ما ذكرناه توًّا عن جبهة المعركة؛ فالشيطان يريد أن

يزعزعَ ثباتَنا في الحقّ. وأكثر من ذلك، هو يريدُ أن يؤثِّر في قناعات قلوبنا؛ فالقلب- وَفقًا للكتاب المقدَّس- ليس مجرَّدَ مصدرِ العواطف، بل هو أيضًا نبعُ كلِّ تعهُّداتنا الأساسيَّة وآمالنا وثقتنا. ومن القلب ينبع تفكيرنا ومشاعرنا وأفعالنا؛ فحيثما يضعُ القلب ثقته، يسوِّغه العقل وتشتهيه العواطف، وتنفِّذه الإرادة، فإذا استطاع الشيطان أن يجعلك تُقِرَّ بعقلك بالله صاحب النعمة المحِبَّة، ومن جهة أخرى يجعل قلبك يعتقد أنَّه يَلزمُك أن تفعل كذا وكذا لتصيرَ مستحقًّا وجديرًا بالحبّ، وشخصًا له قيمة- فذلك هو أقصى ما يرضيه.

ولعلَّ ذلك ما يجعل يسوعَ يردُّ من الكتاب المقدَّس في كلِّ مرَّة ينكر فيها إبليس- تضمينًا أم تصريحًا- ما وعد به الله وما أوحى به. يقتبسُ يسوع من سفر التثنية ٨: ٣ و٦: ١٦ وأخيرًا ٦: ١٣. وحتَّى عندما كان يسوع يموتُ على الصليب؛ وكان يجوز في أعمق لحظات معاناته وألمه كان يقتبس من المزامير ٢٢: ١: "إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟" عندما تمرُّ بلحظات الألم والصدمة، فإنَّ الأمورَ التي تخرج من عقلك وفمك هي الأمورُ الأهمُّ في حياتك. وعندما جاز يسوع في هذه اللحظات، خرجت منه كلمات الكتاب المقدَّس. إنَّ نحو ١٠٪ ممَّا يقوله يسوع في الأناجيل هو اقتباسات من نصوص العهد القديم أو إشارات إليها. وعندما تصل معرفتك بالكتاب المقدَّس إلى هذا الحدّ، فإنَّك تُدير أفكارك ومشاعرك بواسطة كلمة الله الموحى بها. وعندما تستقرُّ داخلك تأكيدات الله ووعوده وإعلاناته، فمن المستحيل على إبليس أن يصنعَ لنفسه قاعدةً داخلك، ويسرقَ منك يقينك في خلاصك. وهكذا لا توجد لديك ثغرة في المنطقة التي يُحسن إبليس توجيه هجماته منها.

فلأطرح عليك السؤال: إنْ كان يسوع المسيح، ابنُ الله، لم يواجه قوى الشرِّ دون معرفةٍ عميقة بالمكتوب الذي حمله في قلبه وعقله، فكيف يمكننا نحن أن نسعى إلى مواجهة الحياة بأيَّة وسيلة أخرى؟ صحيح أنَّ ذلك يستغرقُ الكثير من الوقت والجهد. لكنَّ العبادة، والقراءة اليوميَّة والتأمُّل وحفظَ الآيات والترنيم، والاستماع إلى التعليم- جميع هذه لازمة لنا لنصيرَ على الدراية الواجبة بنصوص الكتاب المقدَّس. وعندما نتعرَّض للهجوم، كأنْ تباغتَنا الخطيَّة أو يصفعَنا الإحباط أو حتَّى عندما نقرِّر أن نتخلَّى عن كلِّ شيء- عندها يمكنُنا أن ندفعَ بالكلمات والوعود الحيَّة لتحتلَّ كلَّ كِياننا و"تسكن فينا كلمة المسيح بغنى" (كولوسِّي ٣: ١٦). وهنا ستكون المعركة حقيقيَّة بالفعل. عن ذلك يكتب جاي. سي. رايل:

> "المسيحيَّة الحقيقيَّة معركة... هناك قدرٌ هائلٌ من الممارسات الدينيَّة في العالم ولكنَّها لا تُضاهي المسيحيَّة الأصيلة الحقَّة. وتمنحُ هذه الممارسات شهادات الجودة؛ وتُرضي الضمائر المتغافلة، ولكنَّها عملة زائفة... هناك الآلاف من الرجال والنساء الذين يذهبون إلى الكنائس كلَّ أحد... لكنَّك لا ترى في حياتهم الروحيَّة أيَّة «معركة»! وهم لا يعرفون شيئًا بتاتًا عن الحرب الروحيَّة والجهاد، والصراع، وإنكار الذات، والسهر".[٢٢]

أرجو ألَّا تغضَّ الطرْفَ عن الصلة ما بين التجربة والمعموديَّة. لقد أتى إبليس إلى يسوع لأنَّ يسوع مكلَّف، ومدعوم من جانب الله ليتمِّمَ إرساليَّة. بعد ذلك كان يسوع على وشك أن يبدأ مدَّة نشاطٍ مكثَّف من التعليم

وتقديم الشفاء وتحرير الناس من القيود الروحيَّة. كذلك نحن، مثل يسوع، ندخلُ في حرب مع الشيطان، ليست فقط حربًا داخلنا في قلوبنا، بل أيضًا حربٌ خارجنا في العالم الذي نذهب إليه لننقضَ أعمال إبليس. فعندما نسعى إلى مساعدة شخص ليؤمنَ بالسيِّد المسيح؛ أو عندما نقدِّم الحبَّ إلى جيراننا المساكين، فنحن نحارب إبليس بأعمال المحبَّة الخادمة على هذه الجبهة نفسها. عندما كتب سي. أس. لِويس عن مذهب وحدة الوجود وإيمان معتنقيه بأنَّ الألم محضُ وهم، استرسلَ في حديثه مؤكِّدًا أنَّ المسيحيَّ الحقيقيَّ لا يملك ترفَ الاستسلام لهذه السلبيَّة في مواجهة الشَّرّ، فيقول لِويس:

> "عندما يقف الشخص المؤمن بوحدة الوجود أمام السرطان أو يجد نفسه أمام فقر مدقع، فإنَّه يقول لك: «لو تسنَّى لك أن ترى ذلك من وجهة النظر الإلهيَّة، لأدركتَ أنَّ هذا هو الله أيضًا». وعلى ذلك يُجيب المسيحيُّ الحقيقيّ: «لا تتفوَّه بهذا الهُراء»؛ فعِمادُ المسيحيَّة الجهاد الروحيّ. ترى المسيحيَّة أنَّ الله خلقَ العالم- بما فيه من مكانٍ وزمان، وحرارة وبرودة، وألوانٍ وأذواقٍ، وما فيه من حيوانات ونباتات- جميعها أشياء «خلقها الله وأبدعها بفكره»، تمامًا كما يُبدع الإنسان قصَّة ما. لكنَّ المسيحيَّة ترى أيضًا أنَّ العديدَ من الأخطاء أصابت ما صنعه الله، وأنَّ الله يصرخ فينا، دافعًا إيَّانا لنخرجَ إلى العالم، ويأبى إلَّا أن نُعيدَ الأمورَ إلى وضعها الصحيح".[٢٣]

إنَّ لنا في هذه الحرب الروحيَّة مَدَدًا آخر مُذخَّر لمعونتنا، وهو ماثلٌ أمامنا في هذا النصّ، وليس هذا المددُ سوى يسوعَ نفسِه. تخبرنا رسالة العبرانيِّين ٤: ١٥ بأنَّ يسوعَ هو رئيسُ كهنتنا العظيم. كان الكهنة يقدِّمون المشورة والشفاء، ونحن نعلم أنَّ في وُسع يسوعَ أن "يرثي لضعفاتنا" ويمنحَنا "الرحمة والنعمة، عونًا في حينه" (عبرانيِّين ٤: ١٦). على أيِّ أساس؟ لأنَّه "تألم مُجرَّبًا في كلِّ شيء مثلنا، بلا خطيَّة" (عدد ١٥). إنَّ يسوعَ مُتاحٌ لنا ليعينَنا في مواجهة واقع الشرّ، داخلنا وخارجنا، لأنَّه هو نفسه واجهَ هذا الشرَّ لمَّا كانَ في جسم بشريَّتنا. لذا فعندما نجاهد في مواجهة أكاذيب إبليس في قلوبنا وأعماله في العالم، فعلينا أن نستندَ ليس فقط إلى كلمة الله، بل أيضًا إلى إله الكلمة. نحن لا نملك فقط كتابًا- على كلِّ ما فيه من كمال- ولكنَّ لدينا يسوع نفسَه، الذي جازت نفسه في تجاربَ حارقةٍ كاللهيب لا يمكننا أن نتصوَّرها من فرط شدَّتها ووطأتها. وقد خرج منها جميعًا مُنتصرًا لأجلنا. أمَّا نحن بما لنا من معونةٍ نجدها في رثائه لنا، وفي سلطانه الرقيق، فيمكننا أيضًا أن نعبر هذه التجارب لنخرج منها منتصرين على الضفَّة الثانية من التجرِبة بجانب يسوع.

الفصل السابع

المُحامِيان

عندما نُفكِّر في الليلة الأخيرة التي أمضاها يسوع مع تلاميذه، فعادةً ما تنصرف أذهانُنا إلى العشاء الأخير في العُلِّيَّة حيث احتفلوا جميعًا بالفصح. يُطلِعنا البشيرون متَّى ومرقس ولوقا في بشائرهم على الكثير من تفاصيل العشاء الأخير، بينما لا يذكر يوحنَّا في بشارته كسر الخبز أو المناولة- لا يتحدَّث إنجيل يوحنَّا بشأن العشاء بتاتًا. ومع ذلك فهو يمنحنا معلومات أكثر من غيره بشأن ما حدث في العُلِّيَّة في تلك الليلة. حيث يقدِّم إلينا يوحنَّا ما اصطُلِحَ على تسميته بخطاب يسوع الوداعيّ، وهو خطاب يمتدُّ على مدى ثلاثة أصحاحات (يوحنَّا ١٤-١٦)، تتبعها صلاةٌ مَهيبة تأخذ أصحاحًا آخر. والآن، فلنفكِّرْ معًا: عندما تكونُ مُشرِفًا على الموت، فأنت لا تتنقَّل كثيرًا بين المواضيع ولا تلتفُّ حولها. كلُّ ما تفعله هو أن تتحدَّث بالأمور التي تشغل بالك أكثر من غيرها والتي تهمُّ مستمعيكَ أكثر من غيرها. ومعرفتنا بذلك تجعلنا نضع الأفكار الأساسيَّة التي يقدِّمها يسوع في هذه النصوص في مكانةٍ جديرةٍ بالأهمِّيَّة. إن كان يسوع في هذه النصوص يتناولُ

العديدَ من المواضيع والقضايا، إلَّا أنَّ هناك فكرة أساسيَّة كانت تشغل مكانًا بارزًا في حديثه، وانشغل بها قلبه. تُرَى، ما تلك الفكرة؟

على مدار الأعوام الثلاثة السابقة على هذه الحادثة، كانت للرُّسل لقاءاتٌ متواصلة مع يسوع. لقد عاشوا وعملوا وتحادثوا وصلُّوا معه. أمَّا في تلك اللحظة فكانوا يستمعون إلى يسوع، وإذ به يقول لهم: "يا أولادي، أنا معكم زمانًا قليلًا بعدُ... وحيثُ أذهبُ أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا" (يوحنَّا ١٣: ٣٣). وقد أثارت هذه العبارة فيهم ردودَ فعل تُعبِّر عن الفزع، فنرى بطرس وهو يزعم أنَّه سيتبع يسوع أينما ذهب، حتَّى لو كلَّفه ذلك حياته (١٣: ٣٧)، أمَّا توما فكان أكثر تحفُّظًا، وإنْ لم يُخفِ حَيرته، إذ تساءل: كيف لنا أن نذهب معه، ما دمنا لا نفهم تمامًا ما يتحدَّث بشأنه، ولا نعرف تمامًا إلى أين هو ذاهب؟ (١٤: ٥). وعندما يقول يسوع إنَّه ذاهبٌ "إلى بيت الآب" (١٤: ٢-٣)، يطلب منه فيلبُّس: "أرِنَا الآب" (١٤: ٨).

إنْ كنتَ قد اطَّلعتَ على تفاصيل حياة يسوع وخدمته مع التلاميذ، لأدركتَ على الفور ما تحمله ردودُ فعلهم من حَيرةٍ واضطراب. لم تكن لدى بطرس معرفةٌ بنفسه على الإطلاق، ولعلَّ هذا يفسِّر سؤال يسوع له: "أتضعُ نفسكَ عنِّي..." (١٣: ٣٨). لكنْ رغمَ ما قاله يسوع في تعليمه مِرارًا وتَكرارًا عن ضرورة موته من أجل خطايا البشر، فإنَّ ذلك لم يستقرَّ في أذهان التلاميذ، وهو ما يجعل يسوع يستعجب: "أنا معكم زَمانًا هذه مدَّتُه ولم تَعرفْني يا فيلبُّس!" (١٤: ٩). عبارةُ تعجُّبٍ قاطعة تكشفُ عن حقيقةٍ مُفزِعة. بعد كلِّ هذا الوقت معهم؛ ومع كلِّ العناية التي منحَهم إيَّاها، يكونُ لسانُ حال يسوع:

"أنتم لا تعرفونني حقًّا، ولم يكن لكم معي هذا اللقاءُ الشخصيُّ العميق الذي تحتاجون إليه". لم يكن لدى الرُّسُل فهمٌ كافٍ لقلوبهم، والأسوأ أنَّهم لم يفهموا قلبَ يسوع ومقاصدَه على نحوٍ كافٍ.

يا له من موقفٍ مخيف! هؤلاء هم الأشخاص الذين اختارهم يسوع بنفسه ليحملوا رسالتَه إلى العالم. ومع ذلك فهم لا يعرفونه حقًّا، في الوقت الذي سيُسلِّم نفسَه إلى الموت في اليوم التالي. أضِف إلى ذلكَ كلِّه أنَّ يسوع يعلمُ أنَّ تلاميذَه على موعدٍ مع موجة عاتية من الاضطهاد والمقاومة، تبدأ عند الصليب. أيُّ رجاء إذًا سيجعلهم يعرفون يسوع ويحملون رسالتَه إلى المستقبل؟ لكنَّ هناك رجاءً، ويسوع يكشف عن هذا الرجاء، وإن كان بطريقةٍ لا تخلو من غموض في البداية. اسمعه يقول للتلاميذ:

> "أنا أطلبُ من الآب فيعطيكم معزِّيًا آخرَ ليمكثَ معكم إلى الأبد، روح الحقِّ الذي لا يستطيعُ العالم أن يقبلَه، لأنَّه لا يراه ولا يعرفه، وأمَّا أنتم فتعرفونه لأنَّه ماكثٌ معكم ويكون فيكم. لا أترككم يتامى. إنِّي آتي إليكم. بعد قليلٍ لا يراني العالم أيضًا، وأمَّا أنتم فتَرونَني. إنِّي أنا حيٌّ فأنتم ستَحيَون. في ذلك اليوم تعلَمون أنِّي أنا في أبي، وأنتم فيَّ، وأنا فيكم... بهذا كلَّمتكم وأنا عندكم. وأمَّا المعزِّي، الرُّوح القدس، الذي سيرسلُه الآب باسْمي، فهو يعلِّمكم كلَّ شيء، ويذكِّركم بكلِّ ما قلتُه لكم. سلامًا أترك لكم. سلامي أعطيكم. ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا. لا تضطربْ قلوبُكم ولا ترهَبْ" (يوحنَّا ١٤: ١٦-٢٠؛ ٢٥-٢٧).

في هذا النصّ، يطرحُ يسوع العديدَ من الأمور اللافتة للانتباه. إنَّه يتحدَّث بشأن روح الله الذي سيأتي إلى التلاميذ. وكلُّ من قرأ نصوص العهد القديم يعلم أنَّ روح الله هو قوَّةٌ في هذا العالم مصدرُها الآب. لكنَّ يسوع يتكلَّم عن الروح على نحوٍ يفوق كثيرًا ما أَلِفوه وعرفوه.

بدايةً يقول يسوع إنَّ الروح ليس مجرَّد قوَّة، بل هو شخص. إذ تُشيرُ الأسماء في اللغة اليونانيَّة إلى نوعِها من حيثُ التذكيرُ والتأنيثُ أو الحياد، والكلمة اليونانيَّة المقابلة لكلمة "الروح" هي كلمة محايدة- لا مُذكَّرة ولا مؤنَّثة. لكنَّ يسوع هنا يتكلَّم عن الروح مُشيرًا إليه باللفظة "هو"- مؤكِّدًا أنَّه لا يتحدَّث بمجرَّد قوَّةٍ إلهيَّة غامضة. ما يقوله يسوع هنا إنَّه بعد أن يترك هذا العالم- مُسلِّمًا نفسَه إلى الموت- سيرسلُ الآب شخصًا آخرَ مكانه. الأمر الثاني الذي يقوله يسوع إنَّه سيتركُ التلاميذ وشخص الروح القدس سيأتيهم. "إن لم أنطلق، لا يأتيكم المعزِّي؛ ولكن إن ذهبتُ أرسله إليكم" (يوحنَّا ١٦: ٧). ومع ذلك يقول يسوع بمعنًى مُغايرٍ "آتي إليكم" (يوحنَّا ١٤: ١٨). بواسطة هذا الشخص (الروح القدس)؛ وعلى نحوٍ ما سيتمكَّن التلاميذ من رؤية يسوع، حتَّى لو لم يرَه العالم، حيث إنَّه لن يكونَ حاضرًا بجسده. بمعنى من المعاني سيذهب يسوع عنهم، لكنْ بمعنًى آخر سيظلُّ حضورُه باقيًا بواسطة هذا الشخص الذي يرسلُه الآب.

مَن هذا الشخص إذًا؟ يسمِّيه يسوع "المعزِّي الآخر". ويكادُ هذا الاسم يختلف في كلِّ ترجمة. تستخدم ترجمة "King James" الإنكليزيَّة لفظة "Comforter" (وتقابلها المعزِّي في العربيَّة)، بينما تستخدم ترجمات أخرى

لفظة "Helper" (وتعني في العربيَّة المعين أو الناصح) أو لفظة "Counselor" (وتعني في العربيَّة المرشد). وعندما تجد الترجمات متباينةً في ما بينها على هذا النحو، فذلك غالبًا لأنَّ معنى الكلمة الأصليَّة هو غايةٌ في التعقيد والثراء بحيث يصعب نقلها إلى كلمة واحدة. فكلمة "Comforter" (المعزِّي) تحصر تفكيرك في شخصٍ يمسكُ بيدَيك ليواسيَك، أو مشير يستمع لك فقط، بينما تستَدعي لفظة "Helper" (المعين) إلى الذهن صورة طفل أو مساعد غير مؤهَّل يقدِّم مساعدتَه إليك. ولعلَّ ذلك كان من بين الأسباب التي دعَتِ القائمين على الترجمة الإنكليزيَّة (NIV) إلى استخدام لفظة "Advocate"، وهي مصطلح قانونيٌّ يُستخدَم أحيانًا للإشارة إلى المحامي الذي يُمثِّلكَ في ساحة القضاء. وهذه الترجمة تُفصِح عن أبعاد مختلفة لهذه الكلمة الثريَّة.

الكلمة اليونانيَّة المستخدمة في هذا النصِّ هي "پاراكليط" (Paraklete)، وهي اسمٌ الفعلُ منه هو "پاراكاليو" (Parakaleo). وتعني كلمة "Kaleo" "يستدعي شخصًا" أو "يُوجِّهه". أمَّا "Para" فتعني "يسيرُ جنبًا إلى جنب" بغرض المساندة. وربَّما تكون قد لاحظت هنا بعضَ التوتُّر بين المعاني؛ فاستدعاء شخصٍ ما هو فعل قويٌّ وإيجابيّ، وليسَ سلبيًّا. وعندما تستدعي شخصًا، فأنتَ تُرشده إلى حقٍّ ما أو توجِّهه إلى هدفٍ ما، وهنا أنت ليس فقط تتكلَّم إلى هذا الشخص؛ ولا تكتفي بمجرَّد الطلب منه، بل أنت أيضًا تدفعُ في اتِّجاهِ أمرٍ ما. من ناحيةٍ أخرى، فإنَّ "السير بمحاذاة شخص" يعني أن تكونَ متعاطفًا مع هذا الشخص، وأن تكونَ في علاقة به، وأن تتوحَّد معه، آخذًا مكانه. لذا يتلاحمُ في هذه الكلمة معنى

"التحدِّي الذي تحمله النبوَّة" مع معنى "الدعم الذي يأتي به الكهنوت"*.

لذا فكلمة "Counselor" (المرشد) تفي بالغرض، إنْ فكَّرنا في دلالتها بصورةٍ محدَّدة. وفي أيَّامنا هذه، عندما تفكِّر في هذه الكلمة، فإنَّها تستدعي سريعًا إلى الذهن معنى "المعالج". غير أنَّ من الأفضل لنا في السياق الذي نتحدَّث فيه أن نفكِّر في الكلمة بمعنى "مُرشد يقدِّم نصيحةً قانونيَّة" أو محامي دفاع. الأمر المؤكَّد أنَّ محاميَ الدِّفاع الخاصَّ بكَ هو متعاطفٌ معك ويقفُ في صفِّك. ولكنَّه موجود معك، ليسَ فقط ليعزيك. في الواقع، قد تكون لدى محامي دفاعك من الأمور الصعبة التي يقولها لكَ ليتحدَّاك بها، ولكنَّه يفعل ذلك دائمًا لمصلحة دعواكَ وقضيَّتك. وهذا المحامي ليس فقط يتحدَّث معكَ، بل هو أيضًا يتحدَّث إلى السُّلطاتِ نيابةً عنكَ. ولعلَّ ذلك كلَّه ما يجعل الترجمات التي تستخدم لفظة "Advocate" (أو مُحامي) صائبةً، في ظنِّي.

تلكَ هي الطريقة التي يستخدمها يسوع في رسم ملامح الروح القدس ووصفه له بهذه الكلمة. لكن علينا أن نلحظَ أيضًا أنَّ يسوع يُسمِّي الروح القدس محاميًا (أو معزِّيًا أو ناصحًا) آخر. مَن إذًا المحامي الأوَّل؟ الموضع الوحيد الآخر في كلِّ العهد الجديد الذي تستخدم فيه كلمة "پاراكليط" هو ١يوحنَّا ٢: ١-٢ الذي يقول نصُّه: "وإنْ أخطأ أحدٌ، فلنا شفيعٌ [پاراكليط] عند الآب، يسوع المسيح البارُّ وهو كفارةٌ لخطايانا". لذا، فيسوع هو المحامي الأوَّل، والروح القدس هو المحامي الثاني.

---

* قد يكون المعنى الذي يُشير إليه الكاتب هنا هو وظيفتَي "التبكيت" و"التعزية" المرتبطَتَين بعمل الروح القدس. وقد كانت وظيفةُ النبيِّ في العهد القديم أن يحملَ الله إلى الناس، مع ما يرتبطُ بذلك من معاني التوبيخ والكشف التي يتحدَّى بها الله شعبَهُ بُغية تغييره. أمَّا وظيفةُ الكاهن فكانت أن يحملَ الناس إلى الله، حاملًا إيَّاهم (بآلامهم وأتعابهم) أمام عرش الله بغيةَ دعمهم وتشديدهم (المترجم).

رغبتي أن تعلمَ أنَّ هذه الكلمة (Advocate, Counsellor) تحملُ في طيَّاتها ليس فقط مفتاحَ فهمِ عمل يسوع على الصليب، بل أيضًا فهم ما يعمله الروح القدس في قلوبنا. وفي الحقيقة، قناعتي هي أنَّك إنْ لم تدركْ أنَّ يسوعَ كان المحاميَ الأوَّل، فلن يمكنَك بتاتًا أن تستوعبَ عمل الروح القدس بوصفه المحاميَ الثاني. وهنا كان الحلُّ للمشكلة التي رآها يسوع في العُلِّيَّة تلك الليلة. رجالٌ بعد ثلاث سنوات من التعليم والعلاقة الوثيقة كانوا لا يزالون غير فاهمين عملَه، وغير عارفين شخصه معرفةً عميقة. فلنتأمَّلْ أوَّلًا في ما تعلنه لنا هذه الكلمة من جهة عمل يسوع، ثمَّ ننظرْ بعدها في ما تكشفُه لنا عن عمل الروح القدس.

ماذا فعلَ يسوع على الصليب؟ ربَّما تجيب: "هذا سؤالٌ سهل. لقد ماتَ عن خطايانا، وهذا معناه أنَّ خطايانا غُفِرَت". لكنَّ يسوع عندما يدعو نفسَه "مُحاميًا" في العُلِّيَّة، فهو يريد أن يقول لنا إنَّ موتَه أحدثَ تغييرًا جذريًّا يتجاوز ما يردُ في تلك الإجابة السهلة. المعنى الأوَّل الذي توحي به الكلمة هو أنَّ هناك محكمةً قضائيَّةً في مكانٍ ما- محكمة إلهيَّةً كونيَّة يقفُ أمامَها الجميع. لكنْ ربَّما يقول لي أحدُهم: "اسمع، أنا شخصٌ مُفكِّر، وأتشكَّك كثيرًا في فكرة وجود قضاء إلهيّ". امنحني فقط لحظةً لأُثبتَ لك أن هناكَ فعلًا قضاءً رغم كلِّ شيء.

إنَّ أحدَ أكثر المشاهد رُعبًا في الأدب كلِّه- من وجهة نظري- هو مشهد من مسرحيَّة آرثر ميلر (Arthur Miller) بعنوان "**وفاة بائع متجوِّل**" *(Death of a Salesman)*. يعملُ ويلي لومان (Willy Loman) بائعًا متجوِّلًا ويشعر بأنَّه فاشل

تمامًا. ويؤدِّي به رثاؤه لنفسه لأن يخونَ زوجتَه على نحوٍ متكرِّر في أثناء ترحاله للعمل، محاولًا أن يسوِّغَ ذلك، كما يفعل الرجال بقَوله: "إنَّ حياتي صعبة" أو "لا تعني هذه العلاقات العابرة لي شيئًا"- وما إلى ذلك.

لعلَّ عزاءه الوحيد في الحياة هو أنَ ابنه بيف (Biff) كان يكنُّ له الكثيرَ من الإعجاب. لكنْ في أحد الأيَّام، دخل بيف على والده في إحدى غرف فندق ما ليجدَه مع امرأة، ويا له من مشهدٍ فاجع عنده! في البداية حاول ويلي أن يتباهى مُتبجِّحًا، فيقول: "اسمع يا بيف! عندما تكبر، ستفهمَ هذه الأمور". وما كان من بيف إلَّا أن حدَّق فيه. وبعد ذلك حاول ويلي أن يستأسدَ على ابنه، مخبرًا إيَّاه بأنْ ينسى هذا الحادثَ تمامًا، فيقول له: "هذا أمر منِّي!" ولكن عندما هرولَ بيف بعيدًا عن المكان وهو يصرخ ناعتًا أباه بالكذَّاب و"المزوِّر التافه"، خرَّ ويلي على ركبتَيه، بعد أن تعرَّتْ نفسه من كلِّ تسويغاته. عندما أقرأ هذا المشهدَ، تسري في أوصالي قُشَعريرة. إنَّ كلَّ أعذار ويلي وتسويغاته تتهاوى في عين بيف البريئة التي ترى الآن الأمور على حقيقتها. يُناور ويلي ويداور، ولكن سخريته وخداعه لنفسه وتسويغاته الزائفة تتهاوى جميعها، تاركةً إيَّاه عاريًا أمام هذه العيون الأمينة.

انتبه لي الآن: هناك موضع في الأصحاح الثاني من رسالة بولس إلى أهل رومية نقرأ فيه أنَّ الناس جميعًا يؤمنون في قرارة نفوسهم بأنَّ هناك عينًا إلهيَّةً تنظرُ إليهم هكذا. لكنَّ هذه العين أكثر قدرةً على الاختراق، وأكثر عدلًا وأمانةً من عيون بيف بما لا يقاس. وعندما نمثُلُ أمامَ هذه العين، فإنَّ كلَّ أعذارنا ستتلاشى. بالتأكيد هناك العديد من الناس الذين يقولون: "أنا لا أصدِّق

أنَّ هناك ما يُسمَّى العدالة الإلهيَّة. وإيماني هو أنَّ الصواب والخطأ أمورٌ نسبيَّة تختلف باختلاف الناس والثقافات". لكنْ بعد أن تقولَ ذلك، أليس صحيحًا أنَّك في اللحظة التالية تتصرَّف كأنَّ هناك عدالةً وقضاء؟ إنْ رأيتَ شخصًا يعاملك بكلِّ قسوة- رغم أنَّه لا يفعل أيَّ شيء غير قانونيّ- ألا تشعرُ بأنَّ ما يفعله هذا الشخص خاطئ بغضِّ النظر عن تصوُّره هو لما يفعلُه؟ أنت لا تقول لنفسك هنا: "ما فعله هذا الشخص خطأ، وَفقًا لمشاعري الأخلاقيَّة، لكنْ عنده قد لا يكون الأمر كذلك". بل بالفطرة أنتَ تعرفُ أنَّ هناك شيئًا خاطئًا في ما فعله هذا الشخص، حتَّى لو كانت ثقافتُه أو عائلتُه أو مشاعرُه تصدِّق على هذا الفعل. حتَّى لو بدا الأمر لهذا الشخص طبيعيًّا، فنحن نعلم أنَّ هذا يجب ألَّا يحدث. وما هو طبيعيٌّ يمكن أن يكونَ خاطئًا، فقط إنْ كان هناك معيار "فائقٌ للطبيعة" يمكن به تقييم الأمور. لا يمكن الهروب من تلك الحقيقة: أنَّ هناك ساحةَ قضاءٍ لنا جميعًا.

هذا ما يُعلِّم به الكتاب المقدَّس، أنَّنا جميعًا سنُسلَّم إلى القضاء. هنا بالفعل معيارٌ لحياتنا علينا أن نعيشَ بموجبه. لكنْ ها هي الكارثةُ التي نواجهها. إنْ كان الكتاب المقدَّس مُخطئًا ولا يوجد فعلًا إله؛ وإنْ لم تكن هناك فعلًا ساحةُ قضاء، وكان العنف والظلم مجرَّدُ أمورٍ طبيعيَّة، فأيُّ رجاء إذًا يوجدُ لهذا العالم؟ لكنْ إنْ كانت هناك فعلًا ساحة قضاء، فما الرجاءُ المتاح لكَ ولي؟ ليس هناك شخصٌ في وُسعه أن يعيشَ وَفقًا للمعيار الذي يضعُه هو لنفسه، فما بالك بالمعايير التي وضعَها الله؟ انظر إلى تلك القاعدة الذهبيَّة: افعل بالآخرين ما تُريدهم أن يفعلوه بكَ. الجميع يسلِّمون بهذه القاعدة، لكنْ من ذا الذي يُنفذِّها فعلًا؟

كيف ترى الضمير؟ وَفقًا لما قاله الرسول بولس في رسالة رومية الأصحاح ٢، فإنَّ الضمير يشبِهُ جهازَ استقبالٍ لاسلكيًّا يلتقطُ الإشارات التي يرسلُها كرسيُّ العدالة. ربَّما تقول لنفسك: "آه، السبب الذي يجعلني دائمًا أشعر بالذَّنب هو أُمِّي. هي مَن زرعت فيَّ هذا الإحساس". ولكنَّك بعد أن تتلقَّى الكثير من العلاج النفسيّ، تظلُّ تشعرُ بالذَّنب- فلماذا ذلك؟ حسنًا، قد تؤدِّي الخلفيَّة العائليَّة المتواضعة إلى تعرُّض الضمير للاعوِجاج، فتجري المبالغة في بعض الأمور ويُقلَّل من حجم ردِّ الفعل في أمورٍ أخرى- لكنَّ عائلتك لم يكن في وُسعها أن تخلقَ فيك الشعورَ بالذَّنب في الأساس؛ إنَّ ما تفعله العائلة فقط هو إصابةُ الضمير بالأزمة. يكتب بولسُ الرسولُ قائلًا إنَّ أولئك الذين لا يعرفون ناموس (قانون) الله ولا يؤمنون به- مع ذلك- "يُظهرون عملَ الناموس مكتوبًا في قلوبهم، شاهدًا أيضًا ضميرهم وأفكارهم فيما بينها مشتكيةً أو محتجَّةً" (رومية ٢: ١٥). من هنا فإنَّ وجود هذا القضاء الإلهيِّ لن يُمثِّل لنا مشكلةً لاحقًا، ولكنَّه يُمثِّل مشكلةً لنا الآن. وكلُّ ما نفعله إزاءَ الضمير أنَّنا نمنحه أسماء تمكِّننا فقط من توجيه اللوم إلى الآخرين بسببه- ومنها مثلًا "الافتقار إلى تقدير النفس" أو "الإحساس بالخزي أو الذَّنب"- لكنْ في حقيقة الأمر فإنَّ هذه المحكمة الإلهيَّةَ هي التي تفصحُ عن نفسها بالضمائر الصحيحة لتظهرَ في مشاعرنا وفي فهمنا لأنفسنا كلَّ دقائقِ صَحْوِنا. حتَّى عندما نتحرَّر من المعايير التى أرساها الأبوان أو المعايير الثقافيَّة المفروضة بالقهر- حتَّى عندما نُتركُ وحدَنا مع معاييرنا الأخلاقيَّة التي اخترناها لأنفسنا بكلِّ حرِّيَّة- فإنَّنا نظلُّ نشعرُ بأنَّنا موضعُ اتِّهام. هناك صوتٌ ما داخلنا يخبرنا بأنَّنا حمقى ومخادعون وفاشلون، وبأنَّنا لسنا على الصورة التي ينبغي أن نكونَ عليها.

لذا فنحن نعلمُ في قرارة نفوسنا أنَّ هذه المحكمة موجودة، تمامًا كما يُخبرنا الكتاب المقدَّس بأنَّها موجودة. كما نعلم أيضًا أنَّ حالتَنا لا تسمح لنا بأن نقف أمام هذه المحكمة وحدَنا. وعندما يقول الكتاب إنَّ يسوعَ محامٍ، فهو يفترض وجودَ ساحةِ قضاء وأنَّنا يجب أن نمثُلَ أمامها ونفعلَ شيئًا ما حيالها. هذا هو المعنى الأوَّل الذي تُوحي به كلمة "محامي".

أمَّا المعنى الثاني الذي توحي به هذه الكلمة فهو أنَّ يسوع المسيح ليس في الأساس نموذجًا للسلوك الأخلاقيّ (على الرغم من أنَّه كذلك بالفعل)؛ كما أنَّه ليس مجرَّد شخص مُحِبٍّ يدعمُنا (على الرغم من أنَّه كذلك أيضًا). هذه الأمور تفيدنا، لكنَّها في ذاتها تقصرُ عمَّا نحتاج إليه. إنْ كان لهذه المحكمة وجود؛ وإنْ كانت ضمائرنا تشهدُ عن حقيقة وجود هذه المحكمة، فإنَّنا نحتاجُ إلى محامٍ حقيقيٍّ.

فلنتأمَّلِ الآن في ما يفعله المحامي من أجلك. إذا اتُّهمتَ بجريمة وذهبتَ إلى المحكمة، فما المعنى الذي يُمثِّله لك وجود محامي الدِّفاع؟ هناك جانبٌ من الصواب في القول إنَّ محامي الدفاع في المحكمة التي تمثُل أمامها هو أنت. كما قال اللاهوتيُّ تشارلز هودج (Charles Hodge) مرَّة إنَّه في المحكمة تختفي أنتَ داخل مُحاميك. إنْ تلعثمْتَ في المحكمة وكان محاميكَ فصيحًا، فكيف ستبدو أمام الجميع؟ ستبدو فصيحًا. إنْ كنتَ جاهلًا وكان محاميك عبقريًّا، فكيف ستبدو في المحكمة؟ عبقريًّا. في بعض القضايا، قد لا يُطلب منكَ أن تتكلَّم أو حتَّى تأتي بنفسك إلى المحكمة. إنَّ محاميك يأخذ مكانك، ويكون بديلك. لذا، كيف يكون مظهرك في المحكمة؟ سيكون مظهرك هو

مظهرَ محاميك ذاتَه. وإنْ كسبَ محاميكَ القضيَّة، فأنت مَن كسبَها. وإنْ خسر محاميك القضيَّة، فقد خسرتَها أنت. خلاصة القول: أنتَ تفقدُ هُويَّتكَ في محاميك- أنتَ في محاميك.

الآن يمكننا أن نرى قوَّة دلالة ما يقوله يوحنَّا في ١يوحنَّا ٢: ١. يقول يوحنَّا إنَّك إنْ صرتَ مذنبًا أمام ساحة القضاء أو حتَّى أمام ضميرك، فما الذي تحتاج إليه؟ نموذج جيِّدٌ يُحتذى به؟ معينٌ يدعمك؟ هل تحتاج إلى شخص يمكنه أن يُريك كيف تستنهضُ قواك وتحاول مرَّة أخرى بصورة أكثر جدِّيَّة؟ أو شخص يقترب منك ليقول: "في وُسعك أن تفعلَ ذلك!"؟ هل تحتاجُ إلى شخص يعرف الناموس (القانون) ليخبرَك بالكيفيَّة التي تجاوزتَه بها؟ أجل، أنتَ تحتاج إلى كلٍّ هؤلاء، ولكنَّهم ليسوا احتياجَك الأساسيّ. إنَّك تحتاجُ ليس فقط إلى محامٍ جيِّد، بل إلى المحامي الكامل الذي سيقفُ عنكَ أمام الآب.

لكنَّ علينا الآن أن نفكِّرَ في الأبعاد الأخرى لهذه الاستعارة. إذا وجِّه إلينا الاتِّهام في المحكمة، فنحن نحتاج ليس فقط إلى محامٍ فصيحٍ وذكيّ، بل إلى محامٍ يملك حُجَّةً يقدِّمها إلى المحكمة.

في أيَّامي الأولى بعد قراري اتِّباعَ يسوع المسيح، عرفتُ تلك الفكرة القائلةَ إنَّ يسوع المسيح على نحوٍ ما يشفعُ فيَّ أمامَ الآب. عرفتُ ذلك من رسالة العبرانيِّين التي تصوِّرُ يسوعَ بوصفه رئيسَ الكهنة العظيم الذي يقف عنَّا أمام الآب، تمامًا كما كان يفعل الكهنة للشعب في العهد القديم. وعندما تعرَّفت للمرَّة الأولى حقيقةَ أنَّ يسوع المسيح يقف نيابةً عنِّي أمام الآب، جعلني ذلك أفكِّر في يسوع بينما يقف أمام العرش ويتحدَّث إلى الآب على نحو من قبيل:

"صباح الخير يا أبي، أنا أُمثِّل تيموثي كَلِر. وأنا أُقِرُّ بأنَّ عميلي أمضى أسبوعًا غايةً في السوء، وقد تجاوزَ ثلاثةَ أو أربعةَ تعهُّدات كان قد قدَّمها لكَ سابقًا. كما تجاوزَ العديدَ من وصاياك التي يعرفها ويعترف بها. لقد أخطأ كثيرًا هذا الأسبوع. وهو يستحقُّ العقوبة- لكن، اعفُ عنه من فضلك يا أبي، لأجل خاطري. أنا أطلب منك أن تمنحه فرصة ثانية". هذا ما تخيَّلتُ أنْ يقولَه يسوع؛ كما تخيَّلتُ أيضًا أن يكونَ ردُّ الآب "حسنًا. لأجل خاطرك، سأمنحه فرصةً أخرى هذه المرَّة".

المشكلة في هذا السيناريو التخيُّليِّ أنَّ يسوع هنا لا يملك حُجَّة، وكلُّ ما يفعله هو التوسُّل طلبًا لفرصةٍ ثانية. وأتذكَّر أنِّي فكَّرتُ مرَّةً في نفسي "ترى، حتَّى متى يمكنُ ليسوعَ أن يفعلَ ذلك؟" وكنتُ أتساءل متى سيقول الآب أخيرًا: "فاض الكيل! هذا يكفي" لكنَّ خيالي كان مبنيًّا على معلومات خاطئة. لا يكفي في المحامي أن يحاولَ التأثيرَ في عواطف القاضي، أو يحاول تأخيرَ إصدار الحكم، أو التحجُّج ببعض المسائل الفنِّيَّة في القضيَّة. لا يحتاج المحامي إلى التلاعب بالعواطف، ولكنَّه يحتاجُ إلى حُجَّة. وهذا تمامًا ما كان يملكُه يسوع.

لكنْ، ما حُجَّته؟ يسترسل يوحنَّا ليُطلِعنا على ذلك في ١يوحنَّا ٢: ٢. بدايةً يقول يوحنَّا إنَّ يسوع هو "كفَّارة لخطايانا". عندما يقف يسوع أمام الآب، فهو لا يطلب في الواقع رحمةً لنا. بالتأكيد كانت رحمة الله لامتناهية عندما أرسلَ يسوعَ المسيح ليموتَ عنَّا، لكنَّ هذه الرحمة مُنِحَتِ الآن ولا حاجة ليسوع لأن يتوسَّلَ طلبًا لها مرَّةً أخرى. يقول الكتاب في ١يوحنَّا ١: ٩ "إنِ اعترفْنا

بخطايانا، فهو أمينٌ وعادل حتَّى يغفرَ لنا خطايانا". لاحظ أنَّ الآيةَ لا تقولُ إنَّ الله بموجب رحمته سيغفر للمسيحيِّين الحقيقيِّين ويعطيهم فرصةً ثانيةً إنِ اعترفوا بخطاياهم. لا، بل تقول إنَّ الله يغفر لأنَّه أمين وعادل. معنى ذلك أنَّ الله لن يكون عادلًا إنْ لم يغفر لنا خطايانا. كيف يُعقَل ذلك؟

إنْ كنتَ محاميًا، فالطريقة المثلى التي تأتي بها بالبراءة إلى موكِّلك ليست أن تأملَ الحصولَ على بعض التعاطُف من المحكمة، بل أن تُرِيَ المحكمةَ أن موكِّلك يجب تبرئته بموجب القانون. لو كنتَ في مكان المحامي، فأنت تسعى لأن تقولَ للمحكمة بكلِّ صدقٍ واقتناع: "هذا هو القانون، والقانون يطلب تبرئة ساحة موكِّلي". يريد المحامي أن يقدِّم حُجَّة تستند ليس إلى ما يمكن أن تشعر به هيئة المحكمة، بل حُجَّة يفتح بها القضيَّة ويُغلقها وَفقًا للقانون. ويسوع لديه حُجَّة! يمكن ليسوعَ أن يقولَ مخاطبًا الآب: "أيُّها الآب، لقد أخطأ شعبي، والناموس يُقرُّ بأنَّ أجرة الخطيَّة هي موت. ولكنِّي دفعتُ ثمنَ هذه الخطايا. انظر، هذا دمي، علامة موتي! على الصليب وفَّيتُ تمامًا كلَّ العقوبة المستحقَّة بسبب هذه الخطايا. ومن غير العدل أن تكونَ هناك عقوبتان للخطيَّة ذاتها. لذا يا أبي، لا أطلب رحمةً لهؤلاء، ولكنِّي أطلبُ العدل".

إن كان ما يقوله يسوع صحيحًا، فليست هناك أيَّة ثغرةٍ في قضيَّته، وهي مضمونةُ النجاح. ولهذا السبب كان في وُسع يوحنَّا أن يقولَ إنَّه عندما يعترفُ المسيحيُّون المؤمنون بخطاياهم، فإنَّها تُغفَر لهم لأنَّ عدالة الله تُقرُّ ذلك. كلُّ فلسفةٍ أخرى وكلُّ ديانةٍ أخرى في العالم تنظر إلى الحياة في ضَوءِ ميزان العدالة. هل تذكرُ صورةَ تلك السيِّدة معصوبة العينَين التي تُمسِك بميزان العدالة؟ في

هذه الصورة المجازيَّة أنتَ تقفُ على أحد جانبي الميزان، وفي الجانب الآخر يقفُ ناموس الله. ويقولُ ناموس الله لك بكلِّ بساطة: "ضعْ الله أوَّلًا. أَحِبِ الجميع. وأَطِعِ القاعدةَ الذهبيَّة". ويُثقِّلُ ناموسُ الله الكفَّة التي وُضعَ فيها ويشدُّها بقوَّةٍ نحو الأسفل. لذا عليك- من وجهة النظر تلك- أن تقضيَ بقيَّة عمرك تحاول جاهدًا أن تُراكمَ الأعمالَ الصالحةَ مع حياةٍ مهذَّبة على جانب الميزان الذي تقفُ فيه، حتَّى تستعيدَ التكافؤ بين الكفَّتَين. بعباراتٍ أخرى، فإنَّ ناموس الله يقفُ لك بالمرصاد، ومن الأفضل لك أن تحيا حياةً صالحة وإلَّا فإنَّك تجدُ نفسَك أمامَ كفَّة الناموس الراجحة التي يتجاوز وزنها وزنَ أعمالك، فتكون نهايتك. ودائمًا ما يشيرُ ناموسُ الله في اتِّجاه دينونتك، وليس أمامك إلَّا أن تُرجِّحَ كفَّتَك أو تعادل كفَّة الناموس بأعمالك الصالحة.

لكنِ انتبه الآن: إنْ كان يسوع هو مُحاميك، فإنَّ ناموس الله يقف في صفِّك تمامًا. الناموس في هذه الحالة يقفُ على جانب الميزان الذي تقفُ أنتَ فيه. فعندما تضع إيمانك في يسوع، قائلًا من قلبِك: "يا أبي اقبلني بناءً على ما فعله يسوع"، فإنَّ عملَ يسوع على الصليب يصيرُ رصيدك. وفي هذه الحالة، يطالبُ ناموس (قانون) الله بتبرئة ساحتك. هذا هو السبب الذي جعلَ يوحنَّا يدعو يسوع "المحامي" (الشفيع)، بل يدعوه أيضًا "البارّ". وتوحي هذه العبارة لنا أنَّ الله عندما ينظر إليكَ، إنْ كنتَ مسيحيًّا حقيقيًّا، فهو يراكَ "في المسيح". إنْ وقفتَ وحدَك على إحدى جانبي الميزان، فأنت خاطئ، ولكنَّكَ في يسوع كاملٌ وجميلٌ وبارّ. وأنتَ هنا تفقدُ هُوِيَّتَكَ في محاميك.

كتبَ بولس الرسول في ٢كورنثوس ٥: ٢١ قائلًا: "لأنَّه جعلَ الذي لم يعرفْ

خطيَّةً خطيَّةً لأجلنا لنصيرَ نحن برَّ الله فيه". معنى ذلك أنَّ يسوع الذي لم يكن في شخصه خاطئًا، ولكنَّه عُومِل كأنَّه خاطئٌ وأخذَ عقوبةَ الخطيَّة على الصليب وجعلنا نحن مَن آمنَّا به- الذين لسنا في ذواتنا أبرارًا أو كاملين- نقف أمامَ الآب الذي عاملنا كأنَّنا أبرار، لابسين الكمال والجمال، فقط من أجل يسوع.

ما عملُ المحامي الأوَّل إذًا؟ عمله أن يقفَ أمام الآب ويقول له: "انظر ماذا فعلت. والآن اقبلهم فيَّ". إذًا، ما عمل المحامي الثاني- الروح القدس- الذي وعدَ يسوعُ تلاميذَه أن يرسلَه إليهم؟ وهنا تَذكَّر أنَّك لن تفهمَ بتاتًا عمل المحامي الثاني قبل أن تفهمَ عمل المحامي الأوَّل. يقول كثيرون إنَّ الروح القدس يمنحنا قوَّةً، وهذا صحيح، ولكن كيف يفعلُ ذلك؟ هل كلُّ ما يفعله الروح القدس أن يغمرَنا بمستويات أعلى من الطاقة؟ لا! عندما أسماه يسوع "المعزِّي" (المحامي) الآخر، فقد أعطانا يسوع مفتاحًا لفَهْم ما يفعله الروح القدس عندما يمنحنا القوَّة.

يتحدَّثُ المحامي الأوَّل مع الله لمصلحتك، أمَّا المحامي الثاني فهو يتحدَّثَ إليكَ لمصلحتك. في أثناء خطاب يسوع الوداعيّ، يكرِّر أنَّ عملَ الروح القدس هو أن يأخذَ كلَّ ما فعله يسوع لأجلنا- أي كلَّ الأمور التي عسرتْ على فهم الرسل في ذلك الوقت- و"ليعلِّمهم" و"يذكِّرهم" ويُمكِّنهم من فَهْم كلِّ ما علَّمهم يسوع إيَّاه عن عمله الخلاصيّ (يوحنَّا ١٤: ٢٦). ذكر اللاهوتيّ جاي. آي. باكر (J. I. Packer) ذاتَ مرَّة أنَّ خدمة الروح القدس تُشبه كثيرًا الكشَّاف: إذا مررتَ بمبنًى ليلًا، وكان مُضَاءً بنور الكشَّاف، ستقول: "انظر إلى هذا المبنى الجميل". ربَّما لا ترى مصدرَ الضَّوء ولا تعرف من أين يأتي. إنَّ

وظيفةَ الكشَّاف لا أن يُريكَ نفسه، بل يُريكَ جمالَ المبنى، ويُبرِز كلَّ معالمه.

في العُلِّيَّة وفي الليلة الأخيرة قبل الصليب، لم يكن لدى الرسل بعد أدنى فكرة عن مدى محبَّة يسوع لهم، والتكلفة التي سيدفعها تعبيرًا عن محبَّته لهم، وما الذي ستحقِّقه هذه المحبَّة لهم. كان كلُّ ذلك غامضًا عليهم. لذا، فمع أنَّهم عاشوا فعلًا مع يسوع مدَّة ثلاث سنوات، فإنَّهم لم يلتقوا حقًّا يسوعَ الحقيقيّ. كانوا لا يزالون حتَّى تلك اللحظة لا يعرفونه جيِّدًا. لكنَّ الروح القدس سيأتي؛ والروح القدس لن يكتفيَ في مهمَّته بأن يمسكَ أياديهم ليواسيَهم أو يمنحهم بعضَ الطاقة- ولكنَّه سيعلِّمهم على نحوٍ أعمق الحقَّ الذي من شأنه أن يُغيِّر الحياة، وسيساعدهم أن يرَوا عمقَ خطيَّتهم (يوحنَّا ١٦: ٩). كما سيُظهر لهم الروح القدس ما فعله يسوع حقًّا من أجلهم.

تعجبني تلك الحقيقة، أنَّ الروح القدس ليس مجرَّد "مُعلِّم"، بل هو أيضًا "محامٍ". فمع أنَّ اسمَه هو "روح الحقّ"، فإنَّه لا يكتفي بتعليمنا وإطلاعنا على الحقّ، بل هو أيضًا يدعونا لأنْ نعيشَ وَفقًا لما يعلِّمنا إيَّاه. كذلك يُبكِّتنا الروح القدس ويتحدَّانا (يوحنَّا ١٦: ٨-١١). لسانُ حال الروح القدس: "أنتَ خاطئ- هل تعيش بالتَّواضع والاتِّكال على الله الذي يتوافقُ مع هذه الحقيقة؟ لكنَّك أيضًا بارٌّ في المسيح- وأنت مقبول ومتبنًّى في عائلة الله. هل تحيا حياةَ الثَّباتِ والحرِّيَّة التي تتناسبُ مع هذه الحقيقة؟ هل أنتَ حرٌّ من الاحتياج إلى امتلاك السُّلطة والقبول من الآخرين والحصول على الراحة، كما ينبغي لك أن تكون حرًّا؟" يجادلُ الروح القدس معنا، ويشجِّعنا، ويطلبُ منَّا ويناشدُنا (وجميع هذه كلمات تُترجِم بالصواب كلمةَ "پاراكاليو") أن نحيا حياتَنا بما

يليقُ بمحبَّة المسيح- ما يليق بأبعاد هذه المحبَّة وما أنجزته لأجلنا. لذا يقول يسوعُ إنَّه بالروح القدس سوف "يُظهِر" نفسَه لتلاميذه (يوحنَّا ١٤: ٢١). سيراه التلاميذ، إذًا، ويختبرون حضوره بما يحملُه من محبَّةٍ لهم.

هل ترى نتائجَ ذلك ودلالاته؟ لم يعرِفِ الرُّسلُ- بل لم يستطيعوا أن يعرفوا- يسوعَ حقًّا حتَّى تركهم بالجسد وعادَ إليهم مرَّةً أخرى بالرُّوح القدس. يا له من أمرٍ مشجعٍ لكلِّ المسيحيِّين الحقيقيِّين! من الطبيعيِّ أن نظنَّ أنَّه كان من الأفضل لنا لو عشنا في أثناء زمن السيِّد المسيح والتَقَيناه فعليًّا وسمعناه بآذاننا ورأيناه بعيوننا. ربَّما تعتقد أنَّه كان في وُسعك أن تعرفَه أفضل بهذا الشكل ممَّا هو مُتاح لكَ الآن- لكنَّك مخطئ. قبل أن يُسلِّم يسوعُ نفسَه إلى الموت، لم يكن الروح القدس قد أُرسِل بعد إلى العالم بهذه القوَّة اللافتة، ويمكنُك الآن أن تعرفَ يسوعَ معرفةً كاملة بعمل الروح القدس وتأثيره، الذي في وُسعه أن يأخذَكَ عند الصليب ويُريَك علوَّ المحبَّة التي أحبَّنا بها يسوع وطولَها وعرضَها وعمقَها. بعباراتٍ أخرى، يمكنك هنا والآن، وبالروح القدس أن ترى السيِّدَ المسيح وتختبرَ حضورَه ومحبَّته أفضل بكثيرٍ ممَّا كان مُتاحًا للرُّسل في تلك الليلة في العُلِّيَّة.

إن كنتَ مسيحيًّا حقيقيًّا، فأغلب الظنِّ أنَّك لا تعيش كما لو كان ما ذكرتُه لكَ حقيقيًّا. وربَّما لا يسعُك أن ترى حجمَ ما هو مُتاح لك بواسطة الروح القدس. تخيَّل لو أنَّك بليونير، ومعكَ في حافظة نقودك ثلاث ورقاتٍ من فئة العشرة دولارات، ثمَّ استقلَلْتَ سيَّارةَ أجرة، وبعد أن خرجتَ منها منحْتَ السائق ورقةً واحدةً مقابل ثمانية دولارات هي أجرة السائق. ولكنَّك تنظر

بعد قليل في حافظة نقودك ولا تجد إلَّا ورقةً واحدةً من الورقات الثلاث، وهنا تقول لنفسك: "إمَّا أنِّي أسقطتُ سهوًا ورقةً من الورقات الثلاث في مكانٍ ما، وإمَّا أنِّي أعطيتُ سائقَ سيَّارة الأجرة ورقتَين منها". ماذا ستفعل آنذاك؟ هل ستصابُ بالإحباط؟ هل ستضيِّع كلَّ يومك؟ هل ستتوجَّه إلى الشرطة لتطلبَ منهم أن يبحثوا عن سائق سيَّارة الأجرة؟ لا، لن تفعل ذلك، ولن تهتمّ. لماذا؟ لأنَّكَ بليونير، وقد فقدتَ عشرة دولارات، فماذا يهمُّك في ذلك؟ أنتَ غنيٌّ إلى حدٍّ لا يجعلك تنزعجُ بسبب ما ضاع منكَ.

ربَّما تكون قد تعرَّضتَ هذا الأسبوع للنَّقد من شخصٍ ما، وربَّما اشتريت شيئًا أو حاولت الاستثمار فيه ووجدتَ أنَّ قيمة هذا الشيء أقلَّ ممَّا تصوَّرت، أو أنَّ هناك شيئًا خطَّطتُ لحدوثه ولم يحدثْ على النحو الذي خطَّطت له، أو أنَّ شخصًا ما اعتمدت عليه، فخذلك. هذه كلُّها خساراتٌ حقيقيَّة- خسارةٌ للسُّمعة، وللثَّروة، وخسارة جرَّاء خَيبة الأمل. لكن ماذا ستفعل، لو كنتَ مسيحيًّا حقيقيًّا؟ هل ستُفسِدُ هذه الخساراتُ عليك إحساسك بالرِّضى في الحياة؟ هل ستوجِّه قبضتك نحو الله وتهزُّها غاضبًا؟ هل ستضربُ أخماسًا في أسداس عند المساء؟ إن صحَّ كلُّ ذلك، فأنا أجزمُ أنَّ سببَ ذلك أنَّك لا تدرك مقدارَ غناك حقًّا. أنت لا تُنصت إلى محاميكِ الثاني عندما يحدِّثك بشأن محاميك الأوَّل، كما أنَّك لا تحيا في فرح؛ وأنتَ تنسى أنَّ العينَ الوحيدة الجديرة بالاهتمام في كلِّ هذا الكون لا ترى فيكَ ذاكَ "المزوِّر التافه" الذي كنتَه أحيانًا، وإنَّما ترى فيك كلَّ الجمال الفاتن. إنْ كنتَ محبَطًا بشأن وضعك في علاقتك بالآخرين؛ وإنْ كنتَ كثيرًا ما تُعنِّف الآخرين عندما يجرحون

مشاعرَك، ربَّما تُسمِّي ذلك ضعفَ السيطرة على النفس أو الافتقار إلى تقدير الذات، وهو كذلك فعلًا. لكنَّ السبب الجوهريَّ هنا وراء هذه السلوكيَّات هو أنَّك فقدتَ صلتَك بهُويَّتك الحقيقيَّة. بوصفك مسيحيًّا حقيقيًّا، أنت بليونيرٌ روحيًّا، ولكنَّك تتألَّم بسبب عشرة دولارات. وظيفة المحامي الثاني أن يحاجَّ معك داخل محكمة قلبك، ويقدِّم إليك الحُجَّة عن هُوِيَّتك الحقيقيَّة في السيِّد المسيح، ويقنعَك أنَّك غنيّ. أمَّا وظيفتك أنتَ فأن تنصتَ إلى محاميكَ.

لكن ما الذي يمكن أن يجعلك تُحسِنُ الاستماع؟ هذا موضوعٌ كبير، ولكنْ إنْ كنتَ مؤمنًا حقيقيًّا، فالرُّوح القدس سيقوم بعمله فيكَ "بوسائط النعمة"- وتشملُ قراءة الكلمة ودراستها بنفسك ومع مجموعة، والصلاة والعبادة، وممارسة الفرائض كالمعمودية وكسر الخبز (المناولة). إنْ كنتَ لا تمارس وسائط النعمة، فأنت لا تعطي "المعزِّي" (المحامي) الآخر الفرصةَ ليقومَ بعمله. أو إنْ مارست تلك الأمور دون تركيز وبصورة روتينيَّة، ستكون حاضرًا بالجسد ولكنَّك تغلق أذنَيكَ عن تعليم الروح القدس وتعزيته ونصحه وشفاعته.

إن كنتَ لا تختبرُ عمل المحامي الثاني فخسارتك فادحة. قال يسوع: "سلامي أترك لكم. سلامي أعطيكم. ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا". دون عمل الروح القدس، لا تستطيع أن تعرف يسوع ولا سلامَه. على أيِّ نحو يختلف سلام العالم عن سلام يسوع؟ أوَّلًا، كثيرًا ما نسمع أنَّ في وُسعنا أن نحصلَ على السلام إذا تجنَّبنا التفكير كثيرًا في أسئلة الحياة الكبرى. كان لي صديق منذ سنوات وكان يدرسُ الطبّ: وأخبرني بأنَّه في كلِّيَّة الطبّ، تعلمُ إلى أيِّ مدًى يُعَدُّ جسم الإنسان ضعيفًا جدًّا، وكيف يمكن للكثير من الأمور في

جسم الإنسان أن تصاب بالعطب وبسهولة، وكيف أنَّ هناك من حولنا الملايين من الڤيروسات والميكروبات المستعدَّة لأن تهاجمنا في أيِّ وقت. وذكر لي أنَّ ذلك كثيرًا ما أزعجَه. وعندما سألتُه عن الكيفيَّة التي تغلَّب بها على هذا الإزعاج، أجابني أنَّه فرضَ على نفسه ألَّا يفكِّر في هذا الأمر. إجمالًا، هذه هي الطريقة التي يعمل بموجبها "سلام" العالم. الحياة مزعجة وقاسية وقصيرة، وستموتُ بعد نهايتها. فلا تُفكِّر فيها إذًا! لكنَّ سلامَ المسيح يعمل في الاتِّجاه المعاكس، فهو لا يقلِّلُ التفكير، بل يجعلُك تفكِّر كثيرًا؛ فهو سلامٌ لا يقوم على تجاهل الواقع، بل على الانتباه إلى هذا الواقع. يخبرُك الروحُ القدس أنَّ الآب يُحبُّك، وأنَّ سعادتَك الأبديَّة مضمونة. بعباراتٍ أخرى، يمنحنا السيِّد المسيح أمورًا حقيقيَّة نُفكِّر فيها، ونغلب بها عتمةَ هذه الحياة، بينما لسان حال العالم لنا: "هوِّن عليك، فقط دندِن بصوتٍ مسموع وتجاهَل كلَّ شيء".

أيضًا سلام المسيح ثابتٌ وراسخ، أمَّا سلام العالم فهو مُتقطِّع، لأنَّه مرتبطٌ بالأحوال. فما دمتَ تحظى بإعجاب الناس، ورصيدك الماليُّ آمن، ووظيفتك سالمة؛ وإنْ كنتَ قد أبرمتَ صفقةً أو تعيش في بيئةٍ جميلة، فأنتَ تشعر بالسلام. لكنْ عندما تُضرَب البورصة، أو تفشل في أمرٍ ما، فإنَّك تفقدُ سلامَك، وتصابُ بالاضطراب. لماذا؟ لأنَّ سلامَك مشروطٌ بأحوالك.

سمعتُ مرَّة قصَّةَ واعظ من ويلز عاش في القرن الثامن عشر. في أيَّام مراهقته، وقفَ هذا الواعظ مع عائلته حول فراش الموت لإحدى عمَّاتِه. وكانت عمَّته في ماضيها تتمتَّع بإيمانٍ قويٍّ في ماضيها، ولكن كانت حينها تتعثَّر في إيمانها. وكان الجميع يظنُّون أنَّها فقدت الوعي، فما كان من أحدهم أنْ قال

بصوتٍ عالٍ: "يا للأسف! لقد عاشت حياة مُضنِية جدًّا؛ فقد شهدت وفاةَ زوجَين لها، وعاشت حياتها مريضة في الغالب، وفوق هذا كلِّه ماتت فقيرة". وفجأةً فتحت السيِّدة عينَيها، ونظرت حولها، وقالت: "مَن وصفَني بالفَقيرة؟ أنا غنيَّة، غنيَّة! وقريبًا جدًّا، سأقف أمامه ثابتةً كالأسد". وبعدها وافَتْها المنيَّة.

ومن الواضح أنَّ هذه اللحظة أثَّرت كثيرًا في نفسِ ذلك الشابّ. لقد كان لدى هذه المرأة السلامُ الذي تحدَّث به يسوع، لأنَّها أنصتَتْ إلى "المحامي". كان لسان حال هذه السيِّدة: "لديَّ الآن الزوج الوحيد الذي لا يُمكِن أن يموت، ولديَّ الثروة التي لن تَفنى بتاتًا. ومُخلِّصي تعاملَ منذ زمنٍ بعيد مع الخطيَّة- ذلك المرض الوحيد الذي يمكن حقًّا أن يقتلَني. كيف يمكنكم إذًا أن تَصِفوني بالفقيرة؟" لقد كان محاميها الثاني في هذه اللحظة يحدِّثها بشأن محاميها الأوَّل، فأمكنها أمام الخسارة الكبيرة أن تقولَ مع المرنِّم: "لا عليكِ يا نفسي".[٢٤]

وهذا ما يمكن أن تختبره نفسكَ أنتَ أيضًا. ربَّما يكون المحامي الثاني يتحدَّث إليكَ الآن. أعطه فرصةً ليقول لكَ: "نعم، يسوع هو مُحاميكَ. أليس هذا أمرًا بديعًا؟ ضعْ إيمانكَ فيه". إنْ وضعتَ إيمانكَ في عمل المسيح، فيمكنك أن تقفَ أمام عرش القضاء ثابتًا كالأسد. وهناك سيراك الله دون أدنى شائبة، وبلا عيب، وحينها سيمكنك أن تترنَّم:

فليفتح المشتَكي فاهُ عليَّ ويزأر
لخطايا فيها سقطتُ
أعرفها جميعًا، ألفًا منها وأكثر
لكنَّ ربِّي لا يعرفها قطُّ

وهذا عينه ما كان يسوع يخبر به تلاميذه في العُلِّيَّة. ذاكَ كانَ طوق النجاة الذي كان يقذفه لأولئك الذين خذلوه في حياته، وإن كانوا سيُغيِّرون العالم بعد موته. كان لسان حاله لهم "آمنوا بي واقبلوا الروح القدس عندما أذهبُ عنكم. أنصِتوا له جيِّدًا وهو يحدِّثكم بشأن حُجَّتي التي بلا ثغرة وقضيَّتي المضمونة، وهو سيمنحكم بِدَوره سلامًا مضمونًا". وسواءٌ كنتَ ترى نفسك أم لا تراها من النسل الروحيِّ نفسه الذي خرج من هؤلاء التلاميذ، فهذه الكلمات موجَّهة إلى الجميع.

الفصل الثامن

السيِّدُ المطيع

غالبًا ما ننظُر إلى الوقت الذي أمضاه يسوع في بستان جَثسَيماني قبل مَوته على أنَّه مثالٌ لافتٌ ومُبكِّتٌ على ضعفِ تلاميذه، الذين كانوا حتَّى الساعات الأخيرة غير مُدركين ما كان يسوع مُقبِلًا عليه. غير أنَّ ما جازت فيه نفسُ يسوع في هذه البقعة المظلمة لم يكن مجرَّدَ فاصلٍ ما بين أحداثٍ أهمَّ في دلالتها وتأثيرها. لقد حدث شيء في البستان جديرٌ بأن نقدِّم إليه تفسيرًا وافيًا. ربَّما لا يوجد في كلِّ الكتاب المقدَّس مشهدٌ يقدِّم إلينا نظرةً فاحصةً إلى حياة يسوع الداخليَّة ودوافعه وخبراته أكثرَ من هذا المشهد. إنَّ هذا المشهدَ يُلقي كثيرًا من الضَّوء على ثلاث إجابات لثلاثة أسئلة: لماذا مات يسوع؟ وكيف مات؟ وعلى أيِّ نحوٍ يجب أن نتجاوبَ مع ذلك؟ ويتساوى هذا الضَّوء في أهمِّيَّته مع الضَّوء الذي تُلقيه روايات الأناجيل الأخرى على بقيَّة الأحداث، بما في ذلك الأجزاء التي تصوِّر أحداث الصلب.

ولكي تكتملَ لدينا الصورة، يلزمنا أن نتأمَّل في الروايات المختلفة كما جاءت في بشائر متَّى ومرقُس ولوقا، وها هي بداية المشهد وَفقًا للبشير متَّى:

> "حينئذٍ جاء معهُم يسوعُ إلى ضيعةٍ يُقالُ لها جَثسَيماني، فقال للتَّلاميذ: «اجلسوا ههنا حتَّى أمضي وأُصلِّي هناك». ثمَّ أخذ معه بُطرُس وابنَي زبدي، وابتدأ يحزنُ ويكتئبُ. فقال له: «نفسي حزينةٌ جدًّا حتَّى الموت. امكُثوا ههنا واسهَروا معي»" (متَّى ٢٦: ٣٦-٣٨).

بدايةً أودُّ أن أتأمَّلَ في حجم الألم الذي جازَ فيه يسوع هنا. يجدُ كلٌّ من متَّى ومرقُس ولوقا الطريقةَ المناسبةَ التي يخبرونا بها بأنَّ حُزنَ يسوعَ واكتئابَه كانا بالِغَين، بل ربَّما يفوق توقُّعنا لما يجب أن يكونَ في هذه اللحظة. ويسجِّل متَّى كلمات يسوع التي يقول فيها: "نفسي حزينة جدًّا حتَّى الموت". لقد ذاقَ يسوع عذابًا داخليًّا، نفسيًّا لا يُحتمَل، حتَّى إنَّه استشعرَ أنَّ هذا الألم وحدَه يمكن أن يَقضيَ عليه في تلك اللحظة وفي هذا المكان.

"رجلُ الأوجاع" هي إحدى العبارات التي تشيرُ إلى يسوع؛ فقد رأيناه في مواضعَ كثيرة من حياته وهو يبكي ويتنهَّد ربَّما أكثرَ ممَّا رأيناه وهو يفرح ويبتهج. لكنَّ العبءَ الذي كان يحمله في البستان تجاوز في ثقلِه أيَّ عبء آخر. ويشير متَّى إلى أنَّ يسوع عندما ابتعد عن الجمع وأخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنَّا في اتِّجاه بستان جَثسَيماني "ابتدأ يحزنِ ويكتئب" (متَّى ٢٦: ٣٧). يحدث هذا التحوُّل في المشاعر في الطريق إلى البستان- ويبدو أنَّ هذا حدث على

نحوٍ سريع. فضلًا عن أنَّ هذا الألم النفسيَّ كان هائلًا إلى الحدِّ الذي جعلَ يسوع يظنُّ أنَّه سيموت، إلَّا أنَّ هذا الألم أصابه بالدَّهشة، وَفقًا لما جاء في بشارة مرقُس. يستخدم مرقس الكلمة اليونانيَّة "إكثامبيسثاي" *(Ekthambeisthai)*، والتي تعني أن يصيرَ الشخصُ في "حالةٍ انفعاليَّةٍ حادَّة بسبب مُؤثِّر يسبِّب دهشةً أو حَيرة بالغتَين".[٢٥] بعض الترجمات الإنكليزيَّة تسكتُ عن الإفصاح عن المعنى الكامل لهذه اللفظة، وتترجمها فقط مستخدمةً تعبير "تكدَّر أو اغتمَّ بشدَّة" (Deeply distressed). وظنّي أنَّ استخدام تعبيرٍ مثل هذا ربَّما يرجعُ إلى شعورنا بأنَّ يسوعَ لا يمكنُ أن يُصابَ بالدَّهشة من أيِّ شيء، إنْ كان فعلًا صادقًا في ما يقوله عن نفسه إنَّه ابنُ اللهِ الأزليُّ الذي جاء إلى أرضِنا. كيف يمكن للأقنوم الثاني في الثالوث أن يُصدَم، الذي كان حتَّى وهو في الجسد قادرًا أن يرى خواتيم الأمور وما ستؤول إليه؟ ولكنَّه فعلًا كان كذلك هنا. لقد كان مَذهولًا ومشدوهًا. وعند ذهابه إلى الصلاة، أحاط به رعبٌ وظلمةٌ تجاوَزا كلَّ ما يمكن أن يتوقَّعه، وقد جعله الألم الناتج عن هذا الشعور يشعرُ كأنَّه يذوب في مكانه.

تذكَّر أنَّ كتَّاب البشائر كانوا يعرفون في الوقت الذي دوَّنوا فيه بشائرهم أنَّ العديدَ من أتباع يسوع أنفسهم كانوا قادرين على مواجهة الموت بسكينةٍ لافتة. ويسجِّل لوقا مثلًا أنَّه عندما واجَه استفانوس مَن كانوا يحاكمونه كان بوجهٍ يلمعُ "كأنَّه وجه ملاك" (أعمال ٦: ١٥)، وأنَّه كان بكلِّ وداعةٍ يصلِّي من أجل غفران خطاياهم في الوقت الذي كانوا فيه يرجمونه حتَّى الموت (أعمال ٧: ٦٠). كما أشار الكُتَّاب المسيحيُّون الأوائل مثل أغناطيوس الأنطاكيِّ وپوليكاربوس إلى

حالةِ الاتِّزان والسكينة التي واجه بها المسيحيُّون التعذيبَ والموت. ويكتبُ أحدُ المؤرِّخين قائلًا إنَّ هذا الهدوء عند مواجهة الموت كان إحدى الوسائل التي استخدمها المفكِّرون المسيحيُّون لتزكية إيمانهم لدى الوثنيِّين؛ فكانت حُجَّة هؤلاء المفكِّرين أنَّ المسيحيِّين تألَّموا وماتوا في كرامةٍ أفضل من الوثنيِّين.[٢٦] لقد ذهب المسيحيُّون إلى الأسود وهم يترنَّمون، كما ذهبوا إلى أتُّون النار رافِعين أيديهم بالصلاة.

لكنَّ يسوع المسيح هنا يواجه الموتَ بطريقةٍ مُغايرة للطريقة التي واجهَه بها أتباعه. لم يكنْ وجهُه يلمعُ كوَجهِ ملاك، ولم يكن هادئًا، ولا كان في سلام. ولا بدَّ أنَّ ذلك حدثَ فعلًا. لو كان متَّى أو مرقُس أو لوقا قد اختَلَقوا بشائرَهم؛ أو حتَّى كانوا يُجمِّلون حياةَ مؤسِّس إيمانهم، فهل كانوا ليصوِّروه وهو يعاني على هذا النحو قُبيل موته، وبصورةٍ تتجاوز حتَّى حال معظم تابعيه أمام لحظة الموت ذاتها؟

ما السبب إذًا من وراء حجم المعاناة والرعب اللذين جازَ فيهما يسوع قبل موته؟ الإجابة هي أنَّ ذلك كان مَوتًا مختلفًا عن كلِّ موتٍ قبله أو بعده.

إليك الجزءَ التاليَ من وصف متَّى لهذا المشهد:

> ”ثمَّ تقدَّم قليلًا وخرَّ على وجهه، وكان يُصلِّي قائلًا: «يا أبتاه، إنْ أمكَن فلتعبُرْ عنِّي هذه الكأس، ولكنْ ليس كما أُريدُ أنا بل كما تريدُ أنت».
>
> ثمَّ جاء إلى التلاميذ فوجدهُم نيامًا، فقال لبُطرُس: «أهكذا

ما قدرتُم أن تسهروا معي ساعةً واحدةً؟ اسهروا وصلُّوا لئلَّا تدخُلوا في تجربة. أمَّا الرُّوحُ فنشيطٌ وأمَّا الجسدُ فضعيفٌ». فمضى أيضًا ثانيةً وصلَّى قائلًا: «يا أبتاه، إنْ لم يُمكن أن تعبُرَ عنِّي هذه الكأسُ إلَّا أن أشربَها، فلتكُن مشيئتُك». ثمَّ جاء فوجدَهم أيضًا نيامًا، إذ كانت أعينُهم ثقيلةً. فتركَهم ومضى أيضًا وصلَّى ثالثةً قائلًا ذلك الكلام بعينه".

يُشير كلٌّ من متَّى ومرقُس ولوقا إلى "الكأس" بوصفها محور صلاة يسوع في تلك الليلة. كانت الكأسُ في العصور القديمة مثل الكرسيِّ الكهربائيِّ* في عصرنا. هل تذكر الطريقةَ التي أُعدِمَ بها سقراط؟ لقد شربَ كأسًا من السُّمّ. ولا تُمثِّل "الكأس" أيَّ نوع من الموت إجمالًا، بل تُعبِّرُ عن الموت القضائيِّ تحديدًا. واستخدام الرُّسل هذا المصطلح في بشائرهم يعني أنَّ يسوع كان يعلمُ أنَّه سيُحكَمُ عليه بالإعدام. لكنَّ "الكأس" تعني أيضًا ما هو أكثر من ذلك.

في الكتاب المقدَّس، تشير "الكأس" أيضًا إلى غضب الله القضائيِّ الذي يُنزِلُه على الظلم والشَّرّ. يقول الكتاب المقدَّس في حزقيال ٢٣: ٣٣-٣٤: "تشربينَ... كأسَ التحَيُّر والخراب وتجتثِّين ثدييكِ". وفي إشعياء ٥١: ١٧، يتحدَّثُ الوحيُ بشأن أولئك الذين شربوا "كأسَ غضبه... وكأس الترنُّح"**. والسببُ الذي جعلَ يسوع لا يواجه الموت بالراحة ذاتها التي واجهَه بها شهداءُ المسيحيَّة لاحقًا هو أنَّ واحدًا من هؤلاء الشهداء لم يواجه "الكأس".

* الكرسيُّ الكهربائيُّ هو وسيلة الإعدام في الولايات المتَّحدة (المترجم).

** القرينة في كلا الشاهدَين هي إنزال الغضب على أورشليم بسبب زَيغانِها عن إلهها (المترجم).

وعندما يتحدَّث يسوع نفسه بشأن الكأس، يتكشَّف لنا أنَّه يعلم تمام العلم أنَّه مُقدِمٌ ليس فقط على التعذيب البدنيِّ والموت، بل كان على بُعدِ ساعاتٍ من تجرُّع غضب الله الكامل على شرِّ البشريَّة كلِّها وخطاياها. وكان غضبُ الله القضائيُّ على وشك أن يُسكَب عليه بدلَ أن ينصبَّ علينا.

إنْ كان ملءُ الغضب الإلهيِّ قد ضرب المسيح بقوَّته كلِّها في اليوم التالي على صلاته في البستان عندما عُلِّق على الصليب- حيث صرخ هناك قائلًا: "إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟"- فأنا أتَّفقُ مع كلِّ المفسِّرين الذين قالوا إنَّ يسوعَ كان قد ابتدأ يذوقُ عيِّنةً من هذا الغضب في البستان. لكنْ ما الذي يُحسُّه الشخص الذي يتلقَّى هذا الغضب الإلهيّ؟ إنَّه العذاب الذي يُخلِّفه غياب الله.

يقول الكتاب المقدَّس في ٢تسالونيكي ١: ٨: "في نار لهيبٍ مُعطيًا نقمةً للَّذين لا يعرفون الله والذين لا يطيعون إنجيل ربِّنا يسوع المسيح". إنَّ قضاء الله، كما يُصوِّره لنا الكتاب المقدَّس، هو عادلٌ تمامًا على نحوٍ يفوق تصوُّرنا؛ وهذا القضاء هو نتيجة طبيعيَّة وحتميَّة. ويكمن جوهر الخطيَّة في توجُّه قلب الخاطئ الذي لسان حاله: "لا أريد الله في حياتي". وقضاء الله في جوهره ليس سوى أن يمنحَنا الله ما طلبناه. لا يوجَدُ في الواقع ما هو أكثر عدلًا من ذلك- بل وما هو أكثر رعبًا من ذلك. وَفقًا للكتاب المقدَّس، نحنُ جميعًا صُمِّمنا لنعيشَ لله، ولنستَمتعَ بحضوره والعلاقة به. وهذا ينطبق على الجميع، حتَّى أولئك الذين لا يؤمنون به ويهربون منه، فهم لا ينفصلون عنه تمامًا. يقولُ بولس إنَّنا بالله "نحيا ونتحرَّك ونوجَد" (أعمال ١٧: ٢٨). وفي ذلك الموقف كان بولس يخاطب

الفلاسفة اليونانيِّين الذين لم يكونوا يؤمنون بالله. وما قصدَه بولس هنا أنَّنا وإنْ كنَّا لا نؤمن بإله الكتاب المقدَّس، فإنَّ هذا الإله يظلُّ يحفظُ حياتَنا ويصونها بكيفيَّة لا نستطيع إدراكها. لذا، فما الذي يمكن أن يحدثَ لو أنَّ الله سحبَ من حياتنا قوَّته الحافظة الرحيمة؟ لن يتبقَّى لنا ساعتها سوى ألمٍ روحيٍّ مُبرِّح، وحالةٍ من التمزُّق تستمرُّ جميعها إلى الأبد؛ لأنَّ نفوسَنا ببساطة قد صُمِّمَت لتحيا بمحبَّة الله وحضوره. وهذا ليس إلَّا عذابٌ أبديٌّ وعادلٌ تمامًا. وكما يقول سي. أس. لِويس في كتابه "**الانفصال العظيم**" *(The Great Divorce)*، إنْ كنتَ في هذه الحياة لا تقول لله "لتكن مشيئتك"، فالله في الحياة الأخرى سيقولَ لكَ حتمًا "حسنًا، فلتكن مشيئتَكَ أنت". إنْ كنتَ تريدُ التحرُّر من الله، ستحصل حتمًا على ما رجَوتَ، وذلك التحرُّر لن يكونَ سوى العذابِ بعَينه.

لنَعُدِ الآن بفكرنا إلى يسوع في البستان. بوصف يسوعَ إنسانًا كان يعيش على الأرض، كان الله يدعمُ وجودَه الإنسانيَّ بما فيه من مشاعر إنسانيَّة مُرهَفة، وكان يجدُ فرحَه في الوجود في حضور الله بالصلاة المنتظمة والشركة مع الآب. لكنْ على خلاف كلِّ البشر، كان يسوع يختبرُ محبَّة الله بكلِّ أعماقها وكمالها، وكان يعرف الغِبطة اللَّامُتناهية التي تمنحها الشركة الكاملة مع الآب. لكنَّه في طريقه إلى البستان ليبدأ صلاته، وعلى نحوٍ مُفاجئ، إذ بخطوط التواصل مع الآب قد انقطعت- للمرَّة الأولى منذ الأزل. إليكَ ما قاله بِل لاين (Bill Lane) في تفسيره لإنجيل مرقُس عمَّا حدث في البستان:

> "لم يكن هَولُ الحزن والقلق اللَّذين جازَ فيهما يسوع- وهو ما دفعه لأن يطلب أن تعبرَ عنه هذه الكأس- تعبيرًا عن خوفٍ

من مصيرٍ مُظلِم، أو جزعٍ من احتمالات الألم البدنيِّ والموت، بل كان الإحساسُ بالهَول (من جانبِ شخصٍ عاش بجملته للآب) نابعًا من احتمال الانفصال عن الله، وهو أمرٌ تُحتِّمه دينونة الله التي ستُسكَب على الخطيَّة التي حملها يسوع... لقد أتى يسوع إلى البستان ليكونَ في شركة مع الآب... قبل تسليمه، لكنْ بدلَ أن تُفتحَ السماء أمامه انفتحَ الجحيم، وهو ما أصابه بالذُّهول والدَّهشة".[٢٧]

تَذكَّر ما قاله حزقيال وإشَعياء كلاهما. إنَّ كأسَ غضب الله تشبه سُمًّا يجعلُ الجسدَ يترنَّح ويحترق بالألم الداخليّ. هذا ما بدأ يحدثُ ليسوعَ في هذه اللحظات. عندما شرعَ يصلِّي، إذ به يرى الهاوية أمامه. حُجِب وجه الآب، وغابَ حضوره، وانقطعَتِ الشركةُ معه، وصار الجحيم- لا السماء- هو ما تراه العَين. السبيلُ الوحيدُ لنا كي ندركَ الأبعاد غير المحدودة لهذه الآلام أن ندركَ أنَّ مَن يتعرَّض لذلك كلِّه هو ابن الله. لو حدثَ وفقدتُ محبَّة أحد أصدقائي، فالأمر سيكون مؤلمًا لي. وإنْ حدث أن فقدتُ محبَّة أطفالي أو زوجتي، فإنَّ الألم الناتج سيكون أكبر بما لا يُقاس. كلَّما امتدَّتْ علاقةُ الحبِّ في الزمن؛ وكلَّما تعمَّقتْ وصارت أكثر حميميَّة، كان ألم الانفصال بين الأحبَّاء مُحرِقًا. لكنَّ علاقةَ المحبَّة الكاملة بين الآب والابن تتجاوزُ في أبعادها كثيرًا جدًّا علاقةَ الحبِّ بيني وبين زوجتي، تمامًا مثلما يتجاوزُ المحيط في أبعاده قطرة الندى.

لكنَّ الأزمة التي واجهها يسوع في هذه اللحظة كانت أسوأ من ذلك؛ لأنَّه بدأ يذوق وقتها ليس فقط غياب الحبّ، بل أيضًا حضور الغضب. وكما أنَّ

الحبَّ الإلهيَّ يفوق بما لا يُقاس حبَّ البشر، فإنَّ النقمةَ الإلهيَّة تتجاوزُ في آلامها غضبَ البشر. الله كلِّيُّ القدرة، وقوّته غير محدودة. كيف يمكن أن نتخيَّل أن يسقطَ علينا جبلٌ من النقمة الإلهيَّة؟ ما أبعادُ هذه القدرة غير المحدودة؟

يذكرُ البشير لوقا أنَّ يسوعَ كان فعليًّا "في جهاد" (الكلمة المستخدَمة في اليونانيَّة هي "أغونيا" [Agonia]) وأضافَ أنَّه بينما كان يُصلِّي "صارَ عرقُه كقطرات دم". من الوارد أنْ يكون المقصودَ بذلك وجود دم في عرقه، ذلك أنَّ مَن يتعرَّضون لصدمةٍ بالغة يمكن أن تنفجر شعيراتهم الدمويَّة السطحيَّة، ممَّا يؤدِّي إلى تسرُّب الدم مع عرقهم. أو ربَّما تعني هذه العبارة أنَّ دفقات العرق التي كانت تتصبَّبُ من يسوع تشبه أنهارَ الدم التي ستتدفَّق من جسده بعد قليل. في الحالَين كلتيهما، فالمعنى إجمالًا يشيرُ إلى الألم في أقصى حالاته؛ فقد بدأ يستشعرُ يسوع وقتَها الآلام المبرِّحة الناتجة عن انقطاع العلاقة مع الآب- تلك الآلام التي جعلته يخرُّ على الأرض ساجدًا ولسان حاله إلى الآب: "لا تسمح لذلك بأن يحدث".

لماذا إذًا هذه المعاناة التي تفوق التصوُّر؟ الإجابة هي لأنَّ يسوع المسيح لم يكن يواجه موتًا كأيِّ موتٍ يمكنُ أن يواجهَه أيُّ إنسان. لقد كان في هذا الوقت يفقدُ تلك الشركة الكاملة مع الآب لأجلنا. وليكون بديلنا، كان يتلقَّى غضبَ الله القضائيّ. ويلخِّص جوناثان إدواردز (Jonathan Edwards) هذه المعاناة بالقول: "إنَّ الصراع الذي كان يدور داخل نفس يسوع في هذا المشهد من مشاهد آلامه كان مُفزِعًا بما يتجاوزُ كلَّ تعبير وكلَّ تصوُّر".

أَودُّ أيضًا أن أُلقيَ الضَّوءَ على توقيت هذه المعاناة التي جازَ فيها يسوع. بمساعدة لاهوتيِّين مثل بِل لاين وجوناثان إدواردز استطعتُ أن أوضحَ أنَّ

يسوع في البستان ذاقَ عيِّنةً من الغضب الإلهيّ. لكنْ ما دلالة أن يجتازَ يسوعُ في هذه التجربة وبهذا الشكل الهائل في تلك اللحظة وقبل عمليَّة الصلب؟ الإجابة عن هذا السؤال هي جزءٌ من التعليم المسيحيِّ الذي طالما تغافَلنا عنه أو أسأنا فهمه، وإن كان يحملُ في طيَّاته كثيرًا من التعزية.

ظلَّ اللَّاهوتيُّون على مدار السنوات السابقة يميِّزون بين الأبعاد السلبيَّة والأبعاد الإيجابيَّة بشأن ما عمله السيِّد المسيح، فرأوا في قبول يسوع للعقوبة التي كنَّا نستحقُّها طاعةً سلبيَّة؛ حيث إنَّه ماتَ الموتَ الذي كان يليقُ بنا. ولكنَّ في طاعته الإيجابيَّة عاش الحياة التي كان لا بدَّ أن نحياها.[٢٨] قد يبدو ذلك لك أمرًا غامضًا، لكنَّ في ثناياه فوائدَ عمليَّة عديدة.

عندما ذهب يسوع إلى الصليب، حملَ في نفسه عقوبة خطايانا التي استَوجبناها نحن، ولم يستحقَّها هو. هذا ما وصفه الكثيرون قديمًا بعبارة "الطاعة السلبيَّة": فقد تلقَّى يسوع عقوبة عصياننا ناموسَ الله، وكانت نتيجةُ ذلك أنَّ كلَّ مَن آمنَ بيسوع أُعتِق من دينونة الخطيَّة. لكنْ إنْ كان ذلك هو كلُّ ما فعله لأجلنا، ربَّما نكون شاكرين لأنَّنا لن نُعاقَبَ على أمورٍ فعلناها في الماضي، وقد نشعر بالطمأنينة والراحة لأنَّ الله لن يكونَ غاضبًا منَّا بعد اليوم. ومع ذلك، لن يكونَ لدينا دليلٌ على أنَّه يحبُّنا فعلًا؛ فعدم عقابِ الأب لابنه لا يعني أنَّ الأبَ راضٍ تمامًا عن ابنه. لذلك فإنَّك إنْ آمنتَ فقط بعمل يسوع في جانبه السلبيّ، فربَّما تعيش تحت قدرٍ بالغ من الضَّغط والخوف من أنَّك "لم تتصالح" فعلًا مع الله، وقد تعتقد أنَّ في الإمكان فقدان رضى الله عنك لو تعثَّرتَ مرَّةً. إنِ اكتفيتَ بهذا الجانب من عمل يسوع، فيمكنك أن تدركَ أنَّ

خطاياك غُفِرَت، لكنَّك لن تتيقَّنَ تمامًا أنَّك كنتَ موضوع محبَّة الله.

لكنَّ قبولَ يسوع العقوبة في نفسِه في جانبه السلبيِّ لم يكن كلَّ ما فعله من أجلنا؛ فعلى مدى حياته، ولا سيَّما في وقتِ موته، أكملَ يسوع أيضًا بمبادرةٍ إيجابيَّة منه مطاليبَ ناموس (قانون) الله، وهذا ما أسماه اللَّاهوتيُّون الجانب "الإيجابيَّ" من عمل يسوع. ليس فقط ماتَ يسوعُ الموتَ الذي كان من نصيبنا ليرفعَ عنَّا لعنةَ الناموس، بل هو أيضًا عاشَ الحياة العُظمى التي قامت على الحبِّ والأمانة لله- والتي كان علينا أن نعيشَها- وذلك لكي يُحصِّل لنا بركات الله. لم يُحِبَّ أحدٌ الله من كلِّ النفس والفكر والقدرة؛ ولم يحبَّ أحدٌ قريبَه بكلِّ المحبَّة الكاملة المضحِّية إلَّا واحدٌ هو يسوع. ما الذي تستحقُّه حياةٌ بهذا السُّموّ؟ إنَّها تستحقُّ أفضل ما عند الله من بركاتٍ وثناءٍ وتكريم. وهي تستحقُّ ملءَ محبَّة الله وكامل رضاه. ولأنَّ يسوعَ تمَّم ناموسَ الله ليس فقط بالمعنى السلبيّ، بل أيضًا بالمعنى الإيجابيِّ الذي بادر بالفعل- وكان في كلِّ ذلك بديلًا عنَّا- فذلك معناه أنَّه ليس فقط أخذَ عنَّا العقوبةَ التي استَوجَبناها، بل أيضًا صار لنا أن نأخذَ نحن المكافأة التي استحقَّها هو. إنَّ ما فعله يسوع كان خلاصًا كاملًا مُتمِّمًا على نحوٍ مُذهل، تعاظمت فيه نعمةٌ فوقَ نعمة.

لكنْ ما علاقةُ ذلك كلِّه بجهاد يسوع في بستان جَثسَيماني؟ ألم يكن ذلك بداية ما أسميناه "الطاعة السلبيَّة"- بمعنى الموت عنَّا وقبول العقوبة بدلًا منَّا؟ لا، ما حدثَ في البستان تجاوزَ ذلك.

أن تعرفَ أمرًا ما معرفةً عقليَّةً مجرَّدة شيء، وأن تختبرَه بكلِّ كِيانك لهوَ شيء آخر تمامًا. ربَّما نعرفُ بعقولنا أنَّ خبرةَ الجلوس في مقعد أمام طبيب الأسنان

خبرةً مؤلمة، لكنَّنا نحجز موعدًا ونذهبُ إلى طبيب الأسنان ونتَّخذ مكانَنا على المقعد بعصبيَّةٍ لا تخفيها أيَّة نكات نحاول ترديدَها آنذاك. ولكنَّ في اللحظة التي يبدأ فيها الطبيب في الحفر داخل أفواهنا نهمسُ لأنفسنا قائلين: "آه لو علمتُ أنَّ المسألة ستكون بهذه الدرجة من الألم، لما جئتُ البتَّة، فأنا في غِنى عن كلِّ ذلك". انتبه لي الآن: ماذا لو أنَّك لا تزالُ تحاولُ اتِّخاذَ قرارٍ بالذَّهاب إلى طبيبِ الأسنان وأنت في بيتك، ثمَّ أُتيحَ لك بشكلٍ أو بآخر أن تُجرِّب مدَّةَ دقيقةٍ أو دقيقتَين عيِّنة من الألم الذي ستتعرَّضُ له في عيادة الطبيب؟ لو كان ذلكَ ممكنًا، لأفلسَ كلُّ أطبَّاء الأسنان في العالم.

وصولًا إلى مشهد البستان، كان يسوعُ يعلمُ يقينًا ما هو مُقدِمٌ عليه، فكان كثيرًا ما يُخبِر تلاميذَه أنَّه جاء إلى العالم ليتألَّم ويموت. لقد رأينا سابقًا أنَّ ظلَّ هذه الليلة كان مُخيِّمًا عليه في عُرس قانا الجليل؛ كما علمَ عندما أقامَ لعازر أنَّه بهذا الفعل سيُحرِّك الأحداث بسرعة بحيث تؤدِّي به إلى الصليب. لكنَّ الدهشةَ التي أصابتْه عند دخوله البستان تكشفُ لنا أنَّه في تلكَ اللحظة فقط ابتدأ يستَوعبُ "اختباريًّا" ما سيتحمَّلُه بعد قليل. في اليوم التالي كان سيُسمَّر على الصليب علانيَةً، وعند هذه اللحظة لن يكونَ هناك خطٌّ رجعة. لكنْ في ظلمة البستان وبينما كان التلاميذ نيامًا، وكان في وُسع يسوع أن يهربَ بعيدًا عن هذا المصير، يسمحُ له الآب بأن يرى الطريقَ التي سيمشيها. وكما يقول جوناثان إدواردز في عظته عن "جهاد المسيح"***: "كانت تلك

*** الإشارةُ في عنوان هذه العِظة ومحتواها هو إلى المعاناة النفسيَّة التي جازَ فيها يسوع في بستان جَثسَيماني، والتي عبَّر عنها البشير لوقا بعبارة في لوقا ٢٢: ٤٤ "وإذ كانَ في جهاد..." (المترجم).

هي المرَّةَ الأولى التي رأى فيها يسوع تمامًا صعوبةَ قبول الكأس، وحجم هذه الصعوبة هو ما أدَّى إلى تصبُّب عرقِه دمًا". لذا، فعندما مشى يسوع في طريقه إلى الصليب بديلًا عنَّا بعد تجربة البستان، فقد ذهب وهو يملكُ معرفةً واضحةً تمامًا لما سيحدُث. وهذا ما يجعلُ ما قامَ به يسوعُ أعظمَ تعبيرٍ عن حبِّه للآب- وحبِّه لبني البشر- في كلِّ التاريخ البشريّ. لم يواجِهْ أحَدٌ الألم على هذا النحو ليُعبِّرَ عن حُبِّه، لذا فلا نعرف أحدًا أحبَّ على هذا النحو. ويسترسل إدواردز في حديثه قائلًا:

"كان جِهادُ يسوعَ المسيح ومعاناته بسبب رؤيته غضبَ الله رؤيةً واضحةً كاملةَ التفاصيل والمعالم. لقد وضعَ الله الآبُ أمامَ يسوع الكأس، وقد كانت أكثر رُعبًا على نحوٍ يفوق التصوُّر من أتُّون نبوخذنصَّر. وها هو يسوع يرى عن قرب هذا الأتُّون الذي سيُقذَف فيه بعد ساعات. لقد وقفَ ورأى ألسنة اللهب وهي تتصاعد وحرارتها تستعرُ حتَّى يُدرك المكانَ الذي هو ماضٍ وما سيعانيه هناك. لقد شعرَ بما قاله حزقيال : «تشربين كأس التَّحَيُّر والخراب، وتجتثِّين ثدييك». كما شعرَ أيضًا بما قاله إشَعياء: «شَربتِ من يد الربِّ كأسَ غضبه... كأس الترنُّح». كان المسيحُ على وشكِ أن يُلقَى به في أتُّون الغضب الإلهيِّ المرعب، ولم يكن يليقُ به أن يدخلَ هذا الأتُّون وهو معصوب العَينَين، لا يدري عن هَول الأتُّون شيئًا. لذا أتى به الله وأوقفَه عند باب الأتُّون كي ينظر ألسنةَ اللهب المتأجِّجة ويعرفَ المكانَ الذي

هو ذاهبٌ إليه، ثمَّ يدخل الأتُّون طواعيةً ويحتملَ نيرانه لأجلنا بعد أن يعرفَ مقدار الألم الذي سيعانيه. لو أنَّ يسوع المسيح لم يعرفْ تمامَ المعرفة هَولَ الكأس قبل أن يُمسكَها ويشربَها، لما كان تناوُلُه للكأس فعلًا إراديًّا اختارَه حرًّا بوصفه إنسانًا. لكنَّنا عندما نراه وهو يمسكُ هذه الكأس عارفًا بما فيها، ندرك عِظَم محبَّته لنا وروعتها، وكمالَ طاعته لله بما يفوق كلَّ قياس".

لقد وضع الله الكأسَ أمامَ يسوع ليَدَعَه يتذوَّقها في اللحظة التي كان لا يزال ممكنًا له أن ينسحبَ من المشهد ليصُدَّ عن نفسه هذا الألم. كان لسان حال الآب وقتئذٍ: "ها هي الكأس الذي ستشربها، وها هو الأتُّون الذي ستدخله. هل ترى أحبَّاءك النائمين هناك؟ إنْ كان لهؤلاء خلاص، فليس هناك خِيارٌ آخر: إمَّا يهلِكُ هؤلاء، وإمَّا تموتُ أنتَ. انظر إلى شدَّة اللهيب، وانظر إلى الألم والمعاناة التي عليكَ تحمُّلها. هل محبَّتكَ لهم ولي قويَّة بحيث يمكنك أن تواصلَ الطريقَ لتُمسِكَ بالكأس؟"

وهنا يتخيَّل إدواردز أنَّه كان في وُسع يسوعَ أن ينظرَ إلى تلاميذه، الذين عجزوا حتَّى عن السهر معه لمساندته في لحظةٍ كان فيها أحوجَ ما يكون إلى المساندة، وأمكنَه أن يقولَ بكلِّ إنصافٍ وعدل:

"لماذا يجب عليَّ، أنا الذي عشتُ منذ الأزل في كامل سروري وفرحتي بمحبَّة الآب، أن أُلقِيَ بنفسي في مثل هذا الأتُّون من أجل هؤلاء الذين لن يستطيعوا تعويضي لقاءَ ما سأفعل؟ لماذا عليَّ أن أُسلِّمَ نفسي كي أُسحَقَ تحت ثقل الغضب الإلهيِّ من

أجل مَن لا يحبُّونني، ومن أجل أعدائي؟ إنَّهم ليسوا جديرين بالاتِّحاد معي، ولم يكونوا قَطُّ جديرين بذلك، ولن يستطيعوا يومًا أن يفعلوا شيئًا لينالوا هذا الاستحقاق".

كان في وُسع يسوعَ أن يقولَ ذلك، وهو مُحقٌّ فيه- ولكنَّه لم يفعل. لم تكن تلك هي اللغةَ التي يتحدَّثُها قلبه. عوضًا عن ذلك قال للآب: "لتكُنْ مشيئتك". وهنا يختم إدواردز عظتَه، قائلًا: "لقد فاضت أحزان المسيح، لكنَّ محبَّته فاضت على النحو الذي تجاوزَ أحزانه. كما طمت على نفس المسيح غمرةٌ من الكرب والتكدُّر، لكن تَحمُّلَه لذلك كان نابعًا من غمرةٍ أُخرى من الحبِّ للخطاة تدفَّقَتْ من قلبه لتغمرَ العالمَ وتفيضَ على خطاياه، وإنْ وصلَتْ في كثرتها إلى أعلى الجبال. لقد كانت قطرات الدم الغالية التي سقطت على الأرض إعلانًا عن بحر المحبَّة الفائض من قلب المسيح".

لا يكفي أن نقولَ- كما ذكَرْنا- إنَّ ذلك كان أعظمَ حبٍّ في التاريخ؛ حيث إنَّه كان أيضًا أكمَلَ طاعةٍ لله وأكثرها إدهاشًا. في بداية التاريخ كانت هناك جنَّة (بستان) ووصيَّة. وضعَ الله آدم وحوَّاء في الجنَّة وأوصى بعدم الأكل من الشجرة. كانت الوصيَّة: "أطيعاني بشأن هذه الشجرة، فتعيشا"- أطيعاني فأباركَكما. ولكنَّ آدمَ وحوَّاء عصيا. الآن لدينا بستانٌ آخر، وأمامنا آدم الثاني (الأخير)[٢٩]، ووصيَّة أخرى. لقد أرسلَ الآبُ يسوعَ المسيح إلى العالم ليذهَبَ إلى الصليب، وهو أيضًا شجرة.[٣٠]

كانت وصيَّة الله لآدم هي النموذجَ الأصليَّ لكلِّ الوصايا التي أعطاها لجميع البشر. دائمًا ما يقول الله، بشكلٍ أو بآخر: "أطعني، فأباركَك وأكونَ

معك". لكنَّ هنا استثناء: مرَّة واحدة فقط قال فيها الله لإنسانٍ ما قاله ليسوع، حيث قال لله لآدم الأوَّل: "أطعْني بشأن الشجرة، فأباركَك"- ولم يُطعْ آدم. ولآدم الثاني (الأخير) قال الله: "أطِعْني بشأن الشجرة، فأسحقَك"- فأطاع يسوع. يسوعُ هو الشخصُ الأوَّل والأخير في تاريخ البشر الذي قِيلَ له إنَّ الطاعةَ ستجلبُ اللعنةَ عليه. كان لسانُ حال الآب: "إنْ أطعتَني وكنتَ أمينًا لي، سأتركك وأتخلَّى عنك وأرسل نفسكَ إلى الجحيم". ومع ذلك أطاعَ يسوع. حتَّى وهو يُحتضَر، متروكًا من الآب، ناداه قائلًا: "إلهي"- وهي كلمة تعبِّرُ عن الحميميَّة. حتَّى عندما كان يسوع متروكًا من الآب ظلَّ طائعًا. كتبَ الشاعر الإنكليزيُّ جورج هربرت (George Herbert) قصيدةً يشيرُ فيها أيضًا إلى الصليب بوصفه شجرة، ويصف فيها وصفًا بديعًا كيف أنَّ طاعةَ آدم الأخير بعظمتها وما تحمَّلته من تحدِّياتٍ أصلحتْ ما أفسدَه عصيان آدم الأوَّل. يتخيَّل هربرت يسوع وهو يتحدَّثُ من فوق الصليب قائلًا:

"أمَا إليكم يا جميع عابري الطريق، تَطلَّعوا وانظروا؛
سرقَ الإنسانُ الثمرة، فكان لزامًا أن أصعدَ الشجرة؛
شجرةً للحياةِ كانت للجميع، إلَّا لي:
هل كان حزنٌ مثل حزني؟"

لنرجعِ الآن إلى التعليم اللاهوتيِّ الذي كنَّا قد ذكرناه بشأن طاعة المسيح السلبيَّة وطاعته الإيجابيَّة. إنْ كان يسوع قد ماتَ الموتَ الذي كنتُ أستحقُّه؛ وإنْ كنتُ أريد أن أتيقَّن أنَّ الآب ليس فقط عفا عنِّي بل أنَّه يحبُّني حبًّا كاملًا، فإنَّ ذلك يجعلني أشعرُ بأنِّي يجب أن أحيا حياةً أخلاقيَّة غاية في الرقيّ. صحيحٌ أنَّ خطاياي

غُفِرَت، لكنَّ نظرةَ الله الإيجابيَّة لي تتوقَّف تمامًا على الكيفيَّة التي أديرُ بها حياتي.

لكنَّ يسوعَ ليس فقط مات الموتَ الذي كنَّا نستحقُّه، بل عاش أيضًا الحياة التي كان علينا أن نعيشَها. وكما اعتاد أن يقولَ القسُّ الاسكتلنديُّ روبرت مَري ماشين (Robert Murray M'Cheyne): إنَّ يسوع ليس فقط مُخلِّصًا بالموت، بل هو أيضًا مُخلِّصٌ بالفعل (وبالحياة). عندما نؤمنُ بيسوع، فنحن نجني ليس فقط بركات موته؛ إذ إنَّ الأمرَ لا يتوقَّف على مجرَّد غُفران الخطايا، بل نجني أيضًا بركات طاعته. وذلك يعني أنَّ برَّ يسوع (في حياته) ينتقلُ إلى حسابنا (يستخدمُ اللاهوتيُّون المصطلحَ الماليَّ "قيمة محتسبة" [Imputed])، كما صارت قيمة ذبيحته لحسابنا. ويقول الكتاب المقدَّس في ٢كورنثوس ٥: ٢١: "لأنَّه جعل الذي لم يعرف خطيَّةً، خطيَّةً لأجلنا لنصيرَ نحن برَّ الله فيه". عندما نؤمنُ بيسوعَ المسيح يرانا الله أبرارًا، ويرانا الله طائعين، إذ يُنظَرُ إلينا بواسطة مُحامينا. وينظرُ الله إلينا بأنَّنا نفعل ما فعله يسوع، ليس فقط بأنَّنا نموتُ الموتَ الذي ماتَه يسوع.

انظُرِ الآنَ إلى جمال ما فعلَه يسوعُ وقوَّته! أيَّ كرامةٍ تستحقُّها هذه الشجاعة وتليقُ بهذا المستوى من الحبِّ وتجدرُ بتلك التضحية؟ هذه هي الكرامة ذاتها التي تنتقلُ إلى حسابك عندما تؤمن بالمسيح. منذ بضع سنوات شاهدتُ على التلفزيون حلقات بوليسيَّة عن قصَّة رجل في الثمانينيَّات من عمره، كان مُحاربًا سابقًا في البحريَّة الأميركيَّة، وكان الرجل مُحطَّمًا لأنَّه اتُّهمَ بارتكابه جريمة. ورأيت في أحد المشاهد اثنَين من رجال الشرطة العسكريَّة ضخمَي الجثَّة ومعهما محامٍ من البحريَّة يُهَمْهِمُ ببضع كلمات بينما جاءوا جميعًا للقبض على المسنّ. وكانوا يتحدَّثون إلى الشيخ بأسلوبٍ فظٍّ ويصرخون في وجهه بلغةٍ آمِرة. وعندها، وصل

أحَدُ أصدقاء هذا المسِنِّ ليقفَ أمام الجميع ويُريهم ميدالية الشرف التي نالَها الشيخُ من الكونغرس قبل عقدَين في "إيوي جيما" (Iwo Jima)**** . وفي اللحظة التي تقع فيها عيون رجلَي الشرطة العسكريَّة على ميدالية الشرف يسارعون بالوقوف في وضعيَّة الاستعداد احترامًا. وهذان الرجلان لم يكونا بالتأكيد يقدِّمان التحيَّة لهذا الرجل في شخصه؛ فهذا الرجل قد يكون مُجرمًا فعلًا، ومن المؤكَّد أنَّه فاشلٌ من نواحٍ كثيرة. لكنْ من أجل هذه الميدالية- التي ترمز ليس فقط إلى تضحيته هو، بل أيضًا لشجاعة المئات من المحاربين الآخرين عبر القرون- حَظِيَ بالمعاملة الكريمة. هذه مجرَّد لمحة بسيطة لما حظينا به جرَّاء طاعة المسيح الإيجابيَّة. وعندما نقبلَ عملَ المسيح لا نصير مثل أولئك المساجين الذين جرى إطلاق سراحهم ثمَّ منحتهم إدارة السجن ثمنَ تذكرة الباص المتوجِّه إلى منتصف المدينة. لا، بل نحن مثل المساجين الذين جرى إطلاق سراحهم، ثم مُنِحوا ميدالية الشرف، بكلِّ ما تحمله معها من حقوقٍ ومزايا. لقد حصلنا ليس فقط على العفو والحرِّيَّة، بل نِلنا أيضًا الحبَّ والرضى. هذه نتائجُ طاعة يسوع الإيجابيَّة وآثارها. ومع أنَّ يسوع عاش مطيعًا لله بحياةٍ كاملة من بدايتها، فإنَّ طاعته الإيجابيَّة تواجه تحدِّيًا هائلًا هنا في البستان. لذا من المهمِّ أن نُمعِن في النظر في الجمال الذي اتَّسم به ردُّ فعله تُجاهَ هذا التحدِّي، قبل أن يعبرَ نقطةَ اللَّاعودة.

السؤال الآن: ما الفرق الذي يصنعه كلُّ ذلك عندنا؟ ما الذي يفيدنا عندما نرى يسوع يتألَّم من شيء لن نختبرَه نحن بتاتًا؟

**** الإشارة هنا إلى معركةٍ وقعت ما بين البحريَّة الأميركيَّة والقوَّات اليابانيَّة عام ١٩٤٥م إبَّان الحرب العالميَّة الثانية (المترجم).

الأمر الأوَّل الذي نتعلَّمه هنا أنَّ يسوعَ في البستان كان نموذجًا لا مثيل له في الاستقامة الأخلاقيَّة. في الظلام، وفي لحظة لا ينظر فيها إليه أحد، كان يسوع يعرف أنَّه مَدعوٌّ لأن يتمِّمَ أصعبَ مهمَّة يمكن أن تُلقى على عاتق أحد، فيختار مع ذلك أن يفعلَ الصواب؛ ففي الظلام عندما يكونُ وحدَه يفعلُ الأمرَ نفسَه الذي يفعلُه في النهار على مرأى من الكلِّ ومسمعهم. فلأطرحْ عليكَ السؤال- هل أنت الشخص ذاته في الظلام كما في النور؟ هل أنت الشخص نفسه في حياتك الخاصَّة وفي حياتك العامَّة؟ أم أنَّك تعيش حياةً مزدوجة؟

الأمر الثاني، ميدالية الشرف التي حَصَّلها لنا يسوع كانت ليس فقط عن استقامته الأخلاقيَّة، بل كانت أيضًا ميدالية عظيمة عن الصلاة. الأمرُ المذهل في شخصيَّة يسوع هنا أنَّه في الوقت الذي كان فيه أمينًا لأبعد حدٍّ في تعبيره عن مشاعره ورغباته، كان أيضًا خاضعًا تمامًا لمشيئة الله. إنَّنا نراه أمينًا في التعبير عن نفسه، إذ لا يضعُ قناع التقوى. ثلاث مرَّات نرى ابن الله يطلب من الآب إنْ أمكنَ أن يُعفيَه من خُطَّة الخلاص؛ فهو لم يُخفِ مشاعره، ومع ذلك يقول للآب دون تردُّد: "لتكُنْ لا إرادتي، بل إرادتك". ليس الغرضُ الأساسيُّ من الصلاة أن نُخضعَ إرادةَ الله لإرادتنا، بل أن تتشكَّل إرادتُنا وَفقًا لإرادته. لقد كان كلُّ تركيز يسوع محصورًا في الله، لكنَّه في الوقت نفسه كان إنسانًا وأمينًا في التعبير عن مشاعره ورغباته. ليكُنْ هذا هو نموذجَك في الصلاة. لا يصحُّ أن تكبتَ مشاعرك، كما لا يصحُّ أيضًا أن تحملُك مشاعرُك في الصلاة. أغلب الناس يفعلون أحد الأمرَين، لا كلَيهما.

الأمر الثالث هو أنَّنا نرى في البستان مثالًا بالغ الوضوح على الصبر على

الآخرين. في إنجيل متّى نراه يعود إلى تلاميذه في إحدى المرّات ويقول: "أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعةً واحدةً؟" (متّى ٢٦: ٤٠). أمامنا هنا إنسانٌ موضوعٌ تحت أكبر ضغط ساحق يمكن أن تتخيَّله، وهو يطلبُ من أحبَّائه قليلًا من المساندة، ومع ذلك يتركونه ويذهبون ليناموا. لقد خذلوه تمامًا، ولكنْ ما الذي يقولُه أمام ذلك الخذلان؟ يسجِّل متّى هذه الكلمات: "أمَّا الروح فنشيط، وأمَّا الجسد فضعيف" (متّى ٢٦: ٤١). أليس ذلك أمرًا لافتًا للانتباه؟ إنَّه يجد لهم بعضَ العذر، فلسان حاله هنا: "لقد خذلتموني، لكنِّي أعلمُ أنَّ نيَّاتكم طيِّبة". في عمق معاناته وألمه، كان يسوع قادرًا أن يجد شيئًا إيجابيًّا ليقولَه لأحبَّائه. هناك العديد من التصرُّفات الخاطئة التي قام بها التلاميذ في تلك الليلة، لكنَّ يسوع يستطيع أن يجدَ أمرًا أو أمرَين صائبَين في التلاميذ ويشير إلى ذلك الصواب. اسمع ما يقوله الكتاب المقدَّس عن هذا القلب المحبّ: "إذ كانَ قد أحبَّ خاصَّتَه الذين في العالم، أحبَّهم إلى المنتَهى" (يوحنَّا ١٣: ١).

يسوع إذًا هو أعظم نموذج لنا في الحياة والصلاة والعلاقات بالآخرين. لكنْ تذكَّر أنَّه لو كان يسوع مجرَّد نموذج لنا فقط، لكانَ ذلك مدعاةً للإحباط لا التشجيع؛ لأنَّه فعلًا نموذج فائقُ الكمال بحيث يفوقُ قدراتنا على اتِّباعه، فلا يمكن لأيٍّ منَّا أن يعيش وَفقًا لمقاييسه. لقد أتى يسوع، ليس فقط ليكونَ نموذجًا، بل ليكونَ أيضًا مخلِّصًا. إنَّه يُغيِّرنا من الداخل على النحو الذي يجعلنا نتغيَّر، ببطءٍ لكنْ بعُمق، لنكونَ على صورته. ويخبرُنا يسوع ليس فقط بالكيفيَّة التي نحيا بها، بل يعطينا أيضًا القوَّة التي يمكن بها أن نحيا هذه الحياة. والمفارقة هنا

أنَّنا إنْ لم نرَه بديلًا لنا- لا مجرَّد نموذج- فإنَّنا لن نتمكَّنَ من الحصول على القوَّة التي تُمكِّننا من العَيش وَفقَ هذا النموذج.

كيف يحدث ذلك إذًا؟ انظر إليه في البستان، وهو يفعل كلَّ ذلك، لا كونه مجرَّد مِثالٍ لكَ، بل بوصفه بديلًا عنك. وهذا من شأنه أن يجعلَ آلام المسيح ذات دلالةٍ شخصيَّة عندك. كذلك فإنَّ التأمُّل في هذه الآلام سيمنحك قدرةً جديدةً على مواجهة تجارِبك، والتخلُّص من عجز الرثاء للنَّفس وفقدان الإصرار والعزيمة. فكِّر في الله وهو يضعُ الكأس أمام يسوع، قائلًا: "هل ستفعل ذلك حقًّا من أجل هؤلاء الناس؟" واسمع يسوع وهو يقول: "نعم". عندما تشعر بالأسى على نفسك- ويكون لسان حالك: "يا ربِّي، يا لها من كأس تلكَ التي عليَّ أن أشربها!"- يمكنك أن تقول لنفسك: "لكنَّ تلكَ ليست شيئًا بجانب الكأس التي تناوَلَها يسوع! ما أجوزُ أنا فيه الآن لا يُقارن بما فعله هو". وهنا يسعُك أن تُصلِّيَ هذه الصلاة: "يا ربّ، لقد احتملْتَ هذه المعاناة غير المحدودة لأجلي، وهذا ما يجعلني قادرًا على احتمال معاناتي المحدودة جدًّا من أجلك".

إنَّ من شأن التعليم الخاصّ بطاعة السيِّد المسيح الإيجابيَّة أيضًا أن يغيِّر نظرتكَ إلى نفسك، ويمنحك تصوُّرًا مُتَّزنًا عن ذاتك. إنَّ ما فعله يسوع ليس فقط أنَّه عفا عنك، بل أيضًا ثبَّتَ على صدرك "ميدالية الشرف". وعندما تؤمن به، فإنَّ خطاياك ليس فقط تكونُ مغفورةً، بل أنتَ أيضًا تكون جميلًا في عين الله وبارٌّ في المسيح. الآن، في ضوء تلك الحقيقة، كيف تتعاملُ مع الفشل ونقدِ الآخرين؟ علينا أن ننظر إلى أنفسنا لا بما نحن عليه في ذواتنا، بل بما نحن

عليه في المسيح. يحدثُ كثيرًا بعدما نُخطئ أن ندركَ ببعض التفكير أنَّنا كنَّا نجاهد لنحفظَ ماءَ وجوهنا، ونندفع في عمل أيِّ شيء يجلبُ إلينا الشهرة أو قبول الناس. بعباراتٍ أخرى، إنَّنا نحاول أن نُثبِتَ أنفسنا ونتجمَّل، ونُثبتَ أنَّ لنا أهمِّيَّة، وأنَّ لنا بِرًّا في أنفسنا- وإنْ كنَّا لا نستخدم هذه المصطلحات. كما نحاول أن نجعلَ أنفسنا نشعرُ بأنَّنا مُهمُّون ونتمتَّع بمظهرٍ حسنٍ في عيون الناس، بدلَ أن نجعلَ يسوع يحمل عنَّا عبء التفكير في أهمِّيَّتنا. إنْ فَهِمْنا حقًّا الكيفيَّة التي يرانا بها الله في المسيح، فيسعُنا عندها أن نعبُرَ على عدم قبول الناس لنا وعلى فشلنا، وأن نواصلَ المضيَّ قُدُمًا.

غير أنَّ هناك أمرًا آخرَ يمنحه لنا هذا النصُّ الذي نحن بصدده هنا. أعرفُ ناسًا كثيرين يقولون: "سأتبع المسيح، ولكنِّي لا أعتقد أنَّ في وُسعي مواصلة اتِّباعه. أنا لا أثقُ بنفسي، وأظنُّ أنَّه سيُصابُ بالضَّجر من كثرة سقوطي وفشلي". إنْ كنتَ تفكِّر كذلك، فأرجو منك أن تنظر إليه في البستان. انظر كيف جعلَتْه محبَّته لكَ يتحمَّلُ ما تحملَّه عنكَ. لو أنَّ يسوعَ أدارَ وجهَه بعيدًا عن آلامه وتحوَّل بعيدًا عن الصليب، لما كانت لنا نجاة، ولكنَّه لم يفعل ذلك. إنَّ محبَّته لكَ ثبتَتْ أمام كلِّ ما قُذِفَت به من حجارةٍ وسهام في هذا الكون دون أن تتزحزَح- وأنت تقول لي الآن إنَّك بفشلك ستُصيبه بالإحباط؟ هل يمكن أن ينظرَ إليك يسوع ليقولَ: "حسنًا، لقد فاض الكَيل! كلُّ آلام الوجود اللَّامتناهيَّة التي تَحمَّلتُها شيء، وما فعلتَه أنتَ شيءٌ آخر؟"

إنْ كانَتِ الكأسُ لم تجعله يتخلَّى عنَّا، فلَيس من شيء يمكنه أن يَحُولَ بيننا وبينه. وهذا ما جعلَ بولس يقول: "لا شيء يفصلنا عن محبَّة المسيح"

(رومية ٨: ٣٨-٣٩). كما يقول الربُّ نفسُه: "لا أهملك، ولا أتركك" (عبرانيِّين ١٣: ٥).

هذا هو الحبُّ الذي كنتَ تبحث عنه كلَّ حياتك. هذا هو الحبُّ الوحيد الذي لن يخذلَك بتاتًا. هذا الحبُّ "مُضادٌّ للقذائف"، فلا يمكن لشيء أن يُغيِّره أو يَقضِيَ عليه. لن يكفيَك التقدير الشخصيُّ من الآخرين، أو محبَّةُ الصديق، أو حتَّى المحبَّة الزوجيَّة أو العاطفيَّة- هذا هو الحبُّ الذي تسعى وراءه، ربَّما متدثِّرًا تحت أنواع الحبِّ الأخرى، دون أن تعلَم. وإنْ تحوَّلَ هذا الحبُّ القائم على الطاعة الإيجابيَّة إلى واقع إيجابيٍّ في حياتك، فستَصير الاستقامة الأخلاقيَّة سِمةً من سماتك؛ وستكونُ بطلًا في الصلاة، وستُحسِنُ معاملةَ مَن يُسيئون معاملتك. إنْ كان لكَ هذا الحبّ، فستصيرُ أكثرَ شبهًا به. تَطلَّع إليه وهو يجاهدُ ويُحتَضَر من أجلك في ساعة الظلمة، ودَعْ هذا المشهد يصهركَ لتصيرَ مِثله.

الفصل التاسع

يمينُ الآب

نأتي الآن إلى آخر ما صنع يسوع المسيح على الأرض، وأقصد بذلك صعوده إلى يمين الآب في السماء. ولعلَّ هذا الحدث هو الأكثر غموضًا وإثارةً للحَيرة بين كلِّ الأحداث المهمَّة التي صنعها. بدايةً كان هذا الحدث بالتَّأكيد مُحيِّرًا للتَّلاميذ الذين كانوا شهودًا عليه. ربَّما كان الحدثُ عندهم- مقارنةً بالمعجزات الأخرى التي شهدوها- أكثرَ الأحداث التي لا يمكن توقُّعها من الناحية البصريَّة. نقرأ في أعمال ١: ٩-١١ "ولمَّا قالَ هذا ارتفع وهُم ينظرون، وأخذَتْه سحابةٌ عن أعيُنهم". بينما صعدَ يسوع إلى السماء، وقفَ الرسل يحَدِّقون في السماء وهم مُسمَّرين في أماكنهم، لا يفهمون ما كان يحدث. "وفيما كانوا يشخصون إلى السماء وهو منطلقٌ إذا رجلان قد وقفا بهم بلباسٍ أبيض. وقالا: «أيُّها الرجال الجليليُّون! ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء؟ إنَّ يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقًا إلى السماء»". لسنا واثقين تمامًا بما كان يُفكِّر فيه التلاميذ عندما كانوا واقفين يحدِّقون في

السُّحُب، لكن كان على الملاكَين أن يوبِّخاهم قليلًا. وكان لسان حال الملاكَين: "استَفيقوا يا رجال! لقد غادرَ يسوع ولكنَّه سيعود ثانيةً، لكنْ حتَّى ذلك الحين هناك عمل يجب إنجازه، لذا هيَّا إلى العمل". لكنَّ من الواضح أنَّ التلاميذ كانوا حائرين بشأن معنى الصعود منذ لحظة حدوثه.

غير أنَّ الصعود مُحيِّرٌ لنا أيضًا. السؤالُ الذي يُهمُّنا هنا ليس "ما الذي حدث؟" بقدر ما هو "لماذا حدث ذلك؟" ما التأثير الذي يصنعُه الصعود لحالة نفوسنا، وللطَّريقة التي نُديرُ بها حياتنا؟ صحيحٌ أنَّ المنطقَ يقول إنَّه ما دام هناك "مجيء" بالتجسُّد، فلا بدَّ أن يكونَ هناك "ذهاب" بالصُّعود. ومع ذلك، يظلُّ من غير الواضح لنا الفرق الواضح الذي يصنعُه الصعود من جهة خلاصنا أو من جهة الطريقة التي نحيا بها.

في حقيقة الأمر، يصنعُ الصعودُ فارقًا كبيرًا؛ حيث إنَّه سيصير لنا- إذا فهمناه جيِّدًا- أحدَ المصادر التي تعتمد عليها حياتُنا في هذا العالم، وهو مصدر لا يقدِّمه إلينا أيُّ دينٍ أو فلسفة للحياة. لذا، فلنستَكشِفِ الآن ما تعلَّمه الرسل عن الصعود، وهو ما سجَّلوه في مواضع مختلفة في العهد الجديد. سنحاول أن نتعلَّم أوَّلًا معنى الصعود لاهوتيًّا، وسنحاولُ ثانيًا فهمَ دلالات هذا المعنى عمليًّا لنا.

بدايةً، ما معنى الصعود؟ إنَّه ليس ببساطةٍ رجوعَ يسوعَ من الأرض إلى السماء، بل هو تتويج جديدٌ ليسوعَ يعلنُ به عن علاقةٍ جديدةٍ بنا وبالعالم كلِّه.

لنحاوِلِ الآن البحثَ في الأفكار التي لا علاقة لها بالصعود. ليس الصعودُ مجرَّد مُغادرة يسوع سطح الأرض. والصعود ليس مُتعلِّقًا بذهاب يسوع إلى

السموات (الحرفيَّة) بل إلى السماء. هل تذكُرُ ما قاله رئيس الوزراء السوفياتيُّ عام ١٩٦١م عن الطيَّار الروسيِّ الذي ذهب إلى السموات ولم يجد الله، فاستنتَجَ أنَّ الله غير موجود؟ تكشفُ لنا هذه المقولة عن تصوُّرٍ عن الصعود بأنَّه مجرَّد تغيُّرٍ في الارتفاع عن منسوب الأرض، بمعنى أنَّ المسيح والآب موجودَين في مكانٍ ما في الفضاء الخارجيّ. لنُميِّز الآنِ بين لفظَين: يتكلَّم الكتاب المقدَّسُ عن "السموات"، وهو ما نجدُه مثلًا في مزمور ١٩ الذي يشير إلى "السموات [بمعنى الأجرام السماويَّة التي] تُحدِّث بمجد الله". لكنَّ يسوع لم يذهبْ إلى سمواتِ النجوم والكواكب، بل ذهب إلى السماء، وهذه دائرة أعمقُ وأثرى في معناها من مجرَّد مدارٍ في الفضاء الخارجيّ.

ربَّما لفظة صعد* هي البداية الصحيحة لاستكشافِ معنى الصعود. فنحن نعلَم أنَّها تعني "يتحرَّكُ إلى أعلى"، كما هي الحال مع الطائرة مثلًا، لكنَّنا نتحفَّظُ كثيرًا عند استخدام الكلمة مع الأشخاص. فمثلًا، ربَّما نقول "صعدَ السُّلَّم"، وإنْ كنَّا لا نستعمل هذه اللفظة (والإشارة هنا إلى اللفظة الإنكليزيَّة "Ascend") شديدة الفصاحة في التعبير عن هذا المعنى. (وإنْ قلنا ذلك، فهذا يكون على سبيل المزاح). قد نقول عِوَضًا عن ذلك "طلعَ السُّلَّم". لكنَّنا حتمًا نستخدم اللفظة (في الإنكليزيَّة) لوصف عمليَّة التَّتويج. عندما يصيرُ شخصٌ ما (رجلًا أم امرأة) ملكًا أو ملكةً، تُقامُ مراسم معيَّنة تُنقَلُ بها السُّلطة رسميًّا. وفي هذه المراسم يصعد الشخصُ المتوَّج، حرفيًّا، مِنَصَّة عالية، ثمَّ يرتقي بضع

* يعتمد المؤلِّفُ في تحليله هنا على الكلمة الإنكليزيَّة "Ascend" واستخداماتها، وهو ما يختلف كما سنرى مع دلالات لفظة "صعد" في العربيَّة (المترجم).

درجات سُلَّم ليجلسَ على عرش، وهو عبارة عن كرسيٍّ مرتفع عن مستوى الأرض. ونصفُ هذا المشهد بالقول "صعدَ إلى العرش". وهنا يتَّضحُ لنا أنَّ الفعل "صَعدَ" يتجاوَزُ في دلالاته مجرَّد تغيير في الارتفاع عن الأرض؛ فحين يُتوَّجُ الملكُ، لا يعني هذا مجرَّد أنَّه أعلى من حيثُ القياسُ المادِّيُّ من الجميع، بل يعني أنَّه دخلَ في علاقة جديدة بالآخرين، وصار له من الصلاحيَّات والامتيازات الجديدة ما يُمكِّنُه من ممارسة سلطاته. درجات السُّلَّم التي يرتقيها الملك والكرسيُّ الأعلى في مستواه من الآخرين هي رموز لتَغيُّر علاقته بالناس وحصوله على هذه الصلاحيَّات الجديدة.

إذا ذهبتَ إلى لندن، يمكنكَ أن ترى كُرسيَّ الملك إدوارد محفوظًا في كنيسة ويستمينستر آبي (Westminster Abbey)، وظلَّ هذا الكرسيُّ مستخدَمًا في تتويج ملوك بريطانيا وملكاتها مدَّة ثمان مئة سنة. ولكنَّك إنْ صعِدتَ الدَّرجات تحت هذا العرش وجلست عليه، فهذا لا يعني أنَّك حصلتَ على هذه الوظيفة الملكيَّة (بالمناسبة، لو فعلتَ ذلك، ربَّما يُلقون بكَ خارج كنيسة ويستمينستر آبي). الفكرةُ التي أريد إيصالها هنا هي أنَّ الارتقاء إلى العرش لا يُعرَّف بالتغيُّر في الارتفاع المكانيِّ (وإنْ كان ذلك يحدث في مراسم التتويج) ولكنَّه تَغيُّر في الوضع القانونيِّ والعلاقة القانونيَّة بالآخرين. صعودُ الدرجات والجلوس على العرش لا يجعلُ منكَ ملكًا. كذلك يمكنك أن تصيرَ ملكًا لإنكلترا دون أن تجلسَ فعلًا على هذا الكرسيِّ القديم.

أيضًا، إنْ كان يسوع يُريد فقط العَودة إلى الآب، فكلُّ ما كان يحتاج إليه هو الاختفاء عن الأنظار. كانت هناك بعض المواقف التي اختفى فيها بسرعة عن

الأنظار، كما كانت الحالُ مع تلميذَي عمواس. لكنَّ ما نراه عند الصعود هو ارتفاع يسوعَ حرفيًّا إلى السحاب واختفاءَه عن الأنظار. لماذا أتمَّ الصعودَ على هذا النحو إذًا؟ يُمكننا فقط أن نُخمِّن، لكنْ ربَّما يكون قد فعل ذلك للسبب نفسه الذي تُقام له مراسم التتويج. الاعتلاء عن الأرض مكانيًّا هو رمزٌ لارتقاء السُّلطة التي يملكها الشخص المتوَّج، وارتقاءٌ في علاقته بالآخرين. كان يسوع بصعوده البصريِّ المنظور يَرسُم في المكان ما كان يحدث كَونيًّا وروحيًّا.

وما هذا الذي كان يحاول أن يرسمه يسوع أمام عيوننا؟ كان يسوع ذاهبًا- بوصفه الإنسان والله تمامًا- ليأخذَ مكانَه بوصفه الملك والرأس الجديد للجنس البشريّ. يأتي بنا هذا الحديث إلى النقطة التي يدفعُ بها اللَّاهوت المسيحيُّ تفكيرنا وخيالنا إلى حدودهما القصوى.

عندما "صار ابنُ الله الأزليُّ جسدًا"،صارَ إنسانًا كاملًا. فضلًا عن أنَّه صارَ ضعيفًا، ومُعرَّضًا للأذى والموت، فقد كان محدودًا بالوجود في مكانٍ مادِّيٍّ واحد في لحظة زمنيَّة بعَينها. حتَّى بعد القيامة كان في وُسع جَسدِ يسوعَ أن يُلمَس، كما كان في وُسع يسوعَ أن يأكل طبيعيًّا؛ إذ قال للتَّلاميذ في لوقا ٢٤: ٣٩: "الروح ليس له لحمٌ وعظامٌ كما ترَون لي"، مُظهرًا بذلك أنَّه لا يزالُ حتَّى تلك اللحظة محتفظًا بالطبيعة البشريَّة. لكنَّه تغيَّر أيضًا، فقد كان في وُسعه أن يخترقَ الأبوابَ المغلَّقة (يوحنَّا ٢٠: ١٩) ويختفيَ (لوقا ٢٤: ٣١). لقد ظلَّ يسوع مُحتفظًا بطبيعته البشريَّة كما هي، وإنْ كان قد حدثَ فيها شيءٌ من التحوُّل. وهذا ما يُقدِّم إلينا صورةً عن مستقبلنا نحن. يقولُ بولس عن يسوع إنَّه "صار باكورة الراقدين" (١كورنثوس ١٥: ٢٠). لذا فكلُّ مَن آمنوا به سيقومون في النهاية

مثله تمامًا. ستكونُ لنا أجسادٌ بشريَّة، لكنْ ستستعيدُ هذه الأجسادُ حالتَها قبل أن يسحقَها الشرُّ والخطيَّة، ومن ثمَّ ستكونُ أجسادًا بشريَّة في حالةٍ أفضل. ولن تكونَ هذه الأجساد خاضعةً للتحلُّل والموت، ومن الواضح لنا أيضًا أنَّ هذه الأجساد ستنالُ العديد من القوى والحواسِّ الجديدة التي تفوقُ خيالنا الآن.

لكن عند صعود يسوع حدثَ تغييرٌ آخر. عندما كان يسوع الإنسانُ موجودًا في عالمنا- في الزمان والمكان- كان وفي وُسعه أن يكونَ في مكانٍ واحدٍ في لحظة زمنيَّة واحدة. فإذا أردتَ أن تسمعه، أو تدخل في علاقة به أو تعرفه من قرب، فلا بدَّ لكَ من الوجود في هذا المكان وتلكَ اللحظة. أمَّا عند الصعود، يترك يسوع حدود الزمان والمكان ليكونَ في محضر الآب. وهناكَ لا يزال يسوع إنسانًا وما يزال هو آدم الأخير (١كورنثوس ١٥: ٢٢) ولا يزال هو مُحامِينا- لكن ما حدث الآن أنَّه تمجَّدَ بحيث إنَّه صارت لكلِّ شيء يفعله أبعادٌ كونيَّة. تقول الترنيمة (الإنكليزيَّة) "جروحٌ سَخِيَّة، لا تزالُ مرئيَّة، لنا في عُلاك، بعد أن تمجَّدَتْ في جمال".[٣١] يقول لويس بيركهوف (Louis Berkhof) في كتابه "**اللاهوت النظاميّ**" *(Systematic Theology)* إنَّ يسوع "دخلَ ملءَ المجد السماويِّ وهو مُهيَّأٌ** تمامًا لحياة السماء".[٣٢] نتيجةً لذلك، فإنَّ كلَّ حدودٍ فرضَها الزمان والمكان على عمل يسوع تزولُ تمامًا؛ وهو ما يعني أنَّك لا تحتاجُ لأنْ تذهبَ إلى بقعة جغرافيَّةٍ معيَّنة لتستقبلَ عملَ يسوع وتنالَ بركة خدمته. لا يزال السيِّد المسيح يمارس كلَّ ما كان يفعلُه من قبل، ولكنَّه يفعلُ ذلك

** تعني "مُهيَّأٌ" هنا مستعدٌّ بعد الجسد المَمجَّد الذي أخذَه بعد القيامة وبعد الصعود لأن يمارسَ سلطانَه الخارج عن حدود الزمان والمكان (المترجم).

الآن بعد الصعود بواسطة الوصول إلى الجميع في كلِّ مكانٍ وفي الوقت ذاته. ولا يعني الصعود أن نفقدَ العلاقة الحميميَّة به، أو قيادته المباشرة، أو شفاعته وحمايته لنا، بل يعني تعظيمَ تأثير هذه الأمور وتوسيع دائرة هذا التأثير على نحوٍ لامتَناهٍ.

ولكي نصوغ هذا الكلام في إطارٍ لاهوتيّ، نقول مع بيركهوف إنَّ يسوع الآن في السماء "لا يزال بكلِّ فعالية يداومُ على ممارسة عمله بوصفه وسيطًا وشفيعًا"[٣٣] في كلِّ الكرة الأرضيَّة. لا يزال يسوع يمارس دورَه بوصفه نَبِيًّا***، يُعلِّمنا ويرشدنا بكلمته، ولكنَّه يمارس هذا الدور الآن في كلِّ مكان بواسطة الروح القدس. لا يزال المسيحُ أيضًا مَلِكَنا، ولكنَّه الآن يُرشد ويُوَجِّه كلَّ كنيسته بالمواهب الروحية التي يمنحُها لشعبه (أفسس ٤: ٤-١٦)- بما في ذلك مواهب القيادة والخدمة والرحمة والتعليم والإدارة والعطاء. كذلك لا يزال هو كاهنَنا الذي ينصحُنا ويدعمُنا ويُمثِّلُنا أمام وجه الآب نفسه.

نقرأ في متَّى ٢٦: ٦٤ وأعمال ٢: ٣٣-٣٦ أنَّ يسوعَ عند الصعود، ذهب ليجلسَ عن "يمين الآب". في الأزمنة القديمة، كان الشخصُ الذي يجلسُ عن يمين العرش هو ما يشبهُ رئيسَ وزراء الملك، أو الشخص المنوط به إنفاذ سلطان الملك وسيادته بالقوانين الفعليَّة والسياسات. لذا يعني هذا الكلامُ أنَّ يسوع صعدَ ليبدأ مُلكَه. لكنْ قد نحتاج إلى بعض التوضيح لفكرة الصعود بوصفه

*** "النبيُّ" في هذه القرينة وفي سياق الكتاب المقدَّس، هو الشخص الذي يحمل كلامَ الله إلى الناس. ومن شأن هذا الكلام أن يكشفَ حالةَ الناس أو يحملَ لهم رؤيةً من الله لا يستطيع إلَّا النبيُّ إدراكَها وإيصالها إلى الناس؛ والمسيح بهذا المعنى هو نبيّ، فضلًا عن كونه هو الله الظاهر في الجسد (المترجم).

"جلوسًا على العرش". كان يسوع دائمًا هو الملك، وكان دائمًا صاحبَ سلطانٍ علينا لأنَّه هو الله. لكنَّه لدى صعوده- بوصفه الله والإنسان- فإنَّه بدأ عمله بوصفه رأسَ الكنيسة السماويَّ، والآن هو يسودُ فوق كلِّ الرياسات والسلاطين- بل أيضًا يسود "فوق كلِّ شيء للكنيسة" (أفسس ١: ٢١-٢٢). وهو يفعلُ ذلك بعمل الروح القدس الذي كان قد شرحه يسوع للتَّلاميذ بالتفصيل في الليلة السابقة لصلبه (يوحنَّا ١٤-١٧). كذلك يعني الجلوس على العرش أنَّ يسوع سيسودُ على التاريخ ويتحكَّم فيه حتَّى غايته النهائيَّة، التي ستُعتَق عندها الكنيسة بالكامل ونهائيًّا، وسيتجدَّد كلُّ العالم (رومية ٨: ١٨). وعند هذه اللحظة سينتهي الألم والشرُّ والموت، لأنَّ عملَ المسيح للخلاص واستردادِ كلِّ شيء سيكون حينها قد اكتمل. وحتَّى نُبسِّط المسألة، فإنَّ يسوع يُديرُ الآن خُطَّةً انتقاليَّة على مستوى الكون كلِّه، وهي الخُطَّة التي ستنتهي بالسموات الجديدة والأرض الجديدة (إشعياء ٦٥: ١٧-٢٥). وهو الآن بوصفه الربَّ المرتفع بعد الصعود ينشرُ الأخبارَ السارَّة وبناء كنيسته، بالعمل في قلوب البشر، فيما يوجِّه كلَّ أحداث التاريخ لتصلَ إلى النهاية المجيدة.

هذا هو ما يعنيه الصعود. لكنْ ماذا يعني ذلك لنا اليوم من الناحية العمليَّة؟ كيف تؤثِّر هذه الحقيقة في الكيفيَّة التي نحيا بها حياتَنا اليوميَّة؟ المعاني والدلالات العمليَّة لهذه الحقيقة أكثرُ ممَّا يمكن أن نحصيَها هنا، لذا فلنركِّزْ فقط على ثلاثة أمور مهمَّة.

أوَّلًا، إنَّ المسيح المرتفع بالصعود هو يسوعُ الذي صارَ مُتاحًا لنا جميعًا لندخلَ معه في شركة المحبَّة والتواصل. كما رأينا في الفصل الخامس، عندما

وجدَتْ مريمَ المجدليَّة المسيحَ المقام بجانب القبر الفارغ، أمسكَتْه. فلنتأمَّل في هذه الحادثة مرَّة أخرى.

عندما عرفتْ مريمُ أنَّه يسوع، قال لها: "لا تلمسيني، لأنِّي لم أصعدْ بعد إلى أبي" (يوحنَّا ٢٠: ١٧). ما معنى ذلك؟ بعض الناس يتصوَّرون أنَّ يسوع يقول لمريم هنا: "يجب ألَّا تلمسيني"، كما لو كان مقدَّسًا ويجب عدم لمسه في هذه اللحظة. المشكلة في هذا التصوُّر أنَّ يسوع لاحقًا في هذا الفصل نفسه يدعو توما لأنْ يلمسَه؛ فما الذي كان يقصده يسوع؟ الفعل الذي استخدمه يسوع عندما قال "لا تلمسيني" هو كلمة معناها "لا تضغطيني أو تمسكيني بشدَّة". من الواضح أنَّ مريمَ أمسكَتْه بكلِّ قوَّتها، وعلى ما يبدو أنَّ مريم كانت تعتقد أنَّها فقدتْ علاقتها المقرَّبة بمعلِّمها عندما مات، والآن بعد أن صارَ حيًّا، لن تسمحَ لنفسها بأن تفقدَ هذه العلاقةَ ثانيةً.

ولكنَّها كانت مُخطِئة؛ فعندما قال لها يسوع: "لا تلمسيني... إنِّي أصعدُ إلى أبي" فقد كان يشير إلى أنَّ علاقةَ المحبَّة تلك ستزدادُ قوَّةً بعد صعوده. لماذا؟ لأنَّه بعد الصعود سيَظلُّ ملازمًا لها حرفيًّا، ولن يكونَ فقط بجانبها أحيانًا، بل سيكون في قلبها دائمًا. إليكَ مُجمَلَ ما كان يحاول يسوع أن يقوله، حسبَ ظنِّي: "يا مريم، أُقدِّرُ لماذا لا تريدين أن تفقدي مرة أخرى المعلِّم والصديق. لكنْ لو فهمتِ حقًّا ما يحدث، لأدركتِ أنِّي بعد صعودي سأكونُ مُتاحًا لكِ طول الوقتِ وإلى الأبد. في الحالة التي أنا عليها الآن يا مريم، هناك دائمًا احتمال أن تفقديني، ربَّما يضعُكِ أحَدُهم في السجن، وأنا لن أستطيع أن أذهبَ إليكِ. لكنْ إن صعدتُ الآن إلى الآب سأكونُ قريبًا منكِ إلى الأبد؛ فإنْ وضعكِ

أحدهم في أعمق زنزانة في قلب الأرض وأكثرها ظلمةً، فسأكون هناكَ معكِ. لن يكونَ في وُسع أيِّ شيء أن يأخذَني منكِ".

ويُعبِّرُ القدِّيس أغسطينوس عن الفكرة ذاتها بالقول: "لقد صعدْتَ وارتفعتَ بعيدًا عن أنظارنا، فأدَرْنا وجوهَنا لنتحسَّر عليك، وإذ بكَ موجودٌ في قلوبنا".[٣٤] كان لسانُ حال يسوع مع مريم في هذا الموقف: "في وُسعكِ أن تتركي يدي يا مريم، لأنِّي قادرٌ أن أعطيَكِ ما هو أفضل من يدي في يدك- قادرٌ أن أضعَ قلبي في قلبك".

قد يبدو كلامي عاطفيًّا؛ فقد اعتَدْنا هذه اللغة في الأفلام والأغاني الرائجة، لذا فعندما أستخدمُ مثل هذه اللغة أعلم أنَّ ذهنك سيقفزُ بسرعة إلى القصص الرومانسيَّة. غير أنَّ ما يمنحنا يسوع إيَّاه بصعوده يختلف تمامًا عمَّا نجدُه في مشاهد القصص الرومانسيَّة. فيسوع هو الشخصُ الوحيدُ الذي يملك القدرةَ على الإيفاء بوعده أن يكونَ معنا إلى الأبد، وما يَعِدُ به يتجاوزُ أصلًا كلَّ فرحةٍ رومانسيَّة. يعلِّمنا الكتاب المقدَّس أنَّ يسوع سيَستخدمُ عندما يعتلي عرشَ الكون كلَّ سلطانه كي "يرفعَ عواطفَنا" نحوه.[٣٥] ويقولُ الكتاب المقدَّس في أفسس ٢: ٦ إنَّه إذا صار المسيحيُّون المؤمنون متَّحدين به، فقد صاروا بصورةٍ عجيبة "جالسين... في السماويَّات" معه. ومعنى هذه العبارة- في حدِّه الأدنى- أنَّه يمكن لمشاعرِنا وكلِّ ما فينا من رغباتٍ واشتياقاتٍ عميقة في القلب أن تتَّصل بالمسيح بواسطة الروح القدس وتشبَعَ به على نحوٍ قويٍّ مؤثِّر.

وأعني فعلًا الصفتَين "قويٍّ ومؤثِّر". وقد كتبَ اللاهوتيُّ العظيم جوناثان إدوارذز، الذي عاش في القرن الثامن عشر، "نصًّا شخصيًّا" يصف فيه حياة الصلاة والتأمُّل التي عاشها، قائلًا:

"اعتدتُ كثيرًا أن أختَليَ بنفسي في مكانٍ معزول على ضفاف نهر هَدسون، بعيدًا عن المدينة، وذلك بُغية التأمُّل في الأمور الإلهيَّة والحديث السرِّيِّ مع الله. وقد أمضيتُ في هذا المكان الكثير من الساعات الحلوة. وكنتُ في ذلك الوقت، وغيره من الأوقات، أجني أعظمَ لذَّةٍ من قراءتي للكتاب المقدَّس مُقارنةً بأيِّ كتابٍ آخر. وكثيرًا ما كانت تلمس قلبي كلُّ كلمةٍ كنتُ أقرأها، وكنتُ أشعر بأنَّ هناك تناغمًا ما بين قلبي وتلك الكلمات الحلوة القويَّة. وأحيانًا كثيرة كنتُ أجد أمامي نورًا فيَّاضًا من كلِّ جملة، وطعامًا روحيًّا مُنعشًا على نحوٍ كان يمنعُني من مواصلة القراءة، ففي أحيانٍ أخرى كثيرة كنتُ أُطيلُ الوقوف أمام جملةٍ واحدة لأرى العجائب المخبوءة فيها، وإنْ كانت كلُّ جملة تقريبًا تكاد أن تكون حافلةً بالعجائب". [٣٦]

وإليكَ الآن واحدةً من أسمى اللحظات التي أمضاها إدواردز في الشركة مع المسيح، التي يقول فيها:

"في إحدى المرَّات بينما كنتُ ممتَطِيًا جوادي في اتِّجاه الغابة للاسترخاء والتأمُّل، ترجَّلتُ عن الجواد في بقعةٍ معزولة، وكعادتي نويتُ المشيَ قليلًا طلبًا للخلوة مع الله والصلاة، وإذ بي أرى منظرًا غير غاديٍّ لي. لقد رأيتُ مجدَ ابن الله بوصفه الوسيط بين الله والإنسان، كما عاينتُ مجدَ نعمته العجيبة، والطاهرة والحلوة، ومجد محبَّته واتِّضاعه وتنازُله لنا. وهذه

النعمة التي تَبدَّت أمامي صافيةً، ورقيقةً جدًّا وحلوة، رأيتُها عظيمةً فوق السموات. لقد بدا أمامي السيِّدُ المسيح شخصًا مُبهرًا يفوق الوصف. لقد كان من الإبهار بحيثُ ابتلعَ كلَّ قدرةٍ عندي على التَّفكير أو التصوُّر، واستمرَّ المشهد إلى ما يقرب من الساعة أمضيتُ أغلبها في غمرةٍ من الدُّموع. لقد اجتاحَتْني وقتَها رغبةٌ عارمةٌ في نفسي لا أجدُ الكلمات لأعبِّر عنها. كما شعرتُ برغبةٍ أن أكونَ مستسلمًا وفارغًا من كلِّ شيء، وأردتُ فقط أن أستلقيَ على الأرض لأمتلأ بالمسيح وحدَه، وأحبَّه محبَّةً مقدَّسة خالصة، وأثقَ به، وأتغذَّى عليه، وأخدمَه وأتبعَه، وأتقدَّس تمامًا وأصيرَ طاهرًا- طهارةً إلهيَّة سماويَّة. لقد رأيتُ هذا المنظر بتفاصيله مرَّاتٍ أخرى عديدة، وكان له فيَّ التأثيرُ نفسه في كلِّ مرَّة".[٣٧]

ربَّما تقول لي الآن: "حسنًا، لقد كان هناك دائمًا بعض القدِّيسين، وهم أناس ذوو طبيعة خاصَّة كان المسيح عندهم شخصًا حقيقيًّا". إنْ قلتَ لي ذلك، فهذا يَدلُّني على أنَّك لم تفهم بعدُ حقيقةَ "الصعود". يتحدَّث بولس بشأن محبَّة المسيح التي "انسكبَتْ في قلوبنا" (رومية ٥: ٥) حاسبًا إيَّاها إحدى علامات أن يكونَ الإنسانَ مسيحيًّا حقيقيًّا. كما يقول بولس إنَّه لا يوجد شيءٌ يمكنُ أن يفصلنا عن محبَّة المسيح، لأنَّ يسوعَ الآن "عن يمين الله وهو أيضًا يشفع فينا" (رومية ٨: ٣٤). لأنَّ السيِّدَ المسيح صعد، فيمكنُنا الآن أن نوجَدَ في محضره، فيُكلِّمنا ويعلِّمنا بنفسه، ويسكب محبَّته فعلًا في قلوبنا بالروح القدس. ولا

يمنح السيِّدُ المسيح هذا الحضور فقط لمجموعةٍ مُنتقاة من القدِّيسين ممَّن صَفَتْ مشاعرُهم وأفكارُهم على نحوٍ صوفيّ؛ أو خلَتْ أخلاقُهم من أيَّة شائبة. كلَّا؛ فيسوع الآن صعِدَ إلى السماء، وخرج بعيدًا عن حدود المكانِ والزمان، كي يتمكَّنَ من دخول حياةِ أيِّ شخص ليكونَ واقعًا حيًّا ناضرًا عِمادُه المحبَّة والارتباط الشخصيُّ بيننا وبينه.

لكنَّ السيِّدَ المسيح الذي صعِدَ إلى السموات يدخل معنا ليس فقط في علاقةٍ شخصيَّةٍ سامية، بل يكونُ صاحبَ سلطانٍ فائق. إنَّه يتحكَّم في كلِّ شيء لمصلحة الكنيسة، لذا يمكنُكَ أن تواجهَ العالم وقلبُك مملوءٌ بالسَّلام. تتحدَّثُ رسالة أفسس بشأن الله الآب، قائلةً: "أقام المسيح من الأموات وأجلسه عن يمينه في السماويَّات، فوق كلِّ رياسةٍ وسلطانٍ وقوَّةٍ وسيادة... وأخضعَ كلَّ شيء تحتَ قدمَيه وإيَّاه جعل رأسًا فوق كلِّ شيء للكنيسة، التي هي جسده". لاحظ الحرف "اللام" الصغير (في كلمة "للكنيسة") في أفسس ١، والذي يقول لك إنَّ الشخص الذي ماتَ لأجلك هو الآن ليس فقط عن يمين عرش العظمة، بل هو أيضًا "المدير التنفيذيّ" للتَّاريخ، الذي يُحرِّك كلَّ شيء فيه لخير الكنيسة. إنْ كنتَ تنتمي إليه، فكلُّ شيء يحدثُ هوَ لمصلحتك.

أخرجَتِ الكنائس البروتستانتيَّة في ألمانيا في القرن السابع عشر ما عُرِفَ بمبادئ هايدلبرغ للتَّعليم المسيحيِّ (Heidelberg Catechism) الذي يُلخِّص تعليم الكتاب المقدَّس. تقول هذه المبادئ في الإجابة عن السؤال رقم ٤٦ إنَّ المسيح رُفِعَ إلى السماء "وسيظلُّ هناك لحسابنا، حتَّى يأتي ثانيةً ليَدينَ الأحياء والأموات". وذلك يُلخِّص تمامًا ما قاله بولس في أفسس ١. إنَّ صعودَ يسوع لم

يكن فقط مجدٌ وكرامة له، ولكنَّه أيضًا لحسابنا! لقد ذهبَ يسوعُ إلى السماء ليُنجِزَ أشياءَ كثيرة لمصلحتنا.

نصٌّ آخر مشهور عن المسيح الصاعد إلى السماء نجده في رسالة رومية ٨: ٢٨، حيث يقول: "ونحنُ نعلم أن كل الأشياء تعمل معًا للخير للَّذين يحبُّون الله، الذين هم مدعوُّون حسب قصده". من المهمِّ في هذه الآية أن نلاحظَ لفظة "معًا". وتحفظُنا هذه الكلمة من فهم هذه الآية على النحو الذي يجعلها نوعٌ من أنواع التفكير بالتمنِّي. لا يقول الرسول بولس هنا إنَّ كلَّ شيء سيِّئ يحدُثُ لنا هو أمرٌ جيِّدٌ في حقيقته؛ ولا يقول إنَّ كلَّ سحابةٍ تجثم على حياتنا ملوَّنة بخطوطٍ فضِّيَّة. لا، ما يقوله بولس هنا هو إنَّك إذا ذهبتَ إلى الأبديَّة ونظرتَ خلفك إلى كلِّ التاريخ من هذه الزاوية، سيتَّضحُ لك أنَّ الله جعلَ من الأمورِ السيِّئة التي حدثت جزءًا من التاريخ واستخدمها على النحو الذي جعلها في النهاية تُتمِّم الأمورَ المصمَّمة في الأساس لتُنجزَ عكسَها. وسنعرفُ نحن ننظر إلى التاريخ بعَين الأبديَّة أنَّ كلَّ الشرور التي وقعتْ جلبتْ من المجد والصلاح ما يفوقُ عدمَ وقوعها. مثالٌ مُصغَّر على ذلك نجده في قصَّة يوسُف مع إخوته، الذين آذوه بشرورهم، ولكنْ تحقَّقَ في النهاية ما قاله يوسُف لهم: "أنتم قصدتُم لي شرًّا، أمَّا الله فقد قصدَ به خيرًا"(تكوين ٥٠: ٢٠). كما نجدُ حالةً أخرى تشرحُ الفكرةَ في قصَّة أيُّوب. في بداية السفر نجدُ الشيطان وهو يستأذنُ الله قبل أن يهاجمَ أيُّوب. لكنْ في النهاية لم تؤدِّ خُطَّة إبليس إلى شيء سوى إنجازِ جزءٍ من الكتاب المقدَّس الذي ساعد الملايين عبر القرون ليعيشوا تحتَ الألم. وكان

ما لم يقصدْه إبليس، وهكذا ستسير الأمورُ حتَّى نهاية الزمان. الحالة الأكثر تمثيلًا على هذه الفكرة هي حياة يسوع نفسه، في رفضه، وخيانته، وتعذيبه وموته. عندما خرجت جَحافلُ قوى الظلام طالبةً القضاء عليه، لم تنجحْ في شيء سوى دحرِ نفسها (كولوسِّي ٢: ١٥).

وعندما نقولُ إنَّ يسوعَ يجعلُ كلَّ الأشياء تعمل معًا للخير، فيعني هذا ليس فقط أنَّ الأمور السيِّئة ستصيرُ جزءًا من خُطَّته، بل أيضًا الأمور الصغيرة. عندما ذهبتُ لأدرسَ في كلِّيَّة اللَّاهوت، لم أكن واثقًا بشأن الطائفة التي سأخدم بها. ويعودُ جزءٌ من أسباب عدم تيقُّني إلى عدم وضوح الرؤية لديَّ من جهة بعض المعتقدات مثل المعموديَّة واختيار الله المسبَّق. وفي أثناء الفصل الدراسيِّ الأخير لي في الكلِّيَّة، كان هناك أستاذٌ أقنعني بالرؤية المشيخيَّة تُجاه العديد من القضايا الأساسيَّة. وهذا فتح البابَ أمامي لأصيرَ مشيخيًّا، وما أدَّى بعد ذلك إلى تتميم دعوتي بالذَّهاب إلى مَنهاتن لأبدأ كنيسةً جديدةً هي "كنيسة الفادي المشيخيَّة". وعندما أتحدَّث بشأن خُطَّة الله، غالبًا ما أستخدم هذا المثل للتوضيح:

"السبب من وراء وجودي في نيويورك اليوم (أقول ذلك مُخاطِبًا مَن يستمعون إليَّ في مدينة نيويورك) هو أنَّ أستاذًا ما في كلِّيَّة اللاهوت كان قد أقنعني أنْ أبدأ خدمتي في الكنيسة المشيخيَّة. وكان هذا الأستاذ يُدرِّسُ في كلِّيَّتي لأنَّه- بوصفه مواطنًا بريطانيًّا- كان قد حصل على تأشيرة للمجيء إلى هنا للتَّدريس. وكان هذا الأستاذ قد عانى الأمرَّين ليحصُلَ على هذه التأشيرة، وكاد أن يتخلَّى عن فكرة المجيء إلى الولايات المتَّحدة، لولا أنَّ شخصًا في وزارة الخارجيَّة ساعده في نَيل الموافقة على طلب التأشيرة. وقد حدثَ هذا

لأنَّ واحدًا من عائلته- وكان يعمل في البيت الأبيض- كان قد درَّس سابقًا في كُلِّيَّتنا. وهذا القريبُ دخلَ البيت الأبيض لأنَّه كان على الرئيس الأسبق أن يستقيلَ من منصبه. أمَّا سببُ تقديم الرئيس الأسبق استقالتَه فكان فضيحةَ تصنُّت عُرِفَت باسْم "ووتر غيت" (Watergate). وكانت قد تكشَّفت تفاصيل فضيحة ووترغيت لأنَّ حارسًا ليليًّا لاحظَ وُجودَ باب غير موصَدٍ بإحكام. لو كان هذا البابُ قد أُوصِدَ بإحكام؛ ولو لم تنكشف هذه الفضيحة، ولو لم تحدُثْ تغييرات في الحكومة، لما كنتُ قد درستُ مع هذا الأستاذ".

وعند هذه اللحظة أسأل مَن يستمعون إليَّ: "هل أنتم سُعداء بوجود كنيسة الفادي هنا؟" وعندما يهزُّون رؤوسَهم بالإيجاب أقول: "إذًا، فإنَّ فضيحة ووترغيت قد وقعَت لحسابكم". بالتَّأكيد وقعت هذه الفضيحة لملايين الأسباب الأخرى أيضًا. لكنَّ خُطَطَ الله على درجة كبيرة من التعقيد بما يتجاوَزُ فهمنا. غير أنَّ هذا يعني لي- في المحصلة النهائيَّة- أنَّك يجب أن تمتلئ بالسلام. الشخص الذي مات لأجلك، ولا يزال يحملُ في يدَيه آثار المسامير، وهي علامات آلامه من أجلك، هو الآن مُتحَكِّمٌ في كلِّ شيء وهو جالسٌ عن يمين الآب. هل يمكنك أن تشعر بالراحة؟ هل أنت مضطربٌ الآن؟ هل تشعر بأنَّك لم تعُدْ قادرًا على إدارة كلِّ الأمور في حياتك، في الوقت الذي عليك فيه أن تهتمَّ بالعديد من المهامِّ في الوقت نفسه؟ إذًا، فأنت إمَّا لا تؤمن بصعود المسيح، وإمَّا لا تستثمر في هذه الحقيقة.

الأمر الأخير هو أنَّ السيِّدَ المسيح الذي صعدَ إلى السموات يضمنُ لك أن تدركَ أنَّ خطاياك غُفِرَت، وأنَّكَ مقبولٌ من الله وموضوعُ رضاه ومسرَّته. وَفقًا

للعهد الجديد فإنَّ صعودَ المسيح يعني أنَّه الآن رئيس كهنتنا الذي يُمثِّلنا أمام عرش العدل الإلهيّ. ويعبِّر بولس عن ذلك باستخدام لغة قانونيَّة عندما يقولُ إنَّ يسوع "يشفع" فينا. وهذا هو عين ما وعد تلاميذه به وبوصفه "محامينا"، والصعود هو وسيلته كي يُتمِّمَ وعدَه لنا. هكذا جرى تصوير هذه الحقيقة في عبرانيِّين ٧ و١يوحنَّا ٢:

> "لأنَّه كان يليقُ بنا رئيسٌ كهنةٍ مثلَ هذا قدّوسٌ بلا شرٍّ ولا دنس، قد انفصل عن الخطاة وصار أعلى من السموات، الذي ليس له اضطرارٌ كلَّ يومٍ مثل رؤساء الكهنة أن يُقدِّم ذبائحَ أوَّلًا عن خطايا نفسه ثمَّ عن خطايا الشعب، لأنَّه فعل هذا مرَّةً واحدةً إذ قدَّم نفسه... فمن ثمَّ يقدرُ أن يُخلِّص أيضًا إلى التَّمام الذين يتقدَّمون به إلى الله إذ هو حيٌّ في كلِّ حينٍ ليشفعَ فيهم" (عبرانيِّين ٧: ٢٦-٢٧، ٢٥).

> "وإن أخطأ أحدٌ، فلنا شفيعٌ عند الآب، يسوع المسيح البارّ، الذي هو كفَّارةٌ لخطايانا" (١يوحنَّا ٢: ١-٢).

كلُّ هذه الاستعارات- كاهنٌ، محامٍ، شفيع- تضيفُ أبعادًا جديدة لتلك الاستعارة المبهَمة وبالغة الأهمِّيَّة التي نجدُها في صورةِ جلوسِ السيِّد المسيح عن يمين الآب. إنَّ لدى الشخصِ الذي يجلسُ عن يمين عرش الملك السلطانَ لتنفيذ الإرادة الملكيَّة، لكنَّ لدى هذا الشخص أيضًا- إنْ جاز التعبير- تأثيرًا نافذًا في أُذُن الملك. لذا، فإنْ عُرِض شخصٌ أو أمرٌ ما أمام

عرش القضاء، فليس من محامٍ أفضل من الشخص الجالس عن يمين العرش.

تذكَّر أنَّك إنْ ذهبتَ إلى ساحة القضاء، فكلُّ شيء يتوقَّفُ على محامي الدفاع وكيلِك وممثِّلِك أمام القاضي. إنْ كان محاميكَ عبقريًّا رائعًا، فستبدو أنتَ عبقريًّا رائعًا أمام القاضي. وإن قدَّمَ هذا المحامي حُجَّة رابحة، فأنت مَن سيربحُ القضيَّة المنظورة. وإنْ كانَ مُحاميك يعرفُ القانون جيِّدًا ويحظى بالاحترام من الهيئة القضائيَّة، فما من داعٍ لأن تخشى على قضيَّتك. لذا فعندما يقول الكتاب المقدَّس إنَّ يسوعَ يقفُ عنَّا بوصفه "محاميًا" يُمثِّلُنا أمام عرش الله، فهذا تفسيرُ الكتاب المقدَّس لمعنى "صعد" كما شرحناها سابقًا. لذا فلا يهمُّ مَن أنتَ وماذا فعلتَ؛ ولا يهمُّ إنْ كانتْ شخصيَّتك ملآنةً بالعيوب والحماقات. فعندما تقعُ عليكَ عينُ الله الآب، فهي لا ترى إلَّا يسوعَ الذي صعدَ إلى السماء. وعندما يستمعُ لك الله، فهو لا يسمعُ إلَّا صوتَ يسوع، وهكذا فعندما ينظر الله لك ويستمع إليكَ، فهو لا يرى إلَّا جمالًا لا حدود له. نقرأ في سفر الأعمال عن قصَّة استفانوس الخادم الذي قُدِّم إلى المحاكمة بناءً على اتِّهاماتٍ مُلفَّقة. وقبل قليلٍ من تنفيذ حكم الإعدام بالرَّجم، أعطاه الله رؤيةً مفاجئة. قال استفانوس: "ها أنا أنظرُ السموات مفتوحةً وابن الإنسان قائمًا عن يمين الله" (أعمال ٧: ٥٦). لا يرى استفانوس هنا يسوعَ "جالسًا" عن يمين الله، بل يراه واقفًا عنه بوصفه "محاميًا" يشفعُ فيه. يقول لنا الكتاب المقدَّس أنَّه كان لاستفانوس دومًا وجهُ ملاك (أعمال ٦: ١٥).

هل تعرف لماذا؟ لقد فهِمَ استفانوس- لا سيَّما في اللحظة الأخيرة من حياتِه- أنَّ مَن ماتَ لأجله قد صَعِدَ إلى السماء، وهو يُمثِّلُه الآن أمام عرشِ

العدالة الإلهيَّة، كما أدركَ حقًّا الأهمِّيَّة الكبرى لما رآه، حتَّى إنَّه لم يكن محتاجًا لأن يهتمَّ كثيرًا بما قاله أيُّ أحدٍ عنه. لم تكن الأحكام الصادرة عن المحاكم الأرضيَّة تعني له كثيرًا، ما دام أدركَ كيف تراه محكمةُ السماء، وهي المحكمة الوحيدة التي تهمُّه، وصاحبة الحُكم الوحيد الذي سيَدوم أبدًا. لم يكن يهمُّه إنْ كان أعداؤه من ذوي السلطة يقولون عنه إنَّه نجس، بينما يعرفُ هو أنَّه طاهرٌ في عيون الله. أمامنا هنا شخصٌ مُتحَقِّق (وهي كلمة كانت قد اشتهرت في أوساط علم النفس) تمامًا حتَّى إنَّه تمكَّنَ أن يغفر لأولئك الذين ينفِّذون فيه حكم الإعدام (أعمال ٧: ٦٠). لماذا؟ لأنَّ استفانوس كان قد فهم معنى "الصُّعود". هل أدركتَ أنتَ هذا المعنى؟ إن كنتَ تؤمن بشخص المسيح، فهو يحيا الآن لحسابك، ويشفع فيك ويُحامي عنكَ.

هل تستمتع بذلك التواصل وتلكَ الشركة مع المسيح الذي صعد إلى السماء، وهو امتيازٌ مُتاحٌ لكَ بحسب الكتاب المقدَّس؟ هل يملأ ذهنك السلام المؤسَّس على معرفتك أن مُخلِّصكَ يتحكَّم في كلِّ الأمور وهو عن يمين الآب الآن؟ هل تملك فرحًا لا يموتُ وصورةً صحيحةً عن نفسك تستند إلى تلك الحقيقة: أنَّ المسيح يشفع فيكَ عن يمين الله؟ لقد ذهب يسوع إلى يمين العظمة في الأعالي ليكونَ لنا نَبيًّا وملكًا وكاهنًا. هو الآن صديقنا الحميم وقائدنا ومُحامينا ولكن بصورةٍ أكبر وعلى مدى أوسع ممَّا كان هنا على الأرض بالجسد. هل تعرفه في هذه الصفة وعلى هذا النحو؟ إنْ أردتَ أن تعيش وتموت بالقوَّة نفسها التي عاش بها استفانوس ومات، فعليكَ أن تستندَ مباشرةً إلى حقيقةِ صعود السيِّد المسيح.

الفصل العاشر

شجاعةُ مريَم

أودُّ في هذا الفصل الأخير أن أتأمَّلَ في قصَّة البشارة- وهي قصَّة ظهور الملاك للعذراء مريَم مُبشِّرًا إيَّاها بميلاد المخلِّص. وكما يتَّضحُ لنا، لا تشكِّلُ هذه القصَّة تحديدًا جزءًا من حياة يسوع؛ إذ إنَّها وقعَتْ قبل كلِّ اللقاءات التي تحدَّثنا بها في الفصول السابقة. السؤال إذًا: لماذا نتأمَّل في هذه القصَّة؟ ولماذا نفعل ذلك في الفصل الأخير؟ أودُّ هنا أن ألقيَ نظرةً مُدقِّقةً على ردِّ فعل الطوباويَّة مريَم على رسالة الملاك؛ لأنَّنا نشبه مريَم من بعض الجوانب. فهي في هذه اللحظة لم تكنْ قد قابلَتِ المسيحَ وجهًا لوجه، وكذلك نحن. غير أنَّها، وَفقًا للقصَّة، تتلقَّى رسالةً بشأن هذا الشخص، والرسالة في جوهرها هي رسالة الإنجيل التي تصفُ مَن هو يسوع وما سيفعله. وتتجاوَبُ مريَم العذراء مع هذه الرسالة بصورةٍ رائعةٍ ومؤثِّرة. ويمكننا أمام هذا النموذج اللامع الذي تقدِّمه أن نتعلَّم دروسًا أساسيَّة عن الكيفيَّة التي يجب أن نتجاوبَ بها مع كلِّ الأمور التي تعلَّمناها عن يسوع في الفصول التسعة الأولى من هذا الكتاب.

إليكم نصَّ القصَّة كما وردت في لوقا ١:

"وفي الشَّهر السَّادس أُرسِل جبرائيلُ الملاكُ من الله إلى مدينةٍ من الجليل اسمُها ناصرة، إلى عذراء مخطوبةٍ لرجُلٍ من بيت داوُد اسمُه يوسُف. واسمُ العذراء مريَمُ. فدخلَ إليها الملاكُ وقال: «سلامٌ لك أيَّتُها المنعَمُ عليها! الربُّ معك. مُباركةٌ أنت في النِّساء». فلمَّا رأتْه اضطربَتْ من كلامه، وفكَّرت: «ما عسى أن تكونَ هذه التحيَّة!» فقال لها الملاك: «لا تخافي يا مريَم، لأنَّك وجدتِ نعمةً عند الله. وها أنتِ ستحبلين وتلدين ابنًا وتُسمِّينَه يسوع. هذا يكونُ عظيمًا، وابنَ العليِّ يُدعى، ويُعطيه الربُّ الإلهُ كُرسيَّ داوُد أبيه، ويملكُ على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكونُ لملكِه نهاية». فقالت مريَم للمَلاك: « كيف يكونُ هذا وأنا لستُ أعرفُ رجُلًا؟» فأجاب الملاكُ وقال لها: «الرُّوحُ القدسُ يحلُّ عليك، وقوَّة العليِّ تُظلِّلك، فلذلك أيضًا القدُّوسُ المولودُ منك يُدعى ابنَ الله. وهوذا أليصاباتُ نسيبتُك هي أيضًا حُبلى بابنٍ في شَيخوختِها، وهذا هو الشَّهرُ السادسُ لتلك المدعوَّة عاقرًا، لأنَّه ليس شيءٌ غير مُمكنٍ لدى الله». فقالت مريَم: «هوذا أنا أمَةُ الرَّبّ. ليكُن لي كقولك». فمضى من عندها الملاك. فقامت مريَم في تلك الأيَّام وذهبت بسُرعةٍ إلى الجبال إلى مدينة يهوذا، ودخلت بيت زكريَّا وسلَّمت على أليصابات. فلمَّا سمعت أليصاباتُ سلامَ مريَم ارتَكضَ الجنينُ

في بطنها، وامتلأت أليصاباتُ من الرُّوح القُدُس، وصرختْ بصوتٍ عظيم وقالت: «مُباركةٌ أنت في النِّساء ومُباركةٌ هي ثمرةُ بطنك! فمن أين لي هذا أن تأتي أُمُّ ربِّي إليَّ؟ فهوذا حين صار صوتُ سلامك في أُذُنيَّ ارتكض الجنينُ بابتهاجٍ في بطني. فطوبى للَّتي آمَنَتْ أن يتمَّ ما قيل لها من قِبَل الرَّبِّ»" (لوقا ١: ٢٦-٤٥).

ما الذي نتعلَّمه من الملاك عن يسوع؟ تصفُ الرسالةُ التي تلقَّتْها مريَمُ يسوعَ بأنَّه "ابن العليّ". في اللغات القديمة، كان أحيانًا يُطلَقُ على المرء أنَّه ابنُ شخصٍ ما إذا كان يشبهُه أو يؤمن به بشدَّة. في يوحنَّا ٨، نجدُ يسوعَ وقد دخلَ في نقاشٍ حامٍ مع القادة الدينيِّين الذين زعموا أنَّهم أولاد إبراهيم وأولاد الله. لكنَّ يسوع واجههم بالقول إنَّهم أولادُ الشيطان لأنَّهم يكذبون مثله. لكنَّ لقبَ "ابن العليّ" تجاوزَ في معناه مجرَّد أنَّ يسوعَ كان تابعًا لله، ذلك أنَّ الملاك يضيف، قائلًا: "ويملك على بيت يعقوبَ إلى الأبد". إلى الأبد؟ وبعد ذلك- مدركًا ربَّما أنَّ الطوباويَّة مريَم لم تصدِّقْ أذنَيها- يكرِّرُ الملاكُ العبارةَ نفسَها بطريقةٍ أخرى، قائلًا: "ولا يكون لملكِه نهاية". وكأنَّ الملاك يقول: "أنا فعلًا أقصد إلى الأبد". لذا فنحن هنا أمامَ وعدٍ أنَّ الطفل الذي على وشك الولادة لن يكونَ ملكًا بالمعنى السياسيّ، بل سيكون صاحبَ مملكة تدومُ إلى الأبد. وكما هو واضح لنا، فإنَّ الدلالةَ القويَّة لهذا الوعد تكمنُ في أنَّ الملكَ الذي نتحدث بشأنه ليس ملكًا بشريًّا ينتهي مُلكُه بموته.

وبعد ذلك قال الملاك: "وقوَّةُ العليِّ تُظلِّلك". هذه العبارة فاتنة ساحرة، أليس كذلك؟ ويسترسلُ الملاك في كلامه، قائلًا: "والقدُّوس المولود منكِ يُدعى ابنَ الله". أيضًا يخبرنا الملاك بأنَّ هذا الكائنَ الأبديَّ سيأتي إلى هذا العالم بميلادٍ مُعجزيّ، وسيُدعى ابنَ الله، لأنَّه شبيه بالله في كلِّ شيء، ولأنَّ طبيعة الله القدُّوس ستتَّخذ هيئةً بشريَّة داخل رَحِم مريَم العذراء. لذا فإنَّ هذا الإنسان الذي سيولد سيكون كاملَ القداسة، بلا شرّ، وسيحيا إلى الأبد شخصًا إلهيًّا بشريًّا في آنٍ معًا. يا لها من عبارة غاية في الإدهاش! وهي عبارة تلخِّص بإبداع ما عُرِفَ بتعليم التجسُّد، والذي يعني أنَّ ابنَ الله أخذ طبيعةً بشريَّةً ووُلِدَ في عالمنا في جسدٍ بشريّ.

الأمر الثاني الذي نتعلَّمه عن يسوع، هو أنَّ اسمَه يعني "الله يُخلِّص". ما كان ممكنًا تخيُّلُ اسمٍ آخر يليقُ به أكثر من هذا الاسم! إنَّ مؤسِّسي الأديان جميعًا يأتونَ إلى عالمِنا بشرًا، يحاول كلٌّ منهم أن يُرشدَ الناس إلى طريق الخلاص. لم يزعمْ أيٌّ منهم بتاتًا أنَّه الله أو أنَّه حتَّى فاديًا أو مُخلِّصًا. أمَّا يسوع فيقول عن نفسه إنَّه هو الطريق والحقُّ والحياة، وهو الشخص الذي عاش الحياة التي كان عليكَ أن تعيشَها، بل أيضًا ماتَ الموتَ الذي كان عليكَ أن تموتَه بسبب خطاياك. لذا فإنَّنا نرى في اسم هذا الطفل تميُّزَ المسيحيَّة عمومًا وتميُّز شخص المسيح خصوصًا. ومرَّةً أخرى نجدُ زخمًا من الحقِّ الإلهي مُذخَّرًا في عبارةٍ وجيزة، بل في اسمٍ واحد.

وتجعلُنا هذه العبارةُ وحدَها نجدُ صعوبةً بالغةً في القول إنَّ كلَّ الأديان في جوهرها متشابهة. في العديد من الأوساط في مُجتمعنا، يكادُ أن يكونَ ذلك هو

الإيمانَ الراسخَ لدى الكثيرين. ويقول البعض إنَّ كلَّ الأديان تتساوى في عدم صوابها تمامًا، بينما يقول البعض إنَّ كلَّ الأديان تتساوى في صحَّتها جميعًا. وأنا أتفهَّم تمامًا الحافزَ الذي يدفع الكثيرين لتَبنِّي مثل هذا الموقف. ويهدفُ هذا الحافزَ إلى وقف روح التعالي المميت الذي يُصيب الكثيرَ من المتديِّنين- بما في ذلك المسيحيِّين- والذي يؤدِّي إلى نتائج كارثيَّة. لكنْ من ناحيةٍ أخرى، مقولةُ إنَّ المسيحيَّةَ هي في جوهرها لا تختلف عن بقيَّة الأديان هي مقولة غير صحيحة. إنَّ كلَّ صفحةٍ تقريبًا من صفحات العهد الجديد تطرحُ تصوُّرًا عن يسوع لا يمكن لأيِّ دينٍ آخر أن يطرحَه عن أيِّ أحد، وهذه من الكثرة حتَّى إنَّنا لا نكادُ أن نلحظَها في العهد الجديد.

لاحظْ مثلًا ما تقولُه إليصابات للعذراء مريَم. في الآية الأخيرة من القصَّة كما وردت في المقطع السابق من لوقا ١ تقول إليصابات إنَّ مريم طوباويَّة لأنَّها آمنت بما قاله لها الربُّ على لسان الملاك الذي أرسلَه إليها. لكنَّها عقبَ ذلك تخاطبُ العذراء مريَم قائلةً لها: "أمُّ ربِّي". هذا أمر مُدهِش! كيف يمكن لطفلِ مريَم الذي لم يُولَدْ بعدُ (بل الذي لم يُحمَل به بعد) أن يكونَ هو الربُّ الذي أرسلَ إليها الرسالةَ عن الطفل الذي لم يولد بعد؟ تَذكَّر أنَّ إليصابات هنا تتنبَّأ تحت سلطانٍ من الروح القدس، ومن غير الوارد أن تكونَ إليصابات واعيةً بمعنى كلِّ ما قالته. لكنَّ دلالةَ الكلام واضحةٌ لا لبس فيها، وهي أنَّ الطفل الذي على وشك القدوم إلى عالمنا هو الله الأزليُّ الأبديّ، وهو نفسه مَن أرسلَ إليها هذه الرسالة. وهذا زعمٌ مُدهش وصادم.

عليكَ أن تتذكَّرَ هنا أنَّ التصوُّرَ اليهوديَّ عن الله مختلفٌ عنه في الثقافات الأخرى. فعندما يتحدَّث الكتاب المقدَّس بشأن يسوع بوصفه قدُّوسًا (أي شخصًا إلهيًّا)، فهذا لا يعني أنَّه يحملُ في شخصيَّته درجةً أكبرَ من النفحة الإلهيَّة مقارنةً بكلِّ البشر. إنَّ الله، عند اليهود، لم يكن مجرَّد قوَّةٍ غير شخصيَّة تشكِّل جزءًا من كلِّ الوجود، ولكنَّه شخصٌ وإن كان غير محدود، متداخلٌ في الزمان وإن كان فوقه، وهو الخالق الأزليُّ الموجود قبل كلِّ الكائنات وفوقها. أن يُدعَى يسوع "قُدُّوسًا" (أو إلهيًّا) مع الوضع في الحسبان هذا التصوُّر عن الله لهو أمرٌ مدهشٌ فعلًا. لكنَّ ذلك هو العنصرُ الأساسيُّ في تصوُّر يسوع عن ذاته وهو ما يقوم عليه كلُّ ما عَلَّم به. لذا، فأنتَ أمامَ خِيارَين: إمَّا أن تقولَ إنَّ يسوع المسيح- كما يقول الكتاب المقدَّس- هو الله الخالق الذي لا مثل له، والذي أتانا متجسِّدًا، وهذا بالضرورة يجعل المسيحيَّة إعلانًا إلهيًّا أفضل ممَّا هو مُتاح في الأديان الأخرى، وإمَّا أن تقولَ إنَّ المسيحَ لم يكنْ على صوابٍ أو أنَّه كان كاذبًا، وهو ما يجعله هو وتابعيه يمثِّلون إعلانًا عن الله أسوأ ممَّا هو متاح في الأديان الأخرى. لكنْ لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن تكونَ المسيحيَّة دينًا مثل بقيَّة الأديان.

شاركتُ قبل بضع سنوات بصفتي متحدِّثًا في جلسةٍ مع رجلِ دينٍ مسلم، وكنَّا نتحدَّث بشأن الاختلافات بيننا أمام مجموعةٍ من طلبةِ الجامعة. وكان هناك طالبٌ ظلَّ يؤكِّد على هذا المعنى، قائلًا: "حسنًا، لقد استمعتُ إلى كلَيكما مدَّة عشرين دقيقة، وأريدكما أن تعلَما أنِّي لا أرى أيَّ اختلافٍ حقيقيٍّ بينكما. أنا فعلًا لا أرى أيَّ اختلافٍ بين الديانتَين. فما يبدو لي هو

أنَّ الدينَين كلَيهما يقولان إجمالًا إنَّ الله محبَّة وإنَّنا يجب أن نُحبَّ الله ويحبَّ أحَدُنا الآخر". وفي ردِّنا على الطالب كنتُ، أنا ورجل الدين المسلم، على اتِّفاقٍ تامّ. من الوهلة الأولى قد نجدُ طرحَ الطالب أنَّنا متشابهان أمرًا يدعو إلى التسامحُ وقبول الآخر، لكنْ حاوَلَ كلانا أن يُقنعَ الطالبَ بهدوءٍ واحترام أنَّه لم يعطِ نفسَه الفرصة الكافية ليُنصِتَ إلى الصوت المميَّز لكلا الدينَين. كلُّ دينٍ يقدِّمُ تصوُّراتٍ متفرِّدةً تتناقضُ مع التعاليم الجوهريَّة للأديان الأخرى. وهكذا، فإنَّ ما انتَهينا إليه أنَّ كلَّ دينٍ بالضَّرورة يحترم الحكمة التي يقوم عليها الدين الآخر، لكن في الوقت نفسه لا يمكن للدِّينَين أن يكونا كلاهما صحيحَين في آنٍ معًا. ومع ذلك ظلَّ هذا الطالب يدافعُ عن موقفه القائل إنَّ كلَّ الأديان في جوهرها متشابهة.

والمفارقة عندي هنا أنَّ هذا الطالبَ في دفاعه عن منطقه كان متعصِّبًا ومتعاليًا ومدفوعًا بأيديولوجيا معيَّنة مثلُه في ذلك مثلُ أيِّ شخص متعصِّبٍ دينيًّا. لقد كان يقول في مجمل كلامه: "أنا أملك التصوُّرَ الصحيحَ عن الدين، بينما لا تملكانه أنتما. أنا أستطيع أن أرى أنَّكما متشابهان، بينما تعجزان أنتما عن رؤية ذلك. أنا مُستنيرٌ روحيًّا، بينما هذه ليست حالكما". ولكنِّي عندما تحدَّثت معه لاحقًا، استنتجتُ أنَّه كان مدفوعًا بحافزِ الخوف. لأنَّه إنْ أقرَّ أنَّ أيًّا من الدِّينَين قدَّمَ تصوُّرات متميِّزة عن تصوُّرات الآخر، سيلزمه هنا أن يقرِّرَ ما إذا كانت هذه التصوُّراتُ صادقةً أم لا. أنَّه لم يُرِد أن يتحمَّل مسؤوليَّة التفكير في الأمر وحتميَّته وتقييم هذه التصوُّرات، ثمَّ الاختيار. ويشيعُ هذا الموقفُ بين الشباب الذين يتبنَّون الموقف العَلمانيّ، الذين يرون أنَّ جوهرَ كلِّ الأديان

واحد. هل أتجاسر وأقول إنَّ هذا شكلٌ من أشكال عدم النُّضج العاطفيّ؟ الحياة حافلةٌ بالاختيارات الصعبة، ومن عدم النُّضج الظنُّ أنَّ في وُسعكَ أن تتجنَّبَ مواجهة هذه الاختيارات. إنَّ فكرةَ تشابُه الأديان وتساويها يمكن أن تُجنِّبَكَ الكثيرَ من المشقَّة، لكنَّها فكرةٌ زائفةٌ بكلِّ بساطة. كلُّ دين- بما فيها تلك الأديان التي تبدو كأنَّها متقبِّلة للأديان الأخرى- يقدِّمُ تصوُّره المميَّز الذي يجعله مختلفًا عن غيره. إلَّا أنَّ التصوُّر أو الزعم الذي يطرحُه يسوع هو طرحٌ مستفزٌّ حقًّا؛ لأنَّه إنْ كانت تلك المزاعم صحيحة، فلا بديل أمامكَ سوى أن تركعَ أمامه. إنَّ بشارةَ الملاك للعذراء تطرحُ علينا دون مواربةٍ يسوع حاسبةً إيَّاه الخِيار الوحيدَ والحصريَّ، وهو ما يستَلزمُ منَّا ردَّ فعلٍ ويُرينا أنَّ هناك الكثيرَ من التفكير والبحث الشاقَّين.

كانت البشارةُ أمرًا صادمًا لمريَمَ العذراءَ لأسبابٍ اجتماعيَّة، فضلًا عن الأسباب اللاهوتيَّة. كانت العذراءُ في ذلك الوقت تبلغُ من العمر نحو أربعة عشر عامًا، وكانت فتاةً فقيرةً جدًّا. والعلامة التي نستدلُّ بها على الوضع الاجتماعيِّ لكلٍّ من القدِّيسَين مريَم ويوسُف تتَّضحُ لنا عندما ذهبا إلى الهيكل لختان يسوع (في اليوم الثامن لميلاده). كان نوعُ التقدمة التي يقدِّمُها الأبوان إتمامًا لهذا الطقس يعتمدُ على الطبقة الاجتماعيَّة التي كانا ينتميان إليها. فإنْ كانت العائلة فقيرةً جدًّا كان يسعُها أن تقدِّم فرخَي حمام، وهذا ما فعلتْه عائلةُ يسوع. كانت مريَم شابَّةً فقيرة، وإضافةً إلى ذلك، كانت تلك الأخبارُ ستجلبُ العارَ عليها. ورغم ذلك كلِّه، فإنَّ هذه الفتاة الفقيرة التي لم تكنْ متزوِّجة في ذلك الوقت وتعرَّضَتْ للعار الاجتماعيِّ بسبب ذلك- هي الآن إحدى أشهَرِ

الشخصيَّات في تاريخ العالم. وعلى النقيض من ذلك، فإنَّ أغلبنا سيطويه النسيان بعد جيلَين. فما الذي يجعل هذه الفتاة شخصيَّةً عظيمة؟ ما يجعلها عظيمةً هي الطريقةُ التي تجاوبَتْ بها مع الله ورسالته. لقد فعلَتْ مريَمُ العذراء أربعةَ أمورٍ محدَّدة.

الأمر الأوَّل الذي فعلَتْه مريَم العذراء هو التفكيُر؛ فقد استخدمت قدراتها العقليَّة. وهنا لا تسعفُنا الترجمات للتَّدليل على هذه النقطة. بعد ظهور الملاك لها بقليل، يقول النص: "فلمَّا رأتْه اضطربَتْ من كلامه وفَكَّرت ما عسى أن تكونَ هذه التحيَّة" (لوقا ١: ٢٩). وكلمة "فَكَّرت" في هذه الآية هي الكلمة اليونانيَّة "ديولوجيستيكو" *(Deologistico)* والتي تعني "يستخدم المنطق" أو "يُفكِّر بعمق". وهذا يعني أنَّ مريم كانت تحاول أن تفهمَ إنْ كان كلُّ هذا صحيحًا.

ربَّما نستغرب هذا المشهد. نحن نحبُّ أن نصِفَ أنفسَنا اليوم بأنَّنا عقلانيُّون وأصحاب عقليَّة علميَّة؛ فنحن نسأل الأسئلة الصعبة، ونستخدم المنطق، ونسعى في طلب الدَّليل التجريبيّ، وهو ما يجعلنا نجد صعوبةً شديدةً في الإيمان بشيء مثل ظهور ملاك. والنتيجة الحتميَّة لذلك هو تصوُّرنا أنَّ الناسَ الذين عاشوا في الماضي كانوا يؤمنون بالخرافات ولم تكن لديهم أيَّة مشكلة في الإيمان بالأمور الفائقة للطبيعة. ونفترض كذلك أنَّه إنْ ظهرَ ملاكٌ في القديم، فإنَّ الذين يعيشون في هذا الزمن سيقولون بكلِّ بساطة: "ملاك. يا أهلًا وسهلًا، أعطنا الرسالة التي تحملها من فضلك". يا لها من نظرةٍ متعجرفة ومتصلِّفة منَّا تُجاه آبائنا! هذا فضلًا عن إساءة قراءة النصّ. بل على العكس من ذلك، فإنَّنا نرى هنا مريَم العذراء وهي تجدُ صعوبةً في فهم ما حدثَ وصعوبةً في تصديقه.

لماذا؟ لأنَّ مريَم كانت يهوديَّة. هذه الأخبار التي تلقَّتها من الملاك لم تكن تتناسبُ مع ما كانت تعرفه؛ حيث إنَّ معنى الرسالة كان يشير إلى إنسانٍ إله، والفكرة أن يصيرَ الإله الذي ظهرَ على جبل سيناء إنسانًا كانت مستحيلةً لعقل اليهود ومستهجنةً إلى حدٍّ بعيد (وذلك أيضًا يمثِّل جزءًا من الأسباب التي جعلَتْ مريَم المجدليَّة والتلاميذ يجدون صعوبةً في تقبُّل ما قاله يسوع عن إنَّه سيقوم فعلًا من بين الأموات). إذًا كانت أمامَ مريَم مجموعةٌ متباينةٌ من العقبات المنطقيَّة التي تعوق تصديقها للرِّسالة الإلهيَّة التي تلقَّتها، وهي عقبات تتجاوز في تباينها ما يواجهه أيُّ شخصٍ في الوقت الحاليّ، وإنْ كان حجمُ هذه العقبات هو نفسه أمامنا الآن. كان من الصعب على مريَم العذراء أن تصدِّقَ الإنجيل، تمامًا كما هي حالنا اليوم. فالبشارة لا تزال تحدِّيًا كبيرًا لكلِّ نماذج التفكير ورؤى العالم. وليس من مكانٍ في العالم ولا زمان في التاريخ خلَتْ جميعًا من وجود عقباتٍ هائلةٍ تَحولُ دون الإيمان بأنَّ الله خالق هذا الكون سيحلُّ في رَحِم فتاةٍ ليولدَ منها بوصفه إنسانًا. لم تكن هناك لحظةٌ في التاريخ أمكنَ فيها لفكرة التجسُّد أن تنسجمَ مع الحكمة السائدة في هذا العصر. لذا فإنَّ بشارة التجسُّد تتصادمُ مع كلِّ المَرويَّات الثقافيَّة وتستلزمُ إعمال الفكر جِدِّيًا؛ وهو ما لا تتجنَّبه مريَم، ولكنَّها تفعل بالضَّبط ما طلبَه يسوع من نثنائيل- ذلك الطالب المتشكِّك- وتحدَّاه به. ما تفعلُه مريَم العذراء هنا هي أنَّها تفحصُ القرائن والأدلَّة، كما تتحقَّقُ من الاتِّساق الداخليِّ لهذه المزاعم، ثمَّ تستنتج أنَّها صحيحة. وإنِ استطاعَتْ هي في زمنها أن تفعلَ ذلك، فعلينا نحن أيضًا أن نكونَ مستعدِّين لاستخدام عقولنا لنفحصَ بها الرسالةَ التي تحملُها المسيحيَّة.

الأمرُ الثاني الذي فعلَتْه العذراء مريَم هو التعبير عن شكوكها بوضوح؛ فقد قالت للملاك: "كيف يكونُ هذا، وأنا لستُ أعرفُ رجلًا؟" مرَّةً أخرى، فإنَّ العذراء مريَم لا تُسلِّم بالأمور التي تُعرَض عليها؛ فهي لم تقُلْ بعد سماع الرسالة: "حسنًا، أنت ملاك، والمسألة كلُّها معجزيَّة، فلا خِيارَ لديَّ إلَّا أنْ أصدِّقَ ذلك". لا، بل ما تقولُه العذراء مريَم ردًّا على ما قاله الملاك هو ما كان سيقولُه أيُّ شخصٍ يفكِّر بعقلانيَّة. كيف لها أن تنجبَ طفلًا دون أن تتزوَّج؟ هذا شكٌّ عبَّرت عنه بوُضوح للمَلاك. وإنْ كشفَ ذلك عن شيء، فهو يكشفُ عن إرادةٍ حاضرةٍ للتَّعامُل مع شكوكها وتساؤُلاتِها بأمانة. لكن لنقُلْ إنَّ هناك نوعَين من الشَّكّ: شكوك غير مخلِصة وشكوك مخلصة. وتتَّسمُ الشكوكُ غير المخلصة بالتَّعالي والجُبن؛ ولا يظهر ممَّن يحملونها سوى الاحتقار والكسل العقليّ. ويقولُ مَن يجادلُ بالشكِّ غير المخلِص: "يا لها من فكرةٍ مخبولة!" ثمَّ يغادر الفكرة دون أن يفحصَها. إنَّ تعبيرات من قبيل "هذا مستحيل" (أو مقابلها المعاصر "من الغباء تصديق ذلك") هي عباراتٌ تقريريَّة ولا تُشكِّل حُجَّةً في ذاتها. وبهذه الطريقة يهربُ صاحب الشكِّ غير المخلص من الجهد الشاقِّ الذي يتطلَّبه التفكير. على النقيض من ذلك يتَّصفُ أصحابُ الشكوك المخلصة بالتَّواضع الذي يؤدِّي بهم إلى طَرْحِ الأسئلة عليك، لا إقامة حائط في وجهك. وعندما تطرحُ سؤالًا حقيقيًّا، فإنَّ من شأن هذا أن يجعلَك مفتوحًا على الإجابات المحتملة. وكان سؤالُ مريَم العذراء بالفعل بُغيةَ طلبِ معلومات، وهو ما جعلَها مفتوحةً على إمكانيَّةِ تلقِّي إجابةٍ جيِّدة تدفعُها إلى تغيير وجهة نظرها. إذًا الشكوكُ المخلصة مفتوحةٌ على إمكانيَّة الإيمان؛ فإذا سعيتَ فعلًا إلى طلب المعلومة والحُجَّة المنطقيَّة المتماسكة، هناك احتمال أن تحصلَ عليهما.

وهذا ما يُدهشني في هذا المشهد. إنْ لم تكن مريَم العذراء قد عبَّرت عن شكِّها، ما كان للملاك أن ينطقَ بواحدةٍ من أعظم العبارات في الكتاب المقدَّس: "لأنَّه ليس شيء غير ممكن لدى الله" (لوقا ١: ٣٧). أنا شخصيًّا شاكرٌ جدًّا للطوباويَّة مريَم على الشكِّ الذي أبدَته، لأنَّ هذه العبارة كانت مصدرَ تعزيةٍ وإرشاد لي على مدى سنوات طويلة. كما كانت هذه الكلمات سببًا في دَعْم الكثيرين ومساندتهم. والسبب الوحيد الذي مُنحنا به هذا الإعلان الإلهيّ هو شَكُّ العذراء مريَم. كلَّما توافرت لديك الإرادة لأنْ تفصحَ عن شَكِّكَ بأمانة وتواضع؛ وكلَّما كشفتَ عن أسئلتك المخلِصة، أضفتَ شيئًا ما إلى نفسِكَ وإلى الناس من حولكَ. لقد رأيتُ العديدَ من الناس الذين يرفضون طرْحَ الأسئلة والتعبير عن شكوكهم. البعض يرفضُ بسبب قلوبهم القاسية، بينما يرفض البعض الآخر التعبير عن شكوكهم وأسئلتهم لأنَّهم يعتقدون أنَّ ذلك شيء لا يدعو إلى الاحترام. أرجوكم، لا تخشَوا طرْحَ شُكوكِكم وأسئلتكُم المخلِصة.

الأمر الثالث الذي تفعلُه مريَم العذراء هو استسلامها الكامل. أجل! هذا ما لا بدَّ أن يحدثَ في النهاية. عندما تسمعُ مريم العذراء تلك العبارة "ليس شيء غير ممكن لدى الله"، تتجاوَبُ معها. في حقيقة الأمر، إنَّ عبارةَ "ليس شيء غير ممكن لدى الله" هي في ذاتها حُجَّة قويَّة. هل تؤمنين بالله يا مريَم؟ نعم. حسنًا، إنْ كان هناك إلهٌ خلقَ هذا العالم، وخلَّصَ شعبَكَ وحماهم لقرون، ما الذي يمنعه من فعل ذلك؟ وهذا كان طرحًا منطقيًّا لدى مريم. وهنا تقول: "هوذا أنا أَمة الرَّبّ، ليكُنْ لي كقولك" (لوقا ١: ٣٨). أحبُّ أناقةَ هذه العبارة وجمالَها كما وصلتنا في الترجمات.

أحيانًا يقولُ لي الناس: "أحبُّ أن أكونَ مسيحيًّا، لكن هل يتحتَّم عليَّ أن أفعلَ بعض الأمور ولا أفعلَ أمورًا أخرى؟ هل عليَّ أن أُقلعَ عن هذا الشيء؟ هل عليَّ أن أصلِّي، وأن أتوقَّف عن ممارسة الجنس، وأترك عملي، وأُغيِّر آرائي؟" من المؤكَّد أنَّ هناك بعضَ المشروعيَّة في هذه الأسئلة؛ لأنَّ الشخصَ الذي يطرحُها يحتاجُ إلى حسابِ التكلفة التي سيتكلَّفها ليصيرَ مسيحيًّا حقيقيًّا. يسوعُ نفسه يخبرنا بأنْ نحسب "حساب نفقة" التلمذة (لوقا ١٤: ٢٥-٣٣). لكنَّ خشيَتي هي أنَّ بعض الناس يريدون التفاوُض حول حساب النفقة، بدلَ حسابها فعلًا. هؤلاء على استعداد لأن يتخلَّوا عن الأشياء، لكن ليسوا على استعداد لأن يتخلَّوا عن حقِّهم في تحديد الأشياء التي يحتاجون إلى التخلِّي عنها. وهؤلاء أيضًا يريدون أن يكونوا دائمًا في الوضع الذي يسمحُ لهم بعَملِ حساب الربح والخسارة بشأن سلوكيَّاتهم المختلفة، وهو ما يحفظ لهم دائمًا حقَّ الجلوس على مقعدِ القيادة، أو عرش حياتهم، إنْ جازَ القول. سمعتُ مرَّة أحدَ مُعلِّمي الكتاب المقدَّس يصوغ هذا المعنى ذاته كالتالي: "عندما يتعلَّق الأمر بتبعيَّة يسوع، فإنَّ أصعبَ ما يمكن أن تمنحه إيَّاه هو إرادتك وقيادتك لحياتك". وعندما يتراءى الله لإبراهيم، يقولُ له: "يا إبراهيم، اخرج من أرضك، أرض الكَلدانيِّين، واتبعني". فيأتي ردُّ إبراهيم: "وإلى أين أذهب؟"، فيردُّ الله: "سأُريكَ لاحقًا". كان الله يريدُ من إبراهيم أن يتخلَّى عن حقِّه في أن يقرِّر لنفسه الطريقة المثلى التي يُدير بها حياتَه.

عندما تُسَلِّم حياتك إلى السيِّد المسيح، تحتاجُ لأن تقولَ ما قالَتْه مريَم

العذراء بشكلٍ أو بآخر. لذا ينبغي لقلبك أن يقول: "يا ربّ، لا أعرف كلَّ ما ستطلبه منّي، لكنّي سأفعل كلَّ ما تقولُه كلمتك، سواءٌ أحببتُ ذلك أم لا، وسأقبلُ بكلِّ صبرٍ كلَّ ما تفعلُه في حياتي، سواءٌ فهمتُه أم لا". بعبارةٍ أخرى، لا يمكنُك ببساطةٍ أن تعلمَ مُسبَّقًا كلَّ الأمور التي سيطلُبها منك الله. فمثلًا، يعرفُ معظم الناس أنَّ الكتاب المقدَّس يطلب منَّا ألَّا نكذبَ أو نغشّ. لكنَّك قد تصل إلى اللحظة التي يكلِّفُك فيها قولُ الحقيقة مستقبلك المهنيّ من جهة، بينما تحفظُه لك كذبة واحدة من جهةٍ أخرى. لذا، فإنَّ تبعيَّة السيِّد المسيح ستكلِّفك كثيرًا. وهكذا فعندما نصل إلى لحظة كهذه، علينا أن نكون قد تثبَّتنا قبلها ممَّا سنفعله. لا يمكنك أن تعرفَ كُلفة تبعيَّة المسيح مسبَّقًا، لذا عليك أن تقولَ بكلِّ بساطة: "لا أعرف كلَّ ما سيأتي عليَّ، لكنَّ هناك شيئًا واحدًا أعلمه: أنّي سأتخلَّى عن حقّي في تقرير ما إذا كنتُ سأفعل مشيئة الله أم لا، لكنّي سأفعلها دون شروط".

من المؤكَّد أنَّ مريمَ العذراء لم تعرفْ كلَّ التكلفة التي ستتحمَّلها، وإن كانت قادرة على تكوين فكرةٍ ما عن ذلك. وكذلك كانَتِ الحال مع القدِّيس يوسُف. ومن المفيد هنا أن نقارنَ ما يردُ في لوقا ١ بما يَرِدُ في متَّى ١. يقدِّم إلينا لوقا ١ حادثةَ البشارةَ من وجهة نظر مريمَ العذراء، بينما يقدِّمها إلينا متَّى ١ من وجهة نظر يوسُف. فعندما علم يوسُفُ أنَّ خطيبتَه مريمَ حامل؛ وأنَّه ليس الأب، قرَّر أن يفسخَ الخِطْبة. لكنَّ ملاكًا ظهرَ له وأعطاه رسالةً من الله فحواها أنَّ عليه أنْ يتزوَّج مريمَ بعد ذلك. وكان يوسُفُ يعرفُ أنَّه إنْ تزوَّجها، فكلُّ فرد في المدينة الصغيرة التي يعيشون فيها- حيث المجتمع الذي يقوم على

فكرتَي العار والشرف- سيعرفُ أنَّ الطفلَ حُبِلَ به خارج إطار الزواج، فهؤلاء الناس يعرفون كيف يحسبون المواقيت. في حقيقة الأمر، فإنَّ معظم صديقات مريَم ستُدركنَ أنَّ مريم كانت حاملًا قبل العرس. إنْ عاجلًا أو آجلًا سيعرفُ الجميعُ أنَّهما إمَّا أقاما علاقةً حميمة قبل الزواج، وإمَّا أنَّ مريَم لم تكنْ وَفِيَّة ليوسف، وفي كلا الحالتَين سيكونان قد ضربا الأعراف الأخلاقيَّة والاجتماعيَّة للثَّقافة التي يعيشان فيها عرضَ الحائط. وهو ما يعني أنَّهما سيعيشان داخل مُجتمعهما وللأبد كأنَّهما مواطنان من الدرجة الثانية. كذلك سيُعرِض البعض عنهما وعن أبنائِهما، كما سيكونان دائمًا موضع شكٍّ من الجميع.

لذا، ما الذي يعنيه قبولُ القدِّيسَين يوسُفَ ومريَم كلمة الرَّبّ، ولسان حالهما: "سنتسلَّمُ الدَّعوة التي تُطالبنا بقبول هذا الطفل في حياتنا. سنقبلها مهما جلبت علينا"؟ ما الذي تكلَّفاه حينما قبلا "عِمَّانوئيل- الله معنا" حرفيًّا في حياتهما (متَّى ١: ٢٣)؟ ما الذي يحتاج إليه المرءُ ليكونَ "معه"؟ الإجابة التي يطرحها علينا النصُّ هي: الشجاعة؛ والإرادة الحاضرة لفعل مشيئته، بغضِّ النظر عن أيِّ شيء.

عندما طلب الملاك من يوسُفَ أن يتزوَّج بالعذراء مريَم، كان ما يطلبُه منه إجمالًا هو الآتي: "إذا ما دخل يسوع حياتك، ستكون منبوذًا ومرفوضًا، كما سيصيرُ لِزامًا عليكَ أن تُودِّع سُمعتكَ الطيِّبة". لكنَّ القدِّيسَ يوسُفَ تزوَّج بالعذراء مريَم. المؤكَّد أنَّ بعضًا من أصدقاء يوسف تساءلوا: "لماذا تزوَّجتَها يا رجل؟ إمَّا أنَّكَ فعلتَ تلك الفعلة، وإمَّا أنَّها لم تكن وفيةً لكَ". هل يمكنكَ أن تتخيَّلَ يوسُفَ بينما يحاول إخبارَهم بالحقيقة؟ ربَّما يكون قد قال: "يمكنُني

أن أشرحَ لكم. لقد حبلت مريَم من الروح القدس، وقد فهمنا كلَّ ذلك من الملاك". ما كان أصدقاؤه ليفهموا هذه الحقيقة، لذا أدركَ يوسُفُ أنَّهم سينظرون دائمًا إليه نظرةً سلبيَّة.

هناك أماكنُ عديدةٌ في العالم الآن سيجعلك الاعترافُ بالمسيح تعيش فيها الموقفَ نفسَه الذي عاشَه كلٌّ من القدِّيسَين يوسُفَ ومريَم. مثلًا، إنَّ الإيمان المسيحيَّ يبدو غير معقول ويستعصي على التصديق للعديد من الأصدقاء في نيويورك، تمامًا كما كانت قصَّة الملاك لمريَم العذراء وأصدقاء القدِّيس يوسُف. إنْ كنتَ تعلنُ إيمانَكَ المسيحيَّ صراحةً في الدوائر الاجتماعيَّة أو المهنيَّة حيث توجَد، فالعديد من الناس لن يفهَموا ذلك، وستجدُ صعوبةً في جعلِهم يفهمون السببَ من وراء كونك كذلك. أيضًا فإنَّ سمعتكَ ستتأثَّر في العديد من الحالات.

لكن، لماذا- بحسب ظنِّكَ- أتى يسوع المسيح إلى عالمنا بواسطة فتاةٍ تحبلُ دون زواج في ثقافة أبويَّة تقومُ على فكرتَي العار والشرف؟ لم يكن الله محتاجًا لأن يتمِّم ذلك بهذه الطريقة. لكنَّ ظنِّي أنَّه فعل ذلك ليقولَ لنا: "أنا لا أنجزُ أهدافي بالطريقة التي يتوقَّعها العالم، بل بالطريقة العكسيَّة تمامًا. إنَّ قوَّتي في الضَّعْف تُكمَل. إنَّ الرئيس- المخلِّص- الذي سأرسلُه سيولد، لا في مهدٍ موضوعٍ في قصر ملكيّ، بل في مِذوَد موضوع في «إسطبل»، ولن يولَدَ هذا المخلِّص في أسرةٍ معروفةٍ ذاتِ نفوذٍ وسلطان، بل في أُسرةٍ من البسطاء المكلَّلين بالعار الاجتماعيّ. وتتَّسقُ هذه التفصيلة من خُطَّةِ الخلاص تمامًا مع تفاصيل الخُطَّة كاملةً؛ فيسوع سيُتمِّم الخلاصَ بالضَّعف والألم والموت على الصليب، وسيكون له القوَّة والتأثير في البشر بتقديمه نفسه ذبيحة. وإنْ قبلْتَ يسوع في

حياتك، فستَختبرُ المعاملةَ ذاتها. لكنَّ الخلاصَ الذي أُقدِّمُه يسيرُ وَفقًا للمنطق التالي: ألمٌ يؤدِّي إلى مجد، وموتٌ إلى قيامة. لذا لا تخفْ، واقبَلْ يسوعَ المسيح في حياتك وأنا سأكون شرفًا وكرامةً لك. ولا يهمُّ هنا ما يعتقده العالم".

وهكذا كان القدِّيسان يوسُفُ ومريَم على استعدادٍ لأن يفعلا من أجل يسوع ما فعَلَه هو بعد ذلك من أجلهما. لقد أطاع يسوع الآب، حتَّى إلى موت الصليب (فيلبِّي ٢: ٤-١١). وعندما دعاهما الله، تخلَّيا عن حقِّهما في تقرير المصير. إنْ أردتَ أن يكونَ يسوعُ حقًّا مركَزَ حياتِكَ، فعليكَ أن تقدِّم إليه طاعةً غير مشروطة. وعليكَ أن تتخلَّى عن تَحكُّمكَ في حياتك، وتُسقِطَ كلَّ الشروط التي تَحُولُ دون تسليمِ حياتكَ بالكامل، كما عليكَ أن تتخلَّى عن حقِّك في أن تقول: "سأُطيعك إذا... وسأفعل ذلك إذا...". عندما تستخدم "إذا الشرطيَّة"، فذلك ليس شكلًا من أشكال الطاعة. وعندما تستخدم "إذا"، فأنتَ تقولُ له: "أنتَ مُستشاري، ولستَ ربِّي؛ ويسعدني أن أضعَ توصياتك في الحسبان، بل ربَّما أفعل بعضًا منها". إنْ أردتَ فعلًا ليسوع أن يكونَ معك، فعليكَ أن تتخلَّى عن حقِّ تقرير المصير.

وتفعل مريَم العذراء أيضًا أمرًا أخيرًا يمكنُ أن نجدَ فيه درسًا لنا. بعد سماع البشارة تذهبُ إلى إليصابات، التي تتحدَّث معها بقوَّة الروح القدس، ولا بدَّ أنَّ هذا اللقاء قد ساعدَ مريَم كثيرًا، ومن المؤكَّد أنَّها تشجَّعت بسببه، بل لعلَّ ذلك ساعدَها على فَهْمِ وضعِها فهمًا جديدًا. لأنَّه في اللحظة التي تُنهي فيها أليصابات كلامَها، تنشد مريَم ترنيمةً بديعة، أسماها الكثيرون بعد ذلك بتسبحة العذراء، التي تبدأها بالسجود لله وتمجيده من كلِّ قلبها، قائلةً:

" تُسبِّح نفسي الرَّبّ، وتبتهج روحي بالله مُخلِّصي" (لوقا ١: ٤٦-٤٧). وفي هذه الأنشودة تمرُّ مريم بكلِّ العهد القديم- بالمزامير وإشعياء والأنبياء- لتصلَ الآيات بعضها ببعض على نحوٍ لافت يكشفُ عن مجيء المسيَّا المخلِّص. إنَّ البشارةَ لم تكن مناقضةً للإيمان كما يعلنه الكتاب المقدَّس، ولكنَّها كانت بالأحرى تتميمًا له. كلُّ هذه التأمُّلات البصيرة تأتيها لأنَّها زارت أليصابات.

الأمرُ الرابعُ الذي تحتاج أنت إليه هو الوجود في جماعة. لا يبدو أنَّ الطوباويَّة مريَم كانت تفهم تمامًا ما كان يحدث حتَّى ذهبت والتقَتْ أختًا أخرى مؤمنة وتحدَّثتْ إليها وتعبَّدت معها. أجل! أنتَ تحتاج كما كانت مريَم العذراء بحاجةٍ لأنْ تفكِّر بعمق، وتعبِّر عن شكوكِكَ صراحةً، ثمَّ تستسلم بعدَها بالكامل للرَّبّ- لكنْ لن يكفي أن تفعلَ كلَّ هذه الأمور وحدَك دون وجود أصدقاء حولك يمكن الوثوقُ بهم. البعض منَّا لا يريدون للآخرين أن يعرفوا شيئًا عن صراعاتهم الروحيَّة حتَّى تنتهي ويصيرون قادرين على الحديث بشأنها بصيغة الماضي. أمَّا في نهاية الأمر، لن تستطيعَ إكمال رحلتك الروحيَّة دون هذه الجماعة.

لقد كانت مريَم العذراء فتاة بسيطة، ولكنَّها صارتْ أعظمَ الكلّ؛ لأنَّها تجاوَبتْ مع الله بكلِّ تواضع ممكن. لقد فكَّرتْ، وتشكَّكتْ، واستسلَمَتْ، ثمَّ تواصلَتْ مع الآخرين. إنْ كانت هي فعلتْ ذلك وبلَغَتْ ما بلغَتْه، ففي وُسعكِ أنتَ أيضًا أن تحذوَ حذوَها.

شكرٌ وتقدير

أودُّ أن أشكرَ جون درايك (Jon Drake) والعديد من الطلبة القائمين على إدارة الاتِّحاد المسيحيِّ الذي يضمُّ كلَّ كلِّيَّات جامعة أكسفورد، وهي الهيئة التي تكرَّمت بدَعوتي لأقدِّم محاضرات عن المسيحيَّة في أكسفورد تاون هول (Oxford Town Hall)، وذلك في بداية شباط/فبراير عام ٢٠١٢م. وكان هناك أسبوعٌ كامل استضافَني فيه الطلبة المسيحيُّون من جميع كلِّيَّات جامعة أكسفورد، أنا وعائلتي- بمَن في ذلك زوجتي كاثي (Kathy) وابني مايكل (Michael) وزوجته سارة (Sara)- لنكونَ شركاء معهم بينما يشاركون إيمانَهم وحياتهم مع أصدقائهم وزملائهم. وبعد كلِّ ليلة من الحديث المتواصل والمكثَّف مدَّة ساعتَين مع جموع الطلاب وأفرادٍ منهم، كنتُ أنا وعائلتي نعودُ إلى مكان إقامتنا، مارِّين بوسط مدينة أكسفورد (أحيانًا في أثناء هطول الثلوج) لنتجمَّع أمام مدفأة ضخمة تعود إلى القرن السابع عشر لنحكيَ بعضنا لبعضٍ ما حدثَ معنا في أثناء اليوم. وكنتُ دائمًا ما أذهبَ إلى فراشي وأنا أحمل داخلي مزيجًا من مشاعر القصور والفرح في آنٍ معًا. الفصول الخمسة الأولى من هذا الكتاب مُستوحاة من تلك المحاضرات.

أودُّ أيضًا أن أشكرَ مارك كَمبيسانو (Mark Kampisano) الذي نظَّم لجلسات إفطار خاصَّةٍ برجال الأعمال في نادي هارفرد بوسط منهاتن وقدَّم الدعم المادِّيَّ اللازم لتلك الجلسات. وقد ظلَّ يفعلُ هذا لسنوات عديدة كلَّفته الكثيرَ من التضحيات الشخصيَّة. وكنتُ قد شاركتُ بصفتي متحدِّثًا في هذه الجلسات لسنوات. عادةً ما كانت الغرفة الفخمة المغطَّاة بالخشب تمتلأ عن آخرها بالحاضرين، بل كانوا يزيدون أحيانًا عن طاقتها. وشهرًا بعد شهر، ظلَّ مارك ومعه آخرون يحاولون تقديم الإيمان المسيحيِّ في مكانٍ وإطارٍ غير تقليديَّين إلى زملائهم من رجال الأعمال الذين يعملون في وسط المدينة. وفي أحاديثي كنتُ قد تطرَّقتُ إلى العديد من المواضيع، وإنْ كنتُ في سنةٍ من السنوات قد خصَّصتُ سلسلةً من المحاضرات عن شخص المسيح وعمله، وقد استَوحَيتُ منها الفصول الخمسةَ الأخيرة من هذا الكتاب.

أخيرًا، فإنَّ هذا المحتوى ما كان ليُقدَّرَ له أن يُضَمَّ في كتابٍ لولا الجهود المضنية والمهارة التي دعمني بها زميلي في الخدمة سكوت كاوفمان (Scott Kauffmann) الذي يعمل معي في خدمة "الفادي من مدينة إلى مدينة" (Redeemer City to City). سكوت يُحبُّ الكلمات، ويعشقُ اللَّاهوت، ويتوقُ لأنْ يرى الدَّهشة وهي تعلو وجهَ الناس عندما تشرق عليهم معجزة الإنجيل. وهذا ما يجعلُه- بحسب رأيي- محرِّرًا عظيمًا وشريكًا في خدمة الكلمة بالكتابة. شُكري لك يا سكوت.

الحواشي

الفصل الأوَّل: الطالب المتشكِّك

١. هذا الاقتباس مع الاقتباسَين التاليَين مأخوذةٌ جميعًا من نصٍّ لأودن منشور في كتاب (*Modern Contemporary Pilgrims*, ed. James A. Pike, New York: A. R. Mowbray, 1956, 41)

كذلك اقتُبسَتْ هذه المقاطع في المقال التالي:

Edward Mendelson, *"Auden and God"*, The New York Review of Books 54, no. 19, December 6, 2007.

الفصل الثاني: المنبوذةُ والمقبولُ اجتماعيًّا

٢. الاقتباس مُتاح عبر الرابط التالي:

www.bible.org/illustrations/boris-becker

3. Quoted in Alistair Begg's The Hand of God (Chicago: Moody, 2001), 72.

٤. خطابٌ ألقاه ديڤيد فوستر والاس (David Foster Wallace) في حفل تخرُّج كلِّيَّة كينيون (Kenyon College) بتاريخ ٢١ أيَّار/مايو عام ٢٠٠٥م، ويمكن الاطِّلاع عليه بواسطة الرابط التالي:

www.manic.com/sg/water

الفصل الثالث: الأختان النائحتان

٥. ربَّما يكونُ أفضلُ كتابٍ يمكن قراءته بهذا الشأن، والذي يعرضُ لجميع هذه القضايا، هو الكتاب التالي:

Richard Bauckham, *Jesus: A Very Short Introduction* (Oxford, 2011).

وفي هذا الكتاب يُقدِّم بوكهام عَرضًا موجزًا للدِّراسات الأكاديميَّة التي تدعم كلًّا من الحقائق التالية: أنَّ الأناجيلَ تمثِّلُ رواياتٍ مَوثوقٍ بها لشُهود عِيان، وأنَّ يسوعَ قدَّم نفسَه بوَصفِه الله، وأنَّ الكنيسةَ الأولى كانت تعبدُه على هذا النحو. وفي قائمة المراجع الملحَقة بالكتاب، يقدِّمُ المؤلِّف مجموعةً وافرةً جدًّا من المصادر الأخرى. وأحَدُ هذه المصادر هو كتابٌ آخرُ للمؤلِّف، وكتاب للمؤلِّف پول بارنيت (Paul Barnett)، تفاصيلهما على التوالي كالآتي:

Richard Bauckham, *Jesus and the Eyewitnesses* (Eerdmans, 2006).

Paul Barnett, *Finding the Historical Christ* (Eerdmans, 2009).

٦. انظر المراجع التالية:

Richard Bauckham, *"The Worship of Jesus in Early Christiantiy"*, in Jesus and the God of Israel (Eerdmans, 2009).

Simon Gathercole, *The Preexistent Son of God: Recovering the Christologies of Matthew, Mark, and Luke* (Eerdmans, 2006).

٧. انظر كتاب:

John Gerstner, *Theology for Everyman* (Moody, 1965), 45.

الفصل الرابع: حفلُ العرس

٨. يقول كارسون في كتابه "الإنجيل بحسب يوحنَّا": "يُفضِّل يوحنَّا هنا اللفظة البسيطة «آيات»؛ لأنَّ معجزات يسوع ليست مجرَّد استعراض للقوَّة، وليست خدَعًا بصريَّة لإبهار الجماهير، بل هي «آيات» أو «علامات»، أي إظهاراتٌ لافتة للقوَّة تشير إلى ما هو أبعد منها- إلى مستويات أعمق للواقع لا يمكن إلَّا لعيون الإيمان أن تلتقطها".

انظر كتاب:

D. A. Carson, *The Gospel According to John* (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1991), 132.

٩. انظر كتاب:

Reynolds Price, *Three Gospels* (New York: Scribner, 1996), 132.

١٠. المرجع السابق نفسه، ص ١٣٧.

١١. انظر رواية:

Fyodor Dostoyevsky, *The Brothers Karamazov* (Raleigh, NC: Hayes Barton Press, 1963), p. 220.

١٢. مأخوذة من النصوص المدوَّنة لتسجيلات برنامج "ستُّون دقيقة"، المجلَّد ١٥، والعدد ٢١ الصادر بتاريخ ٦ شباط/فبراير ١٩٨٣م. اقتُبِسَ هذا الجزء في المرجع التالي:

Charles Colson and Ellen S. Vaughan, The Body (Word, 1992), 188>.

١٣. انظر أيضًا لوقا ٢: ٤١-٥٢

الفصل الخامس: أوَّلُ مسيحيَّة

١٤. انظر كتاب:

D. A. Carson, *The Gospel According to John* (Eerdmans, 1991), 641.

١٥. مأخوذ من مقدِّمة الطبعة الكاملة لكتابات مارتن لوثر (١٥٩٥م)، والتي أُعيد نشرُها في المرجع التالي:

Timothy F. Lull and William R. Russell, eds, *Martin Luther's Basic Theological Writings,* 3rd edition (Fortress Press, 2012), 497.

١٦. انظر رواية:

Annie Dillard, *Pilgrim at Tinker Creek* (Harper Collins, 2009), 36.

الفصل السادس: العدوُّ الأكبر

١٧. انظر رومية ٨: ٢٨

١٨. انظر كتاب:

Andrew Delbanco, *The Death of Satan: How Americans Have Lost the Sense of Evil* (Farrar, Straus and Giroux, 1995), 19.

١٩. انظر رواية:

J. K. Rowling, *Harry Potter and the Sorcerer's Stone* (Scholastic, 1997), 291.

٢٠. انظر كتاب:

Edith Margaret Clarkson, *"We Come, O Christ, to You"* (Hope Publishing, 1987).

٢١. انظر المصدر عبر الرابط التالي:

http://www.biblebb.com/files/ryle/assurance.htm.

٢٢. انظر المصدر عبر هذا الرابط:

http://www.gracegems.org/Ryle/holiness5.htm.

٢٣. سي. أس. لِويس، المسيحيَّة المجرَّدة، أوفير- عمَّان، ٢٠١١م.

الفصل السابع: المحاميان

٢٤. انظر مصدر الترنيمة:

Horatio Spafford, *"It is Well with My Soul"* (1873).

الفصل الثامن: السيِّد المطيع

٢٥. انظر كتاب:

Frederick William Danker and Walter Bauer. *A Greek-English Lexicon of the New Testament and Other Early Christian Literature* 3rd ed. (Chicago: University of Chicago Press, 2001), 303.

٢٦. انظر كتاب:

Ronald K. Rittgers. *The Reformation of Suffering: Pastoral Theology and Lay Piety in Late Medieval and Early Modern Germany* (New York: Oxford USA, 2012), 47.

٢٧. انظر كتاب:

Wlliam L. Lane. *The Gospel According to Mark* (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1974), 516.

هناك لاهوتيٌّ آخر يؤمن بأنَّ يسوع ذاق في البستان عيِّنةً من الغضب الإلهيِّ، وهو جوناثان إدواردز. انظر عظته بعنوان "جهاد المسيح" والمتاحة في صورٍ مختلفة، لكن يمكن الحصول عليها من هذا الرابط:

http://www.ccel.org/ccel/edwards/sermons.agony.html.

٢٨. أساء العديد من الناس فهمَ هذا الفارق، واعتقدوا أنَّ طاعة المسيح الإيجابيَّة تشير إلى حياته الرائعة وطاعته السلبيَّة تشير إلى موته. لكنْ في حقيقة الأمر، فإنَّ هذين المصطلحَين يشيران إلى بُعدَين متكاملَين في مجمل طاعته (سواء في حياته أم في موته)؛ فحتى في حياته كان يسوع قد ابتدأ فعلًا يدفع عقوبةَ خطيَّتنا، وذلك بمعاناته من قسوة البشر التي زرعتها فيهم لعنة الخطيَّة؛ وأيضًا في موته كان مُبادِرًا في محبَّته لله ولنا، ومُتَمِّمًا مطاليب الناموس (القانون) بصورة إيجابيَّة. حول هذا الأمر، انظر:

John Murray, *Redemption Accomplished and Applied* (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1955), 20-22.

٢٩. انظر ١كورنثوس ١٥: ٤٥

٣٠. انظر غلاطيَّة ٣: ١٣؛ وتثنية ٢١: ٢٣. لفظة "خشبة" كما وردت في هذين الشاهدَين جاءت في الأصل بمعنى "شجرة".

الفصل التاسع: يمين الآب

٣١. مقتبسة من ترنيمة "تتوّجوه بالكثير من الأكاليل" لمؤلِّفَيها ماثيو بريدجيز وجودفري ثرينغ.

٣٢. انظر كتاب:

Louis Berkhof, *Systematic Theology* (Eerdmans, 1941), 350.

٣٣. المصدر السابق نفسه، ص ٣٥٢.

٣٤. العبارة مقتبسةٌ في كتاب فيليپ يانسي كالتالي:

Philip Yancey, *The Jesus I never Knew* (Zondervan, 2002), 228.

٣٥. انظر الموقع الإلكترونيّ التالي:

Westminister Larger Catechism, Question and Answer 53, available at www.reformed.org/documents/larger1.html.

٣٦. انظر كتاب:

Jonathan Edward's "Personal Narrative" in A Jonathan Edwards Reader (Yale University Press, 2008), 289.

٣٧. المصدر السابق نفسه، ص ٢٩٣.

كتب أخرى بقلم

تيموثي كَلِر

Timothy Keller

للمؤلِّف عدَّة كتبٍ منشورة، وقد تُرجمَ منها إلى العربيَّة
من أوفير للطباعة والنشر:

"الإيمان في عصر التَّشكيك"

"مَثلُ الابنَين الضَّالَّين"

"حرِّيَّةُ نِسيان الذَّات"

للمزيد عن هذه الكتب، انظُرِ الصفحات التالية.

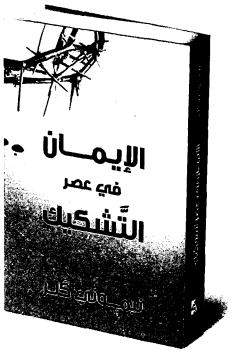

الإيمان في عصر التَّشكيك

(The Reason for God)

- لماذا يَسمَحُ الله بالألم؟
- كيف يُمكنُ لله المحبِّ أن يُرسلَ أُناسًا إلى جهنَّم؟
- هل يُعقَلُ أن يكونَ هناك طريقٌ واحدٌ فقط إلى الله؟

هذه فقط بعضُ الأسئلة والشُّكوك التي تُساورُ ليس المشكِّكين فقط، بل أيضًا المؤمنينَ المتمكِّنين بشأن الدِّين. لقد جمع تيموثي كَلِر لائحةً بأكثر "الشُّكوك" شيوعًا، وفي هذا الكتاب يُفكِّكُ ببراعةٍ كلًّا منها مستخدمًا الأدبَ والفلسفةَ والمحادثاتِ الشخصيَّةَ والتَّحليلَ المنطقيَّ، ليُبيِّنَ أنَّ الإيمانَ بالله يُمثِّلُ عقيدةً عقلانيَّةً وطيدة، يعتنقُها مفكِّرون ذوو سلامةٍ عقليَّة ولهم حنوٌّ شديد على أولئك الذين يُريدون حقًّا أن يعرفوا الحقيقة.

مَثَلُ الابنَين الظَّالّين

(The Prodigal God)

يستخدمُ كَلِر الأسلوبَ العقلانيَّ الذي عُرِفَ به لفَهْم المسيحيَّة، ليُبيِّنُ الرسالةَ الجوهريَّةَ ليسوع المسيح، المخبَّأة في مَثَله الأشهر "**الابن الضَّالّ**". في ذلك المَثَل يكشفُ يسوع عن نعمة الله السخيَّة من نحوِ أولئك البعيدين عن الله والمتديِّنين الأخلاقيِّين الذين يعتقدون أنَّ التديُّن هو الطريق للوصول إلى الله. إنَّ هذا الكتابَ يضعُ التحدِّيَ سواءً أمام مَنِ اختاروا طريق التديُّن أم أولئك السالكين في طريق التَّشكيك والبُعد عن الله، ويُعلنُ أنَّ في المسيحيَّة طريقًا ثالثًا جديدًا كلِّيًّا.

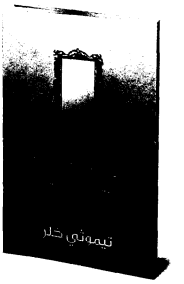

حرِّيَّةُ نِسيان الذَّات

(The Freedom of Self Forgetfulness)

في هذا الكتيِّب المؤثِّر، يُبيِّن لنا تيموثي كَلِر (وهو أَحَدُ المؤلِّفين الأكثر رَواجًا) أنَّ التَّواضُع- بالمعنى الذي يُعلِّمه الكتاب المقدَّس- يَعني أن نتوقَّفَ عن رَبْط كلِّ خبرةٍ حياتيَّة أو مُحادثةٍ بذواتنا لكي نتحرَّرَ من إدانة أنفسنا. فالشَّخص المتواضع، وَفقًا لمفهوم الكتاب المقدَّس، هو شخصٌ لا يَكرَهُ نفسَه وليس مُغرمًا بنفسه، بل هو شخص غير مُنهمكٍ في نفسه.

ويمكنُك أنت أيضًا أن تَنعُم بهذه الحرِّيَّة...